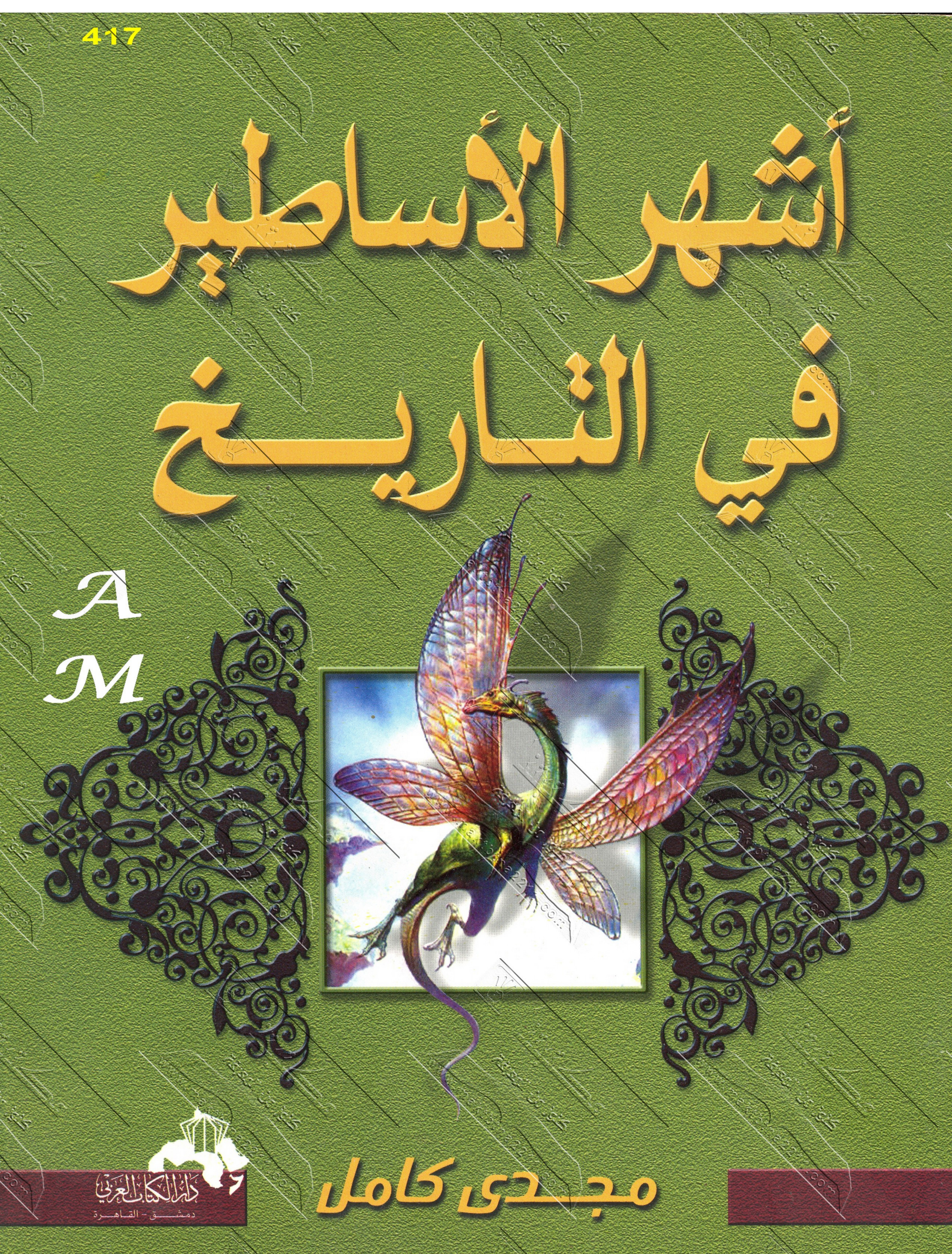

417
أشهر الأساطير في التاريخ
A
M
مجدى كامل
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة
http://www.maktbtna2211.com/



أشهر الأساطير في التاريخ

الأساطير .. طفولة التاريخ فكما خرجت الكيمياء من رحم السحر خرج التاريخ من رحم الأساطير .. وحنين الإنسان للأساطير يمثل فى رأى بعض علماء الاجتماع والنفس حنينا لطفولة البشرية الأولى وذاكرتها الخالدة.

وقد صنف العلماء العصور المختلفة التى مرت بها الأمم من العصر الأسطورى إلى العصر الدينى إلى العصر العلمى.

وقد طبع كل عصر من هذه العصور بصمته المميزة على مسار البشرية. ولكن يبقى العصر الأسطورى هو مهد البشرية وطفولتها المدللة .. وتسترجع من خلال اللاوعى الجمعى بعضا من هذه الذكريات لفضول الطفل الكامن فى ثنايا البشرية فمن أساطير الخلق الفرعونية والاغريقية والهندوسية والصينية واليابانية .. إلى آلهة الفراعنة وآلهة الاغريق وآلهة الأشوريين وآلهة الهندوس وآلهة الصينيين. ونقرأ عن جلجامش وافروديت ربة الحب والجمال وكيوبيد والعنقاء وسيزيف .. والكثير الكثير من الأساطير.

وتظل الأساطير فى النهاية معين لاينضب من الحلم والخوف والتلاشى والنشوة. ومصدر للالهام والابداع ولابد لهذا الك... ف
كان يفكر ...
نعرف كيف ...
والسطوة والتى ...
تفرض حضور ... ذا
.. السحر .. الجن وحكايا الأساطير.




دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة
W. Salama0101517873


المخوزق
كتابنا القادم
أثر
أشرف فقيه


R4BIA

أشهر الأساطير في التاريخ

مجدى كامل

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

تقديم

تشابه الأمم فى عصورها المختلفة، ويرى علماء الاجتماع - أنها فى تاريخها الطويل- قد مرت بالعصر الأسطورى، ثم بالعصر الدينى، وها هى ذى الآن تمر بالعصر العلمى، وكل عصر من هذه العصور قد ترك بصماته الواضحة على مسار البشرية التى لا تزال تحلم أحياناً بمهد طفولتها الأولى وتنتشى أحياناً بذكرى أساطيرها السالفة، بل إنها لا تزال فى كثير من الأحيان تهفو إلى تفسير الأشياء خرافيًا وأسطوريًا.

ومن هنا كانت دراسة الأساطير إرضاء لهذه النزعة الفطرية من جهة ومجالا خصبًا لدراسة النفس البشرية من جهة أخرى.

وبما أن الأمم تتشابه فى عصورها المختلفة، فلقد كان هناك العصر الأسطورى الذى شهد طفولة الزمان، وشهده الإغريق القدماء حينما كانت تسبح خيالاتهم فوق قمة جبل «دلفى» وحول عيون المياه المقدسة، فتصوروا الآلهة يحبون، ويبغضون، ويحقدون، ويثورون، ويخدعون، كما شهده العرب القدماء، حينما كان شعراؤهم يهيمون مع الشياطين فى الوديان، يستلهمونهم الشعر، ويطارحونهم القول، ويستعينون بهم فى الملمات، بل ويقاتلونهم وينتصرون عليهم.

وشهده المصريون القدماء حينما نزل الآلهة «إيزيس وأوزوريس، وست» إلى الأرض، فكان الصراع الخالد بين الخير والشر.

وأساطير الأمم كالأفراد لها حظوظ، وللحظوظ جاذبية، ولا شك أن حظ أساطير الإغريق كان أوفر، فلقد استحالت أساطير الإلياذة والأوديسة، وغيرها إلى مسرحيات «أتلانتا، وجانميد، وأجممنون، وبرومثيوس، وأرستس، وميديا، وأوديبوس، وانتجون، وأثجينيا، بين الطوريين، وأفيجينيا فى أوليس على يد الشعراء الإغريق يوريبدس

وسوفوكليس وإيستخيلوس وغيرهم.

أما الأساطير العربية التى تناثرت فى كتاب الحيوان، وسيرة ابن هشام وبلوغ الأرب، وعنترة، والأميرة ذات الهمة، وسيف اليزن، وغيرها، فلم تظفر بقليل ولا كثير من الدراسة أو الاستلهام.

وأما الأساطير المصرية فلم يطف منها كائن مهما بلغ من القوة الروحية أن يجمع بينهما إلا أسطورة «إيزيس وأوزوريس»، وبخاصة بعد أن انتقلت ديانة «إيزيس» إلى الإغريق، واستطاع «باخوس» إله النماء والخير أن يتقمص شخصية «أوزوريس».

هذه الأسطورة كان لها أثرها فى الأدب الشعبى، فـ «سعد اليتيم» ما هو إلا «حورس» الذى استكن فى ضمير الشعب المصرى.

من هنا يتبين مدى إهمال العقلية العربية بعامة، والمصرية بخاصة فى استلهام الأساطير، والانتفاع برموزها ومدلولاتها، وأطرها المعدة -سلفًا- لاحتواء الرموز، والمدلولات، والفلسفات المختلفة.

هذا الإهمال وقف -دون شك- فى سبيل إخصاب العقلية العربية، وسد الطريق أمام مجال حيوى كان له أثره الحى، بل الخطير فى النهضة الأوربية حينما كانت الأساطير مشحونة بمعانى الثورة، والتمرد العقدى ضد خرافات الكنيسة فى القرن السادس عشر.

وعلينا - كرجال فن وأدب - أن نستغل الأساطير، وأن ننقب فى التراث وأن نبحث عن الجذور، كى نصل إلى الأعماق، وإلى المقومات الأصيلة، فنستلهمها من جديد، فى الوقت الذى نفتح فيه مجالًا خصبًا يثرى أدبنا حينما نستغل الأسطورة كرمز وإطار.

صحيح، استطاع توفيق الحكيم أن يستلهم أساطير الإغريق، «براكسا وبجماليون، والملك أوديب»، وأن ينقب عن أساطيرنا فى «أهل الكهف»

و«شهر زاد» و«سليمان الحكيم»، و«إيزيس»، و«السلطان الحائر»، و«شمس النهار»، ولكن المجال لا يزال خصبًا، والأرض لا تزال بكرًا.

وللأساطير أهمية بالغة؛ لأن ما تتضمنه من القصص الخيالى، يخفى وراءه كل ما تنطوى عليه أصول الفكر، السابق للتعقل، من ثراء وحقائق.

وقد توصل أحد علماء النفس الأفذاذ، «كارل جوستاف يونج»، إلى أن ما يصدر من بعض المصابين «بالشيزوفرانيا» أو بعض الأمراض العقلية من هلوسة، يتضمن روايات، تنطبق نصوصها ومشاهدها انطباقًا حرفيًا على نصوص الأساطير اليونانية، أو اللاتينية، أو الهندية، فى حين أن هؤلاء المرضى، لم يسبق لهم أن سمعوا بتلك الأساطير، وهم يؤكدون أنهم اخترعوها اختراعًا، أو لعلها كانت «رؤيا» حقيقية.

وتؤكد الأبحاث الأكثر حداثة، على أن الأساطير ما هى إلا تجمعات غير واعية، تتركز فى العقل الباطن، وأن الأساطير الرئيسية وبصفة خاصة تلك التى تتعلق بالعناصر الطبيعية، مثل: الماء، والهواء، والأرض، والنار، أو بأحداث الحياة الكبرى، مثل: الولادة، والحب، والموت موجودة فى داخلنا دون أن ندرك وجودها.

وفى حالة المريض بمرض عقلى، أو الإنسان الذى يحلم، تبرز هذه الأساطير من الذاكرة، حيث كانت مختزنة.

وكان من الطبيعى أن يشغل كوكب الشمس، مكانة بارزة فى أساطير معظم الشعوب، فالشمس هى سيدة النهار، والمصدر الوحيد للضوء فى هذا العالم.

وقد كانت شعوب الغال، والجرمان، والاسكيثيين، يعيشون فى خشية دائمة، من أن تغرب الشمس يومًا ما ولا تعود.

أما بالنسبة لشعوب المايا، والأنكا، والأزتك، فقد كانت الشمس إلهًا مسيطرًا، لا يتردد فى صب جام غضبه لأدنى جرم أو خطأ، إما بالاختفاء أو باشتداد حرارتها، الأمر الذى كان يجعل الأراضى الخصبة تتحول إلى صحارى.

ولا شك فى أن ظاهرة كسوف الشمس، كانت تثير فزع تلك الشعوب، ولذلك فإن تقاليدهم الدينية كانت تحمل لهم ذكريات مريرة أما الفرس، فكانوا يتقربون بصلواتهم لكل من الشمس والقمر.

كان تصور الناس للكواكب، فى تلك العصور، أنها أسطح مضيئة، أو ثقوب فى القبة السماوية، تسمح بمرور أضواء العالم الآخر.

أما المصريون فكانت الشمس بالنسبة لهم تتضمن ثلاثة آلهة، هى: حورس، ورع، وأوزوريس.

فحورس: هو الشمس عندما تشرق، وكانوا يمثلونها بطفل يمص إبهامه، وينمو الطفل، ويبلغ أشده فى فترة الظهيرة، ويصبح الإله رع، وكانوا يخصونه بشعائر عظيمة، ثم تأخذ الشمس فى الأفول وتشيخ، وتصبح الإله أوزوريس، الذى يموت كل مساء، مغلوبًا على أمره، أمام الإله «ست»، إله الظلام الذى يتربص به فى الغرب، ولكن أوزوريس له زوجة، هى إيزيس «القمر» وتقوم إيزيس، كل ليلة، بعبور السماء بحثًا عن زوجها، إلى أن تعثر عليه فى الصباح، وتلد له ابنًا جديدًا هو حورس، وهكذا ينبلج النهار.

ويقول المصريون: إن أوزوريس وإيزيس، فى بداية الأمر، كانا يحكمان مصر وأنهما شرعا لها القوانين، وعلما أهلها الزراعة، وبعد ذلك خرج أوزوريس، على رأس جيش عظيم، لكى يخضع الأرض كلها، مستخدمًا فى ذلك الموسيقى والشعر. وعندئذ حكمت إيزيس مصر، ولكن ست «الليل»، الأخ الحسود والغادر لأوزوريس، حاول

خلعه عن العرش فتحبط إيزيس محاولته، وفى أثناء وليمة أقامتها ملكة الحبشة تكريمًا لأوزوريس، تمكن ست من حبس الملك العظيم داخل صندوق محكم الغلق، وألقى به فى النيل، وعندما علمت إيزيس بذلك من الآلهة، ارتدت ملابس الحداد، وشرعت فى البحث عن الصندوق، إلى أن عثرت عليه فى النهاية، وهكذا ينجح القمر فى إنقاذ الشمس مرة أخرى.

وإنا لنجد هذه الخشية نفسها فى أسطورة «فيتون» اليونانية. فالشمس تخرج، كل يوم، بعربتها عابرة السماء، فى رحلة محفوفة دائمًا بالأخطار؛ لأن العربة إذا ما ضلت طريقها فى أجواء السماء، هبط الليل، أما إذا اقتربت كثيرًا من الأرض، فإنها تحترق.

وعندما حاول «فيتون» ذات يوم، أن يستولى على عربة الشمس، عَرَّضَ بذلك الكون لحريق شامل، أمكن تجنبه فى آخر لحظة، وترمز الأسطورة إلى فترات الجفاف التى مرت بها اليونان القديمة.

وكانت حيازة النار، من العوامل التى ساعدت الإنسانية على تحقيق طفرة واسعة فى سبيل التقدم؛ ولذلك فقد كانت المحافظة على النار، موضع اهتمام بالغ يشغل بال الإنسان، ويقتضيه السهر عليها.

ففى روما، كانت العذارى اللائى يكلفن السهر على النار، يدفن أحياء إذا ما ارتكبن جريمة ترك النار تخمد، غير أنه إذا كان الإنسان بسيطرته على النار قد جرد الكون من جزء من قدرته، فقد ظل يخشى انتقام السماء، وهذا هو ما ترمز إليه أسطورة «بروميثيوس»، الذى صنع تمثالًا من الصلصال على شكل إنسان، وأرادت مينرفا مساعدته على إتمام هذا العمل، فقادته إلى السماء، وهناك لاحظ بروميثيوس أن نار السماء هى مصدر الحياة، فأخذ منها شرارة، ليستخدمها فى إضفاء الحياة على تمثاله؛ كما أضفى عليه فى نفس الوقت، بعض الخصال، فأخذ من

الأرنب البرى جبنه، ومن الثعلب مكره، ومن النمر شراسته، ومن الأسد قوته، ومن الطاووس تيهه، وبعد أن أتم مهمته، أطلق على مخلوقه اسم «الإنسان». وعندما شاهد جوبيتر «إله الآلهة عند الرومان» هذه الأعجوبة ملأت الغيرة قلبه، فقام بتقييد بروميثيوس فوق القوقاز.

وتدل هذه الأسطورة الزاخرة بالمعانى - من بين ما تدل عليه - على أن جسم الإنسان تابع للأرض، ولكن روحه آتية من السماء، كما أنها تعبر عن الثورة ضد الآلهة، وأن الإنسان نشأ نتيجة لهذه الثورة، وهى تؤكد - أيضا - على أهمية الدهاء، والشجاعة، والحركة، غير أن بروميثيوس، بخلقه للإنسانية وللحضارة، جعل الألهة تصب جام غضبها على «الإنسان».

والمعروف أن علم الفلك القديم يعزى لبروميثيوس، كما أن علامة برج الدلو، وهى علامة عصر الاتصال بالكواكب الذى نحن مقبلون عليه، هى - أيضًا - العلامة التى ترمز لهذا البطل الأسطورى.

لا تقتصر أهمية البحار، على أن كل شىء حى ينبع منها، بل إن بقاء الإنسان يتوقف على وجود الماء فوق الأرض.

ففى بلاد مثل مصر - التى تعتمد فى محاصيلها على فيضان النيل وفى تلك العصور القديمة بالذات التى يشغل فيها النهر منزلة الآلهة، كان الإنسان يتصور أن الأنهار تنبع من مناطق مجهولة، يمسك فيها أحد الألهة بقدر، ويسكب ما فيه على هواه أو بحكمة.

والماء كالنار، يمثل أخطارًا نجدها واردة فى أسطورة «دوكاليون»، وفى قصة الطوفان الذى ورد ذكره فى القرآن، أمر الله نوحًا بأن يصنع سفينة، يحمل فيها من كل خلق زوجين، إلى جانب أهله، ومن آمن معه، فيما عدا ولده الكافر، وبدأ الطوفان، وابتلع كل شىء على وجه

«الأرض» حتى الجبال التى حاول الإنسان أن يلجأ إليها وبعد أن اغتسلت الأرض بهذه الطريقة، أصبح باستطاعتها - أى الأرض -أن تبدأ عهدًا جديدًا، يرفرف عليه السلام وتتوافر فيه الخيارات.

أما البحر فهو ملىء بالآلهة، وذلك طبقًا لأسطورة «أوليس»، فهناك أولًا: وحوش البحر، وهى ترمز إلى الرعب الذى كانت تبعثه فى ذلك الوقت الحيوانات البحرية فى البحار والمحيطات، وهى أشد خطرًا، وأكثر عددًا، من حيوانات البر الآهل السكان، وعلى مبعدة من أعمدة هرقل، حيث تنتهى حدود البحار، يبدأ الفراغ، ثم تمتلئ المحيطات بالفخاخ، مثل: كاريبدس، وسيلا، وهما اللذان اضطرت سفينة «أوليس» لشق طريق لها من خلالهما.

أما إله البحار الأعظم فهو نبتون، وهو إله يتسم بالقتامة والتقلب، ولكنه فى نفس الوقت ذو خصوبة، وهو يستخدم لمعاونته حيوانات الدلافين التى تعمر سلالتها مياه البحار.

لم يسبق للإنسان، وحتى يومنا هذا، أن اعتقد بأن الموت يعنى فناء الروح، وهكذا نجد أن الأترويين، مثلهم كمثل المصريين، يزينون مقابرهم، بمختلف الأدوات، والمواد الغذائية، لكى تنعم الروح برحلة طيبة.

وكان الهنود، يعتقدون أن روح الميت تتقمص حيوانًا أو إنسانًا آخر. وتبعًا لما كان عليه الميت فى حياته من الحكمة أو الجنون، والتقوى أو الفجور، فإن الروح تتقمص حيوانًا، أو تصبح فى حياتها الأخرى روحًا للإنسان، أكثر حكمة، وأشد تقوى، وفى نهاية هذه المرحلة التطورية، تبلغ الروح مرتبة النيرفانا.

وهكذا استبدلت بالجحيم لدى البراهمانية، حياة أخرى شائنة.

أما شعوب اسكندنافيا، ومجموعة الشعوب الجرمانية، فكان اعتقادهم

أن روح الميت تنتقل إلى الوالهالا، والأرواح التى يقع عليها الاختيار لدخول الفردوس، تشتبك فى معارك عنيفة، لا يراعى فيها وزن للألم، وتبعث إلى الحياة بمجرد وفاتها؛ وعندئذ تستطيع أن تأكل على مائدة الاثنى عشر إلها، التى تقدم عليها لحوم الخنزير البرى الشهية، التى تتجدد على الدوام، ويشربون اللبن المقدس من عنزة هايدوركس، وقد يشربون أيضًا جعة لذيذة، لدرجة أنها تسبب النشوة.

أما الجحيم، فكانوا يطلقون عليه اسم «نيفهايم» أو مملكة الأموات، وهو مكان فى باطن الأرض، تكتنفه الظلمات، وكان هذا الجحيم يضم أرواح الخونة لتخلد فيه إلى الأبد.

ويرد ذكر الأنهار فى الأساطير اليونانية الرومانية كذلك، فعلى ضفاف نهر أكارون تتدافع الأرواح فى انتظار وصول كارون، لينقلهم فى قاربه إلى قصر بلوتون الذى يحرسه كربير، الكلب ذو الثلاثة رءوس، وهناك يوجد ثلاثة قضاة، هم: مينوس، وأياك، ورادامانت، يصدرون أحكامًا لا نقض لها، ويحتجز كبار المذنبين داخل حلقة مثلثة من النحاس، حيث يقوم أفراد من الجن، بتعذيبهم عذاباً لا شفقة فيه.

وهناك أربعة أنهار عظيمة أخرى تجرى فى هذا الجحيم، وهى الكوكيت الذى يسكب سيلا من الدموع، نهر ستايكس أو نهر البغضاء، ونهر الفليجيتون الذى يتكون من الحمم والنيران والقار، ثم نهر الليثيه وهو نهر النسيان. وفيما وراء ذلك يبدأ الفردوس، أو حقول الأليزيه، وهناك تنعم أرواح الأبرار بكل الملذات الدنيوية، وهى هناك لا حدود لها ولا نهاية، ويزخر المكان بالبهجة، والرقص، والحب، والموسيقى، وكل أنواع الخيرات، فى حين تقوم الآلهة بإزاحة الستار عن أسرار الكون، وقبل أن يعود السعداء إلى الأرض، يجب أن يشربوا من مياه نهر الليثيه، لكى يبدأوا حياة جديدة.

أساطير الخلق

* أسطورة الخلق الفرعونية
* أسطورة الخلق الإغريقية
* أسطورة الخلق الهندوسية
* أسطورة الخلق الصينية
* أسطورة الخلق البابلية
* أسطورة الخلق اليابانية

أسطورة الخلق الفرعونية

كان «رع» إله الشمس ـ أشهر الآلهة فى مصر القديمة التى حاول الكهنة أن يقربوا بها إلى أذهان العامة فكرة الخالق العظيم الواحد الذى هو الأصل فى حياة كل شىء، وقد جعلوا لرع من الذرية ثمانية أبناء أربعة ذكور وأربع إناث، كل ذكر منهم متزوج بأنثى، «فشو وتفنوت» رمز الهواء والنار «وكسب ونوت» رمز الأرض والسماء، «وأوزوريس وإيزيس» رمز النيل والتربة، و«ست ونفتيس» رمز الصحراء والضوارى.

وتقول العقيدة القديمة: إن السماء كانت لا تزال متصلة بالأرض حين تمرد البشر على الآلهة الذين كانوا يعيشون بينهم، وازداد بالبشر الفساد حتى ثار غضب رع وقرر أن ينزل بهم نقمته، وبعد طوفان من الدم، عفا الإله عمن حافظ على عهده من الناس، غير أنه منذ ذلك اليوم امتنع عن مخالطتهم وفصل السماء عن الأرض ليجعل منها مقامًا وسكنًا، وليشرف من فوقها على كل أبناء البشرية.

وهناك فى قلب هليوبوليس كان يقبع قصر فخم لم تعرف مصر مثله على الإطلاق، أمام أبوابه تنتصب مسلات شامخة، وعمد ضخمة، وعلى جوانب ممراته تصطف تماثيل أسود وكباش، ترقب كل زائر غريب، وتنحى كل مارد رجيم.

أما القصر نفسه، فيموج بجموع هائلة من الخدم، كلهم عيون مفتوحة، وآذان مرهفة، فى حراسة الإله الأكبر «رع» رب القصر العظيم.

وهنا فى هذا القصر كانت تجرى قصة الحياة.

يفتح رع إله الشمس عينيه، فيبزغ الفجر على الوجود، وينهض من فراشه ليدلف إلى الحمام يستحم بالماء البارد، وتقبل عليه «أنوبيس» إلهة الندى فتصب عليه أباريقها الأربعة الطاهرة، وينطلق «حورس» فيدلك

جسده. وينحنى «نوت» فيجفف ساقيه، وما يكاد الجميع ينتهون، حتى يرتدى الإله الأكبر ملابسه المتلألئة ذات البريق، وينطلق من أمامه الرسل تتسابق لإخلاء الطريق، ومن حوله جنود الموكب ينحنون حتى تلامس جباههم غبار الأرض، ويصل الإله إلى زورقه العلوى الراسى على ضفة النهر، فيستقله منزلقًا به على الأمواه بلا مجداف ولا شراع ولا سكان، ويطلع النهار فيهتف الناس والآلهة على الضفتين:

تباركت يا رع، يا خالق السماوات والأرض، يا مرسى الجبال وساقى البحار، يا رسول الفرح والحرارة والضوء إلى أرض السلام. !

ومن الشرق، تبدأ دورة كل يوم؛ لتنتهى بعد ذلك فى الغرب، حيث يختفى موكب رع فى طيات الأفق، فتظلم الأرض، وتضىء ظلمات العالم السفلى- إقليم الجحيم الرابض فى الأعماق - وهناك يستمر مسير الإله على صفحة نهر كبير، يخترق واديًا يتفرع إلى اثنى عشر فرعًا، تفصل كل واحد منها عن الآخر جدران هائلة ذات أبواب ضخام.

وتجرى رحلة الليل كما تجرى كل يوم.

وتمر الساعات هادئة طوالًا والإله لا يزال يسير، حتى يلج الباب الذى يصل إلى حدائق «أيالو»؛ حيث يرقد رقدة قصيرة فى قصره الكبير، ما أسرع ما ينهض بعدها ليبزغ الفجر، وتبدأ إشراقة يوم جديد.

وكان الناس - كل الناس فى هذا العالم الكبير - يسجدون لرب النور كل صباح.

الرب السخى على كل خلقه فى هذه الأرض، فهو لا ينسى طوال تسياره أن يصرف كل أنواع الأعمال، يقابل الخلق ويهديهم، ويقضى فى شكاوى المظلومين، ويرفق بالمعذبين فيزيل عنهم الأوجاع، ويعلم الناس تعاويذ الوقاية من خطر الثعابين والحيات، ويمنحهم الطلاسم التى تطرد

كل شرير من الأرواح. [ولم يبخل رع على الناس أبداً بما يحمل من تعاويذ وطلاسم حتى لم يبق له منها سوى سر اسمه الإلهى، الذى أطلقه عليه والداه يوم ولد]، ولم يبوحا به لأحد سواه.

هذا الاسم كان هو وحده سر القوة التى يحكم بها رع عالمه الكبير، وكان يعرف أن من يصل إلى معرفة سر اسمه القدسى، بشراً كان أو إلهاً، فإنه يستطيع السيطرة على كل شىء فى الأرض وفى السماء.

والحق أن أحدًا من الآلهة والبشر لم يكن ليطمع فى ذلك السلطان والجبروت سوى إيزيس التى طالما أبصرت مظاهر القوة التى يتمتع بها أبو الآلهة، وتلك القدرة التى يطوى سلطانها كل شئ، وما أكثر ما تمنت إيزيس فى أعماق نفسها أن تعرف سر ذلك الاسم القدسى الغامض الذى يخفيه إله الشمس، حتى تملك بفعله السحرى كل الأرض وكل السماء، وتصبح به من بعده كبيرة الآلهة.

منذ ذلك الوقت امتلأ رأس إيزيس بفكرة الوصول إلى سر اسم الإله الخالد. فراحت تتابع رع فى غدوه ورواحه، ترقب وتسعى، حتى إذا ما أحست أن الإله قد بدا ينوء تحت عبء السنين، وتقوست قامته بدبيب الشيخوخة، ولم يعد يستطيع أن يضم فكيه، أو يقفل فمه، أو يمنع اللعاب القدسى من أن يسيل على الأرض هنا فقط أحست أنها تستطيع أن تتغلب عليه، لو هى استعملت مكر النساء.

والحق أن إيزيس كانت أشد مكرًا من ملايين من الرجال، وأقدر حيلة من ملايين من الأرواح. ومن خلال ذلك المكر وتلك الحيلة، عثرت إيزيس على الوسيلة التى تستخلص بها سر الاسم الإلهى، الذى يخفيه رع من بين شفتيه هو نفسه.

لقد كانت تعلم أن التعاويذ والرقى لا تنجح فى شفاء أمراض الآلهة

والبشر سواء، إلا إذا اختلطت فى التلاوة باسم المصاب نفسه - اسمه الحقيقى - الاسم المسلط على الشيطان الموجع الذى يسبب الأوجاع؛ فهى إذا استطاعت أن تصيب الإله الأكبر بمرض خبيث، أو أذى مستعص، فلن يستطيع أحد - بشرًا كان أو إلهًا - أن يشفيه، أما هى، فلن يكون أمامها سوى أن تتقدم إليه، وتقنعه بأن بُرْأَه فى مقدورها هى وحدها، على أن تخلط فى التلاوة اسمه الحقيقى بالتعاويذ، وهنا - فقط - سيجد الإله نفسه بين أمرين: إما أن يتحمل الألم الفظيع الموجع، وإما أن يكشف لها سر اسمه القدسى، وهو كل ما تبغيه.

شىء واحد كان يقف عقبة فى سبيل التنفيذ هو، كيف تستطيع أن تسبب له الأذى؟ وما من أحد يملك - قط - أن يؤذيه بغير أن يستعمل سر الاسم فى تعويذة الشيطان ولكن المكر النسوى لم يعجز عن بلوغ سبيل آخر؛ فقد كانت تعرف أن اللعاب المقدس المتساقط من فم «رع» يستطيع أن يمنح قوة السحر القدسية لأى شىء يختلط به.

وهذا هو ما يجب أن تهتم به.

وانطلقت إيزيس تتبع رع أينما ذهب وسار، حتى إذا ما شهدت بعض اللعاب يسيل من بين فكيه على تراب الأرض، أسرعت فأخذت حفنة من التراب مزجتها باللعاب المقدس، وعجنتها بيديها اللبقتين فى شكل حية، تشبه تمام الشبه تلك الحية التى تتوج رءوس الآلهة والفراعين، وفى غبار الطريق الذى يمر به رع خلال رحلته كل يوم، دفنت إيزيس حيتها بعد أن نفخت فيها الحياة بتعاويذ سحرية تحيى الجماد.

وجاء الصباح، وانطلق رب الشمس يستأنف رحلة النور الخالدة، وبينما هو فى طريقه مر حيث ترقد الحية المسحورة، وفى لحظة، كانت قد أنشبت فى عقبه أنيابها، وأفرغت من السم نارًا صاح لها الإله صيحة ارتجت لها جنبات الكون، واضطربت العربة فى يده واختلت، فأسرع

عائدًا يجرى ويصرخ، حتى استقر فى «أيالو» فتمدد على الأرض، والدموع تنهمر من عينيه مما يعانى من ألم مرير.

ودوت من السماء أصوات الآلهة وهى تنطلق مسرعة إلى حيث رقد رع، ولكن الإله الأكبر كان يرتعش، وينتفض، ولا يستطيع كلامًا قط، بينما السم الزعاف يتسرب إلى كل عضو فيه، ويسرى فى عروقه كالنيل عندما يدفع أمواهه إلى الأرض العطشى أثناء الفيضان.

ومرت الساعات طويلة رهيبة قبل أن ينتبه الإله إلى ما حوله، وعندما فتح عينيه دعا إليه من أحاط به من الآلهة، وشرع يشرح لهم ما جرى فى صوت أليم خفيض:

أنصتوا يا من خلقتكم قدرتى، لقد وخزنى شىء أذانى وأوجعنى وجعًا لا حد له، ذلك الشىء لم أصنعه ولم أخلقه ولم تَصُغْهُ يدى كما صاغت المخلوقات كلها، فما سره؟! ومن الذى استطاع أن يؤذينى؟! إن أحدًا لا يعلم سر اسمى الذى منحه لى أبواى وظل مودعًا خبيئًا فى صدرى ولا أحد يستطيع أن يؤثر فى جسدى بسحر وتعاويذ إلا إذا عرف سر الاسم، فكيف أصبت بهذا الأذى؟ كيف؟ كيف؟!.

ولم يعرف الآلهة كيف يجيبون، وطال بهم السكوت، حتى عاد رع يهتف بهم فى صوت مخنوق:

ليمثل أمامى كل أبناء الآلهة الخبيرون بالتعاويذ الشافية والطلاسم الواقية، ليقرأوا التعاويذ القادرة على طرد الأذى الذى لحق بجسدى وأوجعنى أشد الوجع وآلمنى أبغض الإيلام.

وأقبل عليه الآلهة يبكون ويولولون، وبكل ما استطاعوا من قدرة راحوا يجربون تعاويذهم لتسكين آلام الإله، غير أن القدرة التى منحوها لم تكن تستطيع أن تخفف لدغة الثعبان الذى عجن جسده واختلط بالمادة

المقدسة من لعاب الإله.

وصرخ رع يطلب إيزيس ربة السحر، التى تحمل ترياق الحياة، وتطرد كلماتها الآلام، وتوقظ همساتها الموتى.

ووقفت إيزيس تسأل رع:

- ما هذا الذى أصابك يا أبا الآلهة؟ أى مخلوق وخزك؟ وأى فرد من أبنائك انتقض عليك؟

أجاب رع:

- لست أدرى يا ابنتى بأى قدرة استطاع من وخزنى أن يسبب لى الوجع والإيلام، فجربى تعاويذك وانشرى سحرك واخنقى الألم الذى يكاد يقضى علىَّ.

قالت إيزيس:

- لا عليك يا أبا الآلهة، سأجرب تعاويذى وأدحر خصمك الملعون، سأجبره على الخضوع والاستسلام أمام قدرة تعاويذى وكلماتى!

وانفض موكب الآلهة، وتركوا إيزيس ربة السحر تحاول دحر أوجاع الإله.

خاطبت إيزيس رع فى صوت خفيض رقيق:

- إن سحرى سيطرد السم الزعاف، ويطرد عنك كل ما أصابك من أوجاع، فهيا يا أبا الآلهة، بح لى بسر اسمك الإلهى، اسمك القدسى الغامض، تمنح تعاويذى القوة، فترد عنك عدوك، وتزل عنك الغمة.

وانتفض رع، فما خطر بباله قط أنه سيأتى يوم يضطر فيه إلى البوح بسر اسمه القدسى، وداخله الريب فى إيزيس، واستشف من خلال كلماتها مكيدة تدبر له، وراح الإله يماطل ابنته، ويسرد متلطفًا لها كل

الألقاب التى يعرف بها فى السماوات والأرض:

- أنت تعرفين أن اسمى «خبرى» فى الصباح، و «رع» فى الظهر، و «تومو» فى المساء. وتعرفين أن لى أسماء أخرى كثيرة، وأشكالًا أخرى عديدة: فأنا خالق السماء، وخالق الأرض، أنا شمس الصيف، ووهج الظهيرة.

أنا النور والظلام، ومرسى الجبال، ومجرى البحار، أنا من يتولد الضياء من فتح عينى، ومن غمضهما يتولد الليل أنا كل هؤلاء يا إيزيس، فانطلقى بتعاويذك وأبعدى عن جسدى ما لا أطيق.

وابتسمت إيزيس وفى رأسها منه سخريات كبار، وراحت ربة السحر تتلو التعاويذ واحدة تلو الأخرى، وفى كل مرة تتخذ واحدًا من أسماء الإله، فما صنعت كلها شيئًا بآلامه، وما أحس هو لها من برء على الإطلاق.

واستمرت إيزيس تطيل فى التلاوة، والوقت يجرى ويمر، والآلام تسرى وتزداد مع تسلل السم المختلط باللعاب القدسى فى كل عضو من أعضاء رع.

وعادت إيزيس تتحدث من جديد:

- أبدًا لن يستطيع اسم واحد من كل تلك الأسماء أن يشفيك، إن اسمك السرى الغامض هو وحده الذى يملك القدرة على منح تعاويذى ما يشفيك، فهيا يا أبا الآلهة، بح لى بسرك أشفك على الفور، فأنت تعلم أن السحر لا يملك شيئًا إذا لم يختلط بالاسم الحقيقى لأى مصاب، ولو كان اسمك القدسى أنت!

وضغط الإله على فكيه، والسم يسرى وينتشر فى جسده، النار اللافحة تحرقه، والبرد المثلج يفريه، وهو بين النار والجليد ينهار ولا

يستطيع أن يفعل شيئًا قط.

وفجأة صرخ الإله؛ فقد انتصرت عليه الأوجاع، وحلت من لسانه القدسى عقدته، ومن خلال الصرخة الهائلة لفظ رع بتلك العبارة المؤدية إلى كشف السر:

- لينتقل اسمى الحقيقى من جسدى إلى جسدك يا إيزيس، افتحى مغاليق صدرى أيتها الابنة ينتقل سرى القدسى من أحشائى إلى أحشائك!!

وفتحت إيزيس صدر الإله، وانتزعت من حناياه الاسم السحرى، وقرنت ربة السحر تعويذتها باسم الإله، فاندحر الأذى وتوقف السم، وانتهى الألم الملعون!

وهنا - فقط - نجحت إيزيس.

ومنذ ذلك اليوم صارت تقبض على سر السلطان والقدرة - السر الذى يجعلها كبيرة الآلهة، وربة الربات، وصاحبة السيطرة والنفوذ. على أبى الآلهة نفسه رع العظيم!.

مع زوال القوة، ودبيب الشيخوخة، نزل الهوان بـ «رع»، وبدا الإله غير الإله، ووضح العجز بدل المجد، والانهيار بدل الصعود.

وأطل البشر من حولهم، فإذا إلههم هرم، عاجز، شقى، ساخط، لا يستطيع أن يفعل شيئًا على الإطلاق.

وهنا، بدأ الانقلاب.

وبعد أن كان البشر يسجدون ويصلون للإله العظيم، راحوا يسخرون، ويضجون ويتغامزون، ويهاجم بعضهم بعضًا من أجل الهزء بأبى الآلهة، ويقولون:

انظروا، لقد شاخ رع، شاخ الذى عظامه من فضة، ولحمه من ذهب، وشعره من لازورد. . !

واضطرب رع، واستشعر المهانة والخزى، وملأه غضب صاخب على كل مخلوقاته فوق ظهر الأرض.

وهتف رب الشمس فى الآلهة الذين يحيطون بموكبه كل يوم:

ائتونى بابنتى «سخمت»، وادعوا إلىَّ آباء الآلهة والأمهات والأبناء، نادوا «نو» جدنا الأعظم الذى يسكن وسط السماء؛ ليأت الجميع إلى قصرى سرًا، بغير ضجة تنبه الناس، أو ترشدهم إلى الاجتماع الإلهى!

ومن كل أركان الكون، حضر الآلهة، وانطلقت الجموع القدسية إلى القصر الكبير يعقدون مؤتمرهم العائلى، وكما كانوا يفعلون من قبل، ضرب الآلهة حلقتهم حول عرش رع، وعفروا جباههم بالتراب أمامه، وعندما انتهت مراسم اللقاء، تحدث رع، وسكت الجميع:

- أيها الآلهة، أجدادى وأبنائى، ها أنتم أولاء ترون البشر، مخلوقاتى التى خرجتها من فمى عندما لم تكن سماء ولا أرض، يتهامسون علىَّ ويأتمرون بى، لقد أصبحوا يتعمدون احتقارى ويسخرون بهيبتى ونفوذى فما الذى أنتم بهم فاعلون.

وتكلم «نو» الجد الأعظم لكل الآلهة ذلك الذى يسكن وسط السماء:

- وما الذى تراه أيها الإله؟

وأجاب رع:

- أيها الجد العظيم يا من منحتنى سر الوجود إنما أنت الذى يشير علىَّ بما أفعل مع العبيد المارقين.

ومن جديد تكلم نو:

- يا ولدى رع، يا إلهًا أكبر من الإله الذى صنعك احكم بالعدل، وأقم الدعوى على المذنبين حتى يبين المارق فيعاقب، ويظهر المذنب فيدان.

ولم يقتنع رع:

- إذا نحن انتظرنا حتى نقيم العدل، واستشعر المارقون بالخوف، وعرفوا المصير الذى سيأخذ بالمذنبين، فى ذلك الوقت سيعمدون إلى الصحارى والقفار يختبئون فيها، ولا يعود لنا إليهم من سبيل.

وتشاور الآلهة، ثم أحنوا جباههم وهم يقولون مجتمعين: ليعاقب البشر دون محاكمة، ولتكن عينك الإلهية - ابنتك العزيزة «سخمت» - هى الجلاد!

وهكذا كان.

وانقضت «سخمت» لبؤة ممفيس، وأشد الربات وطأة وشراسة وحبًا للدماء انقضت تلاحق البشر فى كل مكان، تثخن فيهم طعنًا بالخناجر والأنياب، وتضرب هنا وهناك، تذبح وتقتل، وتصب الدم عبًا، انتقامًا لأبيها المقدس ممن كانوا به يسخرون.

ومن كل أركان الأرض الملتاثة، علت صرخات البشر ذليلة خانعة تطلب الغفران.

ومن عليائه أطل رع، فإذا مصر كلها أنهار من دماء، وصفوف طويلة من أجساد الأشقياء. وأغمض الإله الرحيم عينيه، فما تصور قط أن «سخمت» تفعل كل هذه الأفاعيل بأفراد شعبه الذين خَلقتْهم يداه.

وانطفأ غضب رع، وأخذته بهم شفقة غامرة رحيمة، وصاح فى ابنته: كفى يا ابنتى، إنما أردنا معاقبتهم لا إبادتهم!

ولكن لبؤة ممفيس التى أسكرتها خمر الدم، أبت أن تذعن لأبيها، وصاحت فيه: بحق حياتك يا رع إن قلبى لمغتبط بالفتك والتقتيل؛ فدعنى أُنزل بالبشر كل ما يستحقون من عقاب.

ولكن الفتك والتقتيل كانا شيئًا بشعًا مخيفًا، ولم يكن بد من أن يسرع رع بإنهاء رحلة النهار، فهبط الليل، وسادت الظلمة، وتوقفت شاربة الدماء عن الطواف المجتاح على أمل أن تستأنفه فى الصباح.

وأطل رع حزينًا إلى شعبه المسكين أبدًا ما كان يريد لأبنائه من البشر تلك المجزرة الهائلة التى أنزلتها بهم الربة المتعطشة للدماء.

ولا بد مع الصبح الجديد من وضع حد لعذاب أهل الأرض.

وهتف رع فيمن حوله من أرباب السماء: أن يأتوه سراعًا برسل حاذقين أسرع جريًا من الهواء، وعندما أتوا أمرهم بالذهاب إلى جزيرة «فيلة» وإحضار كمية هائلة من ثمار الرمان، وثمار أخرى تجلب النوم.

وما هى إلا لحظات، حتى كانت الثمار قد وصلت؛ وكان الإله قد استدعى طحان هليوبوليس وأمره بعصر الثمار ومزجها بمسحوق حب الشعير الذى أعدته الخادمات ليصنعن منه الجعة، وعندما امتزجت كل تلك الأشياء، نتج عنها مزيج مسكر لونه كلون الدم البشرى، يملأ ستة آلاف مكيال، وأمر رع بنقل المكاييل إلى كل أنحاء الأرض، وصب الرسل السائل الأحمر فى كل مكان؛ فامتلأت به الكهوف، والحقول، والأنهار.

وجاء الصباح، ونهضت «سخمت» تستأنف دورة التقتيل وعب الدماء، وأطلت الربة أمامها فإذا طوفان شامل من الدم يغريها ويدعوها لرى الظمأ، وراحت ربة التقتيل تعب من السائل المسكر المخدر وهى تظنه دماً بشريًا صرفاً حتى ارتوت؛ وظلت تشرب وتشرب حتى هدأت

ثورتها، ولان قلبها، وانطلقت سكرى مخدرة لا تفكر فى متابعة التذبيح والتقتيل، واستلقت فى راحة لتضع حدًا للمجزرة المجنونة الهائلة.

وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض، واستمرت الأيام تمضى، وفى أعقابها السنون، والشيخوخة تنخر بدبيبها الثقيل فى جسد رع، حتى يأتى زمن جديد يعود البشر فيه إلى التهامس عليه، والسخرية به.

ويعود إلى الإله حزنه، غير أنه فى هذه المرة لا يفكر قط فى تعذيب البشر، بل تملؤه الرغبة فى التنحى عن الملك، والخلود إلى الراحة والهدوء.

ويعلنها رع مدوية فى مجمع الآلهة:

- لم أعد أطيق البشر بعد، ولن يكون أمامى إذا استمر بقائى بينهم إلا أن أبيدهم عن آخرهم!

وهتف الآلهة فى دهشة:

- لا تتحدث عن المتاعب يا إله، وابق حيث أنت؛ فالبشر ما زالوا فى حاجة إليك.

وأجاب رع:

لقد وهنت أعضائى، ودب فى جسدى الانحلال، ولن أبقى حتى تهون شيخوختى أكثر مما هانت؛ لهذا فسأرحل إلى حيث لا يصل إلىّ بشر قط.!

ونادى «رع» ولديه «شو» إله الجو، و«نوت» إله السماء:

يا ولدى شو أنا تارك لك مقاليد الملك، فأكمل مشيئتى وتول أنت الأمر، وأنت يا ابنتى نوت احملى أباك على ظهرك ودعيه معلقًا فوق الأرض.

وحاولت نوت أن تعترض. غير أنها أذعنت للأمر فتحولت إلى بقرة، وحملت أباها رع فوق ظهرها الكبير.

وطلع الصباح التالى على الناس، فإذا رع العظيم قد غادر قصره، وأطل الناس أمامهم، وإلى ما فوق رءوسهم، فإذا بقرة إلهية هائلة قائمة ومن فوق ظهرها الإله الغاضب من جديد على أهل الأرض.

وسجد الناس، وراحوا يتوسلون إلى الإله العظيم أن يبقى بينهم، بينما وجدوا من العبث إقناعه، فقرروا أن يظهروا له برهانًا على توبتهم فأقسموا له أنه لن يكون الغد حتى يقتلوا أمام عينيه كل الذين تهامسوا عليه وائتمروا به.

ورضى رع، ونزل من فوق ظهر ابنته، وعاد إلى قصره الكبير.

وطلع الصباح التالى على الناس، وقد خرجوا حاملين أقواسهم وسهامهم يرمون بها خصوم الإله، ولم تستمر المذبحة طويلًا، فقد ارتفع صوت رع يخاطب الناس من جديد:

-مغفورة لكم خطاياكم يا أبنائى، فأنتم إذ ضحيتم بالمذنبين فإنما كفرتم عن ذنوب سواهم من الناس.

واكتفى الناس بمن ضحوا بهم من مذنبين، غير أنهم اتفقوا على التضحية بعد ذلك بكل من يهين الإله؛ حتى يتقوا غضبه، ويكفروا عن إهانته، ويتقربوا إليه.

ومع كل ذلك كان رع رحيما بأبنائه من البشر، فلم يحتمل قلبه أن يضحى بعض البشر ببعضهم تكفيرًا عن ذنوب المذنبين، فقرر أن يهديهم إلى أن يستبدلوا بالمذنبين الثيران والطير فى القربان، على أن يتلو الكاهن الذى يتولى تقديم القربان تعاويذ خاصة تحل الحيوانات محل المذنبين.

وهكذا أبرم الإله رع تحالفه مع من بقى حيًا من البشر ثم اعتلى ظهر

البقرة الإلهية ابنته العزيزة «نوت»، فارتفعت به وتقوست حتى أصبحت كالقبة.

غير أن نوت لم تستطع أن تصمد طويلًا، وكادت تنهار تحت ثقل رع، فخارت قواها، ووهنت قوائمها، ولم تجد بدًا من طلب يد العون.

عندئذ قال رع:

- يا ولدى شو ضع نفسك تحت ابنتى نوت، وآزرها على حملى، اجعلها تستند على ذراعيك القويتين من الجانبين، واحفظها فوق رأسك العظيم.

وأطاع شو، وسلمت نوت من السقوط، وامتد بطنها كقبة زرقاء صارت هى نفسها فيما بعد السماء التى تغطى الكون.

وراح دع ينثر على صفحتها النجوم لتنير الليل، وانصرف بعد إلى تنظيم العالم الجديد الذى اكتشفه من فوق ظهر البقرة المترامية الأطراف، واستمرت الحياة تسير.

* * *

أسطورة الخلق الإغريقية

فى البداية لم يكن موجودًا سوى الخواء الكونى السرمدى، المظلم واللامحدود، وكان مصدر الحياة يكمن فيه، فكل شىء ظهر من الخواء الكونى اللامحدود - العالم كله والآلهة الخالدون - ومن الخواء الكونى جاءت آلهة الأرض، غايًا أو جييًا وقد امتدت واسعة جبارة، تهب الحياة لكل من يعيش أو ينمو عليها.

وبعيدًا تحت الأرض، بعد السماء المشرقة الشاسعة عنا، على عمق سحيق، ولد الترتار المتجهم «أعماق الجحيم»، وهو هوة سحيقة، مملوءة بالظلام السرمدى ومن الخواء الكونى ولد الحب - إيروس القوة الجبارة، التى تحيى كل شىء، وأنجب الخواء الكونى الظلمة الأبدية «إيريب» والليل المظلم - «نوكس»، ومن الليل والظلمة جاء النور الأبدى، الهواء أو الأثير، والنهار المشرق البهيج، وقد انتشر الضوء فى العالم بأسره، وراح الليل والنهار يتناوبان.

وأنجبت الأرض الجبارة المعطاء السماء الزرقاء، التى لا حدود لها، وامتدت السماء فوق الأرض، وباعتزاز شمخت نحو السماء الجبال العالية، التى أنجبتها الأرض، وانبسط البحر الصاخب أبدًا، واسعًا شاسعًا، وسادت السماء العالم، وتزوجت من الأرض المعطاء، فأنجبا ستة أولاد وست بنات جبابرة أقوياء، وقد أنجب ابنهما الجبار أوقيانوس، الذى يزن الأرض كلها، والآلهة تيثيس، أنجبا كل الأنهار، التى تدحرج أمواجها نحو البحر، كما أنجبا الآلهة البحرية الأوقيانوسيات.

أما المارد «هيبريون، وثييا» فقد أنجبا هيليوس، إلهة الشمس، وسيلينة إلهة القمر، وإيوس أورورا الوردية، إلهة الفجر.

وأما «استرايوس، وايوس» فأنجبا النجوم، التى تتلألأ فى سماء الليل

المظلمة، والرياح وهى «بورياس» رياح الشمال العاصفة، «وإيروس» الريح الشرقية و«نوتوس» الريح الجنوبية الرطبة و«زيفير» الريح الغربية الحنونة، التى تسوق السحب المحملة بالأمطار.

وبالإضافة إلى المردة فقد أنجبت الأرض الجبارة ثلاثة عمالقة «السيكلويات»، ذات العين الواحدة، وثلاثة عمالقة بحجم هائل كالجبال، لكل منهم خمسون رأسًا، وقد عرفوا باسم هيكاتونشير؛ لأن لكل منهم مائة يد، ولم يكن بمقدور أى شىء أن يقف فى وجه قوتهم الهائلة، التى لا حدود لها.

كان أورانوس يكن الكراهية والبغض لأبنائه العمالقة فى جوف إلهة الأرض، فسجنهم فى الظلمة الظلماء ولم يسمح لهم بالخروج إلى الدنيا؛ مما سبب المعاناة لأمهم الأرض التى كانت مثقلة بالعبء الفظيع، المحبوس فى جوفها، وقد استدعت أولادها المردة، وراحت تحرضهم على التمرد على أبيهم أورانوس، لكنهم كانوا يخافون من مس أبيهم بسوء، سوى كرونوس الماكر، خلع أباه بدهائه، وسلبه السلطة.

وعقابًا لكرونوس أنجبت إلهة الليل لفيفًا من الآلهة الفظيعين: ثاناتوس الموت، إيريدا الشقاق، أباتا: الخداع، كير: التدمير، هيبنوس: النوم، الذى تتخلله الكوابيس المرعبة، ونيميسيدا: الانتقام للجريمة، والكثير من الآلهة الأخرى.

وقد جلب هؤلاء الآلهة الهول، والشقاق، والخداع، والصراع، والبؤس إلى العالم، حيث تربع كرونوس على عرش والده.

* * *

أسطورة الخلق الهندوسية

تقول الأساطير الهندوسية: إن هناك أكثر من قصة للخلق، وأن هناك ثلاثة آلهة وراء ذلك، وهى: إبراهما وهو سيد جميع الآلهة رغم أنه مهمل فى شعائر العبادة الفعلية، وكان له من الشهامة ما أبعده عن الميل مع الهوى، وهو القوة الخالقة فى الطبيعة، رغم اعتبار براهما من ثلاثى الآلهة العظام الهندوس، وبقيتهم: «فشنو»، و«شيفا» المدمر فقد خسر براهما قوة كونه الخالق لهذين الإلهين اللذين أصبح أحدهما للبناء، والآخر للتهديم، وكذلك الإلهة الأم المقدسة الحمراء اللون.

ويظهر براهما بأربعة رءوس وكانوا سابقًا خمسة رءوس ولكن الإله شيفا أحرق إحدى الرءوس بعينه الثالثة؛ لأنه تكلم معه باحتقار، ويحمل براهما صحن الزاهد الذى يشحذ الطعام والصدقات.

وتصوره صورة أخرى وهو يقدم للآلهة صحن الزاهد المتنسك الشحاذ، وكذلك حكمة المعرفة السحرية مع بقية الآلهة الذين يقدمون فروض الطاعة للعنصر الأنثوى «براهما».

وهناك أسطورة أخرى حول الخليقة تقول: إن براهما هو المادة الأساسية، وموجودة منذ الأزل، وأن براهما خلق المياه الكونية، ووضع فيها بذرة ونمت وأصبحت بيضة ذهبية «هرانيا كاربها» ولدتها هو براهما خالق الكون وكان الكائن الأول «يورشا» أو الرجل الكونى وأحد أسماء براهما.

وتقول أسطورة أخرى: إن براهما خرج من زهرة لوتس من سرة فشنو وبوجود رفيقة «زوجته» الإله فشنو الإلهة «لاكشمى» إلهة اللوتس وتمثل «لاكشمى» الثراء والنعمة ومسئولة عن ولادة البشرية، وكانت لبراهما علاقة غير شرعية مع الكلمة الملفوظة «فان»، أو البقرة التى تغنى ألحانًا

وتجلب الحليب والمياه، وهي أم «الفيدا» و«فان» تعني الكلمة، وقوى الطبيعة، وهى بطبيعة أخرى تعنى الوهم «مايا» وتظهر على شكل لبؤة، وتظهر فان فى النقوش فى المعابد مع رجل أما عربة براهما «حمزا» أو «فاهانا» فهى استمرارية للأسطورة؛ لأن اسم الطير مرتبط مع صوت الكون والتنفس، فالشهيق يعمل صوتًا هو «هام»، والزفير «زا» والكلمة هى «حمزا» أو «همزا»، لذا فإن تمارين التنفس اليونحية ونفس الحياة مبنية عليها ونجد فى أبنية المعابد نفس كلمة «هاما» أو «همزا» على جانبى زهرة اللوتس وهى رمز المعرفة.

أما أصل أسطورة «اللنغام» فيقال: إن شيفا حل نقاشًا لبنى براهما وفشنو حول الذى أوجد الخليقة، وقد خرج براهما على شكل ذكر أوز فى المحيط الكونى وفشنو على شكل خنزير برى، وذلك للتحقيق فى الأمر وعندما طار الأوز أى إله الذكر الكونية ينفجر، وفى ملجأ على شكل كهف كان الإله الخالق شيفًا مختبئا.

وأما فشنو فهو إله الحب الذى ما أكثر ما ينقلب إنسانًا؛ ليقدم العون إلى البشر.

وفشنو هو الإله المجدد والمحافظ وله شعبية فى الهند وجذر كلمة فشنو هى «فش» معناه ينتشر ويعم، ويوصف فشنو بأنه فى كل مكان، وقد تجسد فى عدة صور على شكل «أفاتارا» إله، أما جوهره المقدس فيتجسد على شكل إنسان أو شكل خارق ويظهر على شكل «أفاتارا» عندما تدعو الحاجة لإصلاح كل شيء والقضاء على الشر، ويقول «فشنو»: عندما يتهدد النظام والعدالة فى الأرض، سأنزل إلى الأرض، ورغم أن شيفا تجسد «١٨» مرة على شكل إنسان، أو إله، فإن فشنو بتجسداته العشرة يسيطر على فحوى الأسطورة الهندوسية.

وأعظم ما يتجسد فيه فشنو هو شخصية «كرشنا»، وهو فى صورته

الكرشنية، مولود فى سجن، يأتى بكثير من أعاجيب البطولة ومغامرات الغرام، يشفى الصم، والعمى، ويعاون المصابين بداء البرص، ويذود عن الفقراء، ويبعث الموتى من القبور.

وكان لكرشنا تلميذ محبب إلى نفسه هو «أرجونا» الذى تبدلت أمامه خلقة فشنو، وتقول أسطورة حياته: إنه مات مطعونًا بسهم، وتقول أسطورة أخرى: إنه قتل مصلوبًا على شجرة، ثم هبط إلى جهنم ومنها إلى السماء، على أن يعود فى اليوم الآخر ليحاسب الناس أحياءهم وأمواتهم، وهو مثل: الإله شيفا - تتبعه الأكثرية الكبرى من سواد الشعب الذى يكرم الآلهة، والذى يرسم الواحد منهم على جبهته كل صباح بالطين الأحمر علامة الفشنو، وهى شوكة ذات أسنان ثلاث، بينما الشيفى المخلص لعقيدته يرسم ثلاثة خطوط أفقية على جبهته برماد من روث البقر، أو يلبس «اللنجا» ويربطه على ذراعه أو يعلقه حول عنقه.

أما أتباعه فيقدسونه على أنه هو الذى خلق الكون كله، وأنه بعد أن قام من النوم أمر البراهما أن يخلق الأرض، ثم اتخذ له مكانا فى «الفيكونتا» وهى السماء التى كان هو نفسه إلهًا لها، وهناك يجلس فشنو على العرش بجانب زوجته والإلهتين لاكشمى وسرى إلهتى الحظ السعيد والبركة الطيبة، وفشنو ينتابه القلق - أحيانًا - بسبب هذا العالم، فهو يهبط بين حين وآخر يتفقد شئون البشر، ويعتقد الهندوس أن تجسد فشنو القادم سيكون «كالكى» أو الحصان الأبيض وسيعود خلال الـ «٤٢٨» قرنًا القادمة التى نمر بها وتسمى «كالى يوغ» دهر كالى وهى مرحلتنا الحالية، وفى هذه الفترة يعتبره أتباعه أنه الأعلى ويعتبرونه الخالق؛ لأن براهما خرج من سرته فى زهرة اللوتس، وفى تجسده على هيئة كرشنا فهو «الحافظ».

أما شيفا فقد خرج من رأسه كما يذكر فى ملحمة «المهابهارتا» وشيفا

هو المدمر الذى يحل الأشياء، إله القسوة والتدمير، وهو تجسيد لتلك القوة الكونية التى تعمل واحدة بعد أخرى على تخريب جميع الصور التى تتبدى فيها حقيقة الكون، وشيفا لا يظهر عادة إلا فى ميادين القتال والمعارك الضخمة والمنازعات الطاحنة.

أما تماثيله المنحوتة فى الصخر فهى تمثله وهو يضع فوق رأسه عددًا من الجماجم وتحيط به أرواح الشر حيث يمارس رقصة الموت والدمار تلك الرقصة التى تنتهى بتحطيم العالم، وقد جسد شيفا قوى التدمير وعرف بأنه الذى يأخذ الشىء ويوجد على شكل شاب أشقر بأربع أيد وأوجه وثلاث عيون وتقع العين الثالثة فى وسط جبهته وتمثل أحيانًا هذه العين بثلاثة خطوط أفقية ويقوم أتباعه برسمها على جباههم فى الوقت الحاضر ويصورونه وهو لابس جلد الأسد وتلتف أفعى على رقبته.

والصفة الثانية لشيفا هى صفة «بحيرافا» أو الملتهم السعيد، وفى تنكره هذا يرتاد المقابر وأماكن حرق أجساد الموتى ويلتف بالأفاعى والجماجم كقلادة له ومعه مجموعة من الجنون والشخصية المضادة لصوره، وهو ظهوره على شكل «ناتراجا» ملك الراقصين، ويرقص رقصته الكونية أمام «بارفاتى» للتخفيف عن آلام أتباعه، ونجد أجمل ما تحمله هذه الأسطورة فى جنوب الهند حيث تنتشر تماثيله البرونزية والدخول فى غيبوبة عن طريق الرقص.

* * *

أسطورة الخلق الصينية

بان ـ كو: آدم الأسطورة الصينية

وقد ولد من بيضة كونية على حافة العالم، وقد فقست البيضة وأصبح منها السماء والنصف الآخر الأرض ونما بانكو الذى خرج من البيضة وبدأ ينمو عشرة أقدام كل يوم وتوفى بعد (١٨٠٠٠) عام، وبعد وفاته تمزق إلى أجزاء كل جزء مثل البيضة التى خرج منها إذ صار رأسه: الشمس والقمر، ودمه: الأنهار والبحار، وشعره: الغابات، وعرقه: المطر، ونفسه: الريح، وصوته: الرعد، وقمله: أصبح بشرًا.

وقد أضيفت هذه الأسطورة إلى الأسطورة التاوية فى القرن الرابع قبل الميلاد.

والقصة ليست قصة الخليقة بقدر ما تعنى إعطاء تفسير لنظرية «ين. يانغ»، فالإنسان أعطى موقعًا ضئيلًا فى الكون، ويظهر ذلك فى رسوم الطبيعة الصينية، حيث يظهر إنسان ضئيل وسط الطبيعة المذهلة.

* * *

أسطورة الخلق البابلية

كانت الآلهة هى الشرطة الخفية للدولة البابلية التى عاشت منذ خمسة آلاف سنة على شواطئ دجلة والفرات، والتى سارت حضارتها جنباً إلى جنب مع حضارة الفراعنة، غير أن آلهة بابل كانوا أكثر عددًا من آلهة مصر، حتى لقد بلغ عددها فى إحصاء رسمى (٦٥٠٠٠) إله، إذ كان لكل قرية إله يحميها.

ولم يكن الآلهة يعيشون بعيدًا عن الأهلين، فقد كان معظمهم يعيشون على الأرض فى الهياكل، يأكلون الطعام بشهية قوية، ويزورون الصالحات من النساء فى أثناء الليل، فيستولدونهن أطفالا لم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا أبدًا.

غير أن الناس مع كل ذلك كانوا يؤمنون بإله أكبر، هو أعظم الآلهة جعلوا اسمه ذات يوم «نو» ثم انتصر الإله «مردك» على كل الآلهة، وصار هو كبيرهم، وعلى يديه خلقت البشرية، وجرى الطوفان! لم يكن هناك سوى «أبسو» الفضاء المظلم، و«تيامات» المياه التى لا تحد، لا سماء ولا أرض، لا آلهة ولا بشر، لا شىء من ذلك أبدًا سوى الفضاء المحيط، أبى كل شىء، والمياه الممتدة إلى ما لا نهاية، بكل ما فيها من اضطراب وفوضى، تضرب كلها الأطناب، وتخرج - من بعد - كل شىء حى!

ولم تكن المياه قد تشكلت بعد فى محيطات وبحار، أو بحيرات وأنهار. بل كانت كلها شيئًا واحدًا، واسعًا إلى غير حدود، عميقًا إلى اللانهاية.

أما المستقبل، فما كان يبدو منه شىء - قط -لا شىء سوى ظلمة أخرى حالكة، أشد سواداً من أعماق الليل نفسه!

وتعاقبت الأزمان، حتى جاء زمن اختلط فيه الماء بالفضاء، ومن اختلاطهما خرجت أشياء أخذت تنمو وتتخذ لها أشكالًا عديدة غريبة، ثم ظلت ترتفع حتى استقرت فى أعلى، وكان منها كل آلهة النور، وأطلت «تيامات» إلى المخلوقات الجديدة، وملأها الفزع، فما كانوا - قط - من طينتها، ولا شكلوا أبدًا بأشكالها، فهى لم تكن تعرف فى حياتها سوى الظلام والفوضى والاضطراب. أما الذين يعيشون فى أعلى، فلا يريدون غير النور والنظام والاستقرار، وكان هذا كله عكس ما تريد، بل كان هذا كله أول أسباب الحقد والغضب والثورة على آلهة النور.

وقررت «تيامات» أن تتخلص من المخلوقات الجديدة، وأن تشن عليها حربًا لا هوادة فيها - قط - وظلت تيامات تعمل بلا انقطاع، فمن جوفها جاءت الوحوش المخيفة المفترسة، وانطلقت الثعابين المهولة ذات السم، وعلى سطح الماء برزت رءوس التنانين، بشعة تثير الرعب، وخرجت الكلاب مفترسة لا مثيل لوحشيتها، والعقارب مخيفة سوداء كالمردة. ومن كل مكان انطلقت حيوانات أخرى كسيول شريرة مجنونة، تتحرك تحت إمرة الوحش «كنجو» العملاق، الذى وعدته تيامات بالزواج وإعطائه ملك كل شىء، إذا تغلب على آلهة النور، وسحقهم بذراعه القوى الجبار.

وفوجئ الآلهة بعدوان تيامات، وكان أول من عرف نواياها هو الإله «آى» الذى ساق الخبر إلى الإله «أنصار»، وعجب هذا لموقف تيامات، وامتلأ قلبه حنقًا وسخطًا، يختلط بالخوف والرعدة مما قد يحل بمجتمع الآلهة، وانطلق «أنصار» إلى الإله «أونو» فكلفه الذهاب إلى تيامات يسألها عن سر تحديها للآلهة! وانطلق أونو إلى مملكة تيامات، غير أنه ما كاد يقترب، حتى نهض له «كنجو» - الوحش المارد المستلقى إلى جوار تيامات - وهاجمه فى شدة وعنف وجنون، وتوقف أونو، ثم حرك

قدميه إلى الخلف، ثم أدار ظهره، ثم ولى الأدبار هارباً يجرى من مواجهة الحيوان الصاخب المهول! وتوالت مواكبة الآلهة واحدًا فى إثر آخر، لمقابلة تيامات ولكن أحدًا منهم لم يستطع الوصول إليها أو مناقشتها، ولا عرف أحد منهم كيف يبحث معها سر ذلك الغضب العنيف.

وجلس الجميع ذات يوم يبحثون الأمر، وكان بينهم الإله «مردك» الذى لم يكن قد جرب حظه مع تيامات من قبل، ومن خلال الفشل الذى منى به الجميع، أطلوا إلى «مردك» وطلبوا منه أن ينازل الإلهة المتوحشة، وبغير ما خوف، انحنى لهم مردك، وقد قبل النزال بشرط أن يقر له الجميع متى انتصر بأنه هو الأقوى، ولا أحد أقوى منه، ولم يكن أمام آلهة النور بد من القبول، ومنح مردك السلطة السماوية الكاملة ليكون له حكم الكون كله! أراد مردك. قبل أن يمضى لمصارعة تيامات. أن يجرب ما لديه من فنون القوة، وأتى الإله برداء طويل ألقاه أمام كل الآلهة، وتلا بضعة تراتيل لم يكد ينهيها حتى اختفى الثوب وتلاشى، وأخذ بالآلهة العجب وطلبوا منه أن يعيد الرداء كما كان.

وعاد مردك يتلو تراتيله فإذا الرداء يعود، ويمتد فى نفس المكان الذى كان قد تلاشى فيه.

واقتنع مردك بأن أحدًا من الآلهة لم يعد له مثل نفوذه وسلطانه؛ فقرر البدء فى رحلة الانتقام، وانتفض مردك وهو ينهض ليبدأ الصراع الجبار، فبدا رائعًا وهو يتحرك، ومن أمامه تبرق البروق، ومن فوقه ترعد الرعود، والقوس الضخم فوق ظهره، والرمح الثقيل فى يده، والشبكة الهائلة التى قرر أن يصطاد بها الوحش «كنجو» الرهيب يجرجرها خلفه.

لقد كان الإله المنتقم قد أعد عدته للكفاح، ولم يعد هناك سوى أن يلتقى بروح الشر فى جسد تيامات! واستمر الإله مردك يقود مركبة القدر

ليصل إلى حيث تجرى المعركة، وعندما وجد أنه قد اقترب من المكان، نطق كلمة واحدة، فإذا ريح مروعة تجرى أمامه، وإذا الريح تتحول فتصير عواصف وزوابع وأعاصير، تتجمع كلها لتكون سلاحًا فى يد مردك، سلاحًا أقوى من أى سلاح يمكن أن يحمله إله، وأطلت الحيوانات المهولة فإذا كل شىء قد انقلب، وإذا نور يشع من خوذته يخطف الأبصار، فهرعت تختفى فى أعماق الظلمة، وأفواهها من الخوف ترسل الزبد! واستمر مردك، مصحوبًا بكل دعوات آلهة السماء، فى طريقه المرسوم. وبلغ مملكة تيامات، وأطل فإذا وحش مهول فى شكل تنين مخيف، يحاول النهوض من استلقاءته، ومن عينيه ينطلق بريق مخيف، ومن منخاريه يندلع لظى اللهب، وفتح التنين فمه فإذا به كجهنم، النار تغلى فيه والأصوات المرعبة ترعد وتدوى، ولا تسكت أبدًا.

وتوقف مردك فى مكانه، وزعق يخاطب تيامات من بعيد، ويطلب منها أن تجنح إلى السلم، وتبعد عن رأسها فكرة العدوان، وقهقهت تيامات، وهى تهتز، ثم سلطت فى سرعة على عدوها أقوى ما عرفته من تعاويذ السحر، وأشدها أثرًا، ولكن مردك كان قد أعد العدة لإبعاد السحر عنه، وفى لحظة، رفع شبكته الهائلة وألقى بها فى قوة إلى حيث وقفت تيامات، واندفعت الإلهة المهولة إلى الخلف، ولكن الشبكة أمسكتها، وجذبها الإله إليه ثم أطلق على فمها ريحًا صرصرًا عاتية، ودخلت الزوبعة عنيفة بين فكى تيامات، واخترقت الحلقوم؛ لتدخل فى بطنها الذى ظل ينتفخ وينتفخ، وعندما بلغ آخر درجات الانتفاخ، رفع مردك رمحه الضخم وطعن البطن المنتفخ، فانفجر فى صوت صاخب كالرعد، وسقطت تيامات ميتة! عندما انتهى مردك من قتل تيامات، وقف فوق جسدها، ثم قطع قلبها الشرير فألقى به فى الفضاء الأسود، ثم

تحول إلى التنين الهائل فقضى عليه.

أما وحوشها الأخرى، وتوابعها السود، فقد أخذوا يصرخون وهم يحاولون الفرار، ولكنه لم يمهلهم بل أخذ يلقى عليهم شبكة تصطادهم واحدًا فى إثر آخر، ووقعوا كلهم فى الأسر.

وانحنى مردك على جثة التنين فأخذ منها حبوب القضاء والقدر التى أعطتها له تيامات المذبوحة، تلك الحبوب التى تمنح النفوذ والسلطان لكل من يحملها على المصائر والأقدار.

وحملت رياح الجنوب دماء تيامات إلى أماكن سرية مجهولة، حين كان مردك قد انحنى من جديد على جثتها، وشقها جزءين مستطيلين: رفع أحدهما ليكون السموات، وخفض الآخر ليكون الأرض!

وعندما انتهى مردك من رفع السماء، نثر على صفحتها الكواكب لتضىء، ولتجرى فى طريق منتظم مرسوم؛ وعندما أضاء مردك السماء، جعلها مكانًا لإقامة الآلهة «أونو، وبعل، وآى» أما الآلهة الآخرون فقد قسم عليهم الكواكب، ليكون كل كوكب بيتًا وأقام شمس نيشتين مذبحًا وقدم عليه قرابين الشكر وانطلق دخان البخور فارتفع إلى حيث يجلس الآلهة. ثم قسم السنة وجعل لكل شهر ثلاثة كواكب، كما جعل لإله القمر حكم الليل وإضاءته، ومنحه كل شهر يومًا يستريح فيه.

أما الشبكة الهائلة التى صحبته فى معركته مع تيامات، فقد جعل لها كوكبًا ومعها القوس.

وأما الرياح التى ساعدته فى القضاء عليها، فقد جعل لكل منها كوكبًا جديدًا.

وإذ انتهى مردك من إقرار كل إله فوق كوكبه، وضع نفسه هو الآخر فى كوكب كان أكبر من كل الكواكب الأخرى وأضخم، وجعله المصدر

الرئيسى للنور فى صفحة السماء، غير أن مردك لم ينس الأرض عندما كان يرفع صفحة السماء، فقد كانت الأرض التى وضعها فى حاجة هى الأخرى إلى معجزة.

وأطل مردك وهو يفكر: لقد كانت الآلهة فى حاجة إلى من يصلى لها ويعبدها، إذن فلتكن المعجزة هى خلق الإنسان.

وانحنى مردك على الأرض، وشرع يعجن التراب بدمائه، ويصنع من الطين ناسًا تقوم على خدمة الآلهة، والصلاة لهم وعبادتهم. وهكذا خلقت البشرية! عمرت الأرض بالمخلوقات الجديدة، وطفق البشر يتزاوجون ويتناسلون، ويقيمون الصلاة للآلهة التى خلقتهم وسوت لهم الأرض وقدمت لهم النور من السماء.

ولكن الأمر لم يكن ليستمر طويلًا على منوال واحد؛ فإذا القوم كلما ازداد عددهم تنافروا وتنازعوا، وإذا الصلوات تقل والعبادة تنهار، والشر يدخل كل يوم من حيث خرج الخير، وأصبح الخلق غير الخلق، والناس غير الناس، وظهرت على الأرض سلسلتان من البشر تسيران فى خطين متوازيين: إحداهما: لا تزال متصلة بالآلهة.

أما الأخرى: فقد قطعت كل صلاتها بهم، ولم يعد أمام أصحابها من هدف سوى الوصول إلى اللذة من أى طريق، وامتلأت الأرض بالشر، وأطل الآلهة من عليائهم وملأهم الحزن؛ إن الإنسان لم يعد هو الإنسان الذى خلقه مردك، وجعله صورة منه كريمة بريئة طاهرة.

وغضبت الآلهة على مخلوقات الأرض، وكان أكثر الكل غضبًا الإله مردك، الذى قرر أن يرسل طوفانًا عارمًا ليهلك البشر ويمحو به آثار أعمالهم العامرة بكل ما هو سيئ وخبيث!

غير أن آى - إله الحكمة - أخذته الشفقة على البشر، واعتزم أن

ينجى منهم على الأقل رجلا وامرأة، يحفظان سر الخلق، وكان «شمس نيشتين» وزوجته هما اللذان وقع عليهما اختيار الإله، وفى ذلك اليوم، وبينما كان شمس نائمًا، جاءه صوت الإله فى الحلم يقول: انهض يابن «أوبارا توتو» يا من أطعت الآلهة، وحفظت لهم العهد الذى وضعوه فيك، انهض: فاهدم بيتك، واصنع من الخشب فلكًا ضع فيه كل ما تحتاجه لحياتك، وخذ معك حبة حية من كل شيء نحميها كما نحميك من الطوفان الذى سيحل على الأرض التى امتلأت بالشر والفساد والطغيان، وصدع «شمس نيشتين» بأوامر الإله، ومع مطلع النهار نهض من نومه ليهدم بيته، ويبنى من الخشب فلكًا ضخمًا.

واستخدم شمس عددًا من العمال وأخذوا يعاونونه ويشقون له الألواح، حتى إذا ما انتهت أيام سبعة، كان الفلك قد نهض قائمًا على الأرض كأحسن ما يكون الفلك، وقد ضم بين جنباته كميات كبيرة من الخمر والزيت، وأكوام من حبوب حية من كل نبت ظهر على الأرض، وزوجين من كل حيوان أو طير جرت فى عروقه الحياة.

وأطل شمس إلى فلكه وامتلأ رضًا؛ لقد كان طوله يصل إلى (١٢٠) ذراعًا.

وكان مقسمًا إلى ستة طوابق كل طابق مقسم إلى تسع غرف.

أما سطحه الخارجى فمدهون بالقطران، وسطحه الداخلى بالقار.

وعرف شمس من إلهه أن عليه الدخول فى فلكه وإغلاقه، متى ظهرت الإشارة المتفق عليها، وهى مطر غزير يسقط من السماء. ومرت أيام، وسقط المطر مدرارًا لقد أتت الساعة، وانطلق شمس نيشتين إلى الفلك ومعه زوجته وأبناؤه، ومن خلفه أغلق الأبواب ومرت بالأفق سحابة سوداء غطت كل الأرض، يسوقها الإله رامان مطلق الرعود، وتمسك

بسكانها الآلهة «أورجال»، ومن خلفها الإلهان «نابو»، و«مردك»، يفتحان للمطر كل طاقات السماء!

وأطبقت العاصفة والظلام على الأرض، وراح الناس يتساقطون غرقى وصرعى، حتى الذين ركضوا يطلبون النجاة فى الأقبية والغرف ذات السقوف، ما استطاعوا أن يجدوا تحتها منقذاً من الطوفان، ولا الذين لجأوا إلى قمم الجبال، فقد طفت المياه وارتفعت، حتى اختفت كل الجبال التى تحت السماء!

واستمر الطوفان ستة أيام، كان فيها الكفاية لتطهير الأرض من كل من فى أنفه نسمة حياة، من إنس، وطير، وبهائم، ووحش، ولم يعد هناك سوى شمس نيشتين، وكل من حلّ معه فى الفلك الأمين.

وجاء اليوم السابع، فهدأت الأمطار، وانسدت ينابيع السماء، وبدأت المياه تنجاب عن الأرض.

وأطل شمس نيشتين من طاقة فى الفلك ثم صرخ عاليًا: لقد كان الناس جميعًا غرقى فى الطين، وحيث كانت تمتد الحقول، وظهرت هناك مستنقعات وبرك، لم يكن هناك شىء حى، وكل العالم لم يعد يظهر منه سوى بحر مهول عملاق.

وظل شمس يبكى، والفلك يسير على سطح الماء فى اتجاه التيار، ينخفض ويرتفع والمياه تتناقص من حوله شيئًا فشيئًا، حتى إذا ما مضى اثنا عشر يومًا ظهرت الأرض بعد، وكانت الأرض التى ظهرت، هى قمة جبل نازير.

وأرسل «شمس» غرابًا يستطلع حال الأرض، ولكن الغراب برغم أنه لم يجد مكانًا يحط عليه، إلا أنه انشغل فى نهش الجثث الكثيرة المستلقية، ولم يفكر فى العودة إلى الفلك، وانقضت أيام سبعة أخرى،

وأرسل شمس عصفورًا، ولكن العصفور ظل يطير من مكان إلى مكان فلا يبصر شجرًا، أو أرضًا جافة، ولم يجد مستقرًا لساقيه فاضطر آخر اليوم للعودة إلى الفلك، وانقضت أيام سبعة ثانية، وأرسل «شمس» يمامة، فظلت تطير وتطير باحثة عن مقر تحط عليه فلا تبصر أرضًا جافة، ولكنها ما كادت تفكر فى العودة حتى أبصرت أشجاراً خضراء فتحط عليها، ثم تحمل فى منقارها ورقة من غصن الزيتون تعود بها إلى الفلك! وابتهج شمس، وعرف أنه الفرج، وفتح أبواب الفلك، وخرج ومعه حاجاته وعائلته، وكل الأزواج الحية من حيوان وطيور وفى اللحظة التى لمست أقدامهم فيها الأرض، انكفأ شمس على وجهه وخر ساجدًا، ثم بنى مذبحًا، وقدم عليه قرابين الشكر، من أعواد القصب والبخور، وانطلق دخان البخور العطر فارتفع حيث يجلس الآلهة.

وشمت الآلهة الرائحة الزكية فتعجبت، ثم راحت تتجمع كالذباب حول القربان وبين الجمع، كانت هناك إشتار - ربة الحب والربيع - التى رفعت قلادتها الإلهية تحيى بها صاحب القربان، ثم قالت:

باسم جواهرى الإلهية التى تحيط بعنقى، لن أنسى هذا اليوم أبدًا، سأضعه دائمًا فى ذاكرتى، وسأذكر به كل الآلهة الذين يحيطون الآن بالقربان حتى مردك، الذى لا يريد أن يقترب من قربان الإنسان، ورفض من قبل أن يجمع مجمع الآلهة يستشيرهم، وأرسل الطوفان يقضى به على عبيدى المخلصين ويسلمهم للهلاك والدمار.

والحق أن مردك لم يكن بعيدًا عن القربان، فقد كان يقترب منه هو الآخر، ويعجب لهذا المخلوق الفانى كيف نجا من الطوفان، ويقسم أنه لا بد من قتل شمس، ووقف الإله آى، الذى كان قد أوحى إلى شمس ببناء الفلك فأنقذه، ووقف يدافع عن المخلوق الفانى الذى أخلص للآلهة، ولم يحقد عليها، بل كان أول ما فعله حين وضع قدمه على

الأرض أن قدم لها القرابين.

وانتقد آى مردك الذى لم يستشر الآلهة عندما اتخذ قراره المدمر لمخلوقات الأرض.

واستسلم مردك آخر الأمر، واقترب من القربان، ثم أخذ بيد شمس وزوجته وباركهما، وسوى لهما مستقرًا جديدًا عند مداخل أنهار الأرض. وعادت الآلهة إلى السموات، ولكنها لم تنس قبل عودتها أن تكافىء شمس الذى قدم لها القربان، وحفظ لها الجنس البشرى، ومنح شمس سر الخلود، ورفع إلى مرتبة الآلهة، وأصبح عليه أن يقيم فى مستقره عند مدخل الأرض حتى الأبد، لا يغادره إلا فى رحلة يومية طويلة يرافق فيها موكب مردك، ليشرف على أبنائه البشر الذين ينطلقون فى الأرض ليعيدوا إليها المجد والحياة، ثم يعود آخر اليوم الى مستقره، ليستأنف مع الصبح رحلته الطويلة الخالدة من الشرق إلى الغرب.

وانطلقت البشرية تحيا من جديد.

* * *

أسطورة الخلق اليابانية

تروى الكتب اليابانية: فى البدء كان الكون عبارة عن محيط من الفوضى ونما فيه نوع من القصب، أو حاكم الأرض، وكذلك إلهان آخران يمثلان عناصر الأنثى والذكر وهما بنفس معنى «إلين يانغ» عند الصينيين، ولكن عند اليابانيين أخذت نفس المعنى «الأنثى التى تستسلم» و «الذكر الذى يستلم»، وقد خلق الاثنان العالم المادى، وكذلك الحكام الإلهيين، وإلهة الشمس «أماتيراسو»، و «تسوكى يومى» إله القمر و «سوزانوو» إله العواصف.

ومن المستغرب أن العنصر الأنثوى تحول فى اليابان إلى عنصر التحلل والفناء حيث تروى الأسطورة أنها أعطت ولادة للنار، وتوفيت وذهبت إلى العالم السفلى حيث الظلام وسافر «إيزاناغى» زوجها إلى أرض الظلام «إيوموتسو كونى» للعودة بها؛ لأن عملية الخلق لم تكمل بعد، وفى باب العالم السفلى طلبت منه الانتظار لكى تهيئ الأمور مع إلهة الموت وحذرته من عدم النظر إليها ولكن انتظاره طال فقام بكسر أحد أسنان مشط رأسه وأشعله كشعلة، ودخل أرض الظلام، ولكن ما رآه أفزعه فقد رأى ديدانًا وزوجته «إيزانامى» جثة متفسخة، فتحول اللباس إلى عريشة عنب فجلس الخنزير يأكل العنب، ولكن لحق به فرمى مشط رأسه فتحول إلى قصب، وعندما توقف الخنزير ركض «إيزاناغى»، وعندما عرفت زوجته بهذه الخدع أرسلت خلفه ثمانية من آلهة الرعد ثلاثًا من ثمار الخوخ، وأخيرًا جاءت «إيزانامى» فوجدت أن زوجها أغلق باب عالم الموتى بحجر لا يقدر على إزاحته ألف رجل، وهددته بأنها ستقتل ألف رجل من مملكته كل يوم، وهددها بأنه سيجعل (١٥٠٠) امرأة تلد فى اليوم.

وأهمية القصة تكمن فى قصة الكهف فالحياة هى عبارة عن ممر قصير ثم يأتى الموت.

أساطير الآلهة

* آلهة الفراعنة
* آلهة الإغريق
* آلهة الأشوريين
* آلهة الهندوس
* آلهة الصينيين

آلهة الفراعنة

رع

كانت قصة رع موضوعًا للعديد من الأساطير الشعبية فبالنسبة لإيزيس كشف الإله العجوز اسمه الرمزى لها، أما بالنسبة للإله «هاتور» فهو رجل أشيب سريع الغضب ألقى على عاتقه قتل البشر، وهناك أسطورة متداخلة مع هذه الأسطورة حول عين رع التى خسرها حورس ابن أوزوريس فى صراعه مع سِت، وقد ربطت الأساطير لجعلها أحداثًا إلهية إذ أصبحت عين رع نجمة الصباح المرتبطة بأوزوريس وعودته للحياة.

أما إذا ظهر رع على شكل الإله «تغنوت» فإن عين إله الشمس تختفى لوقت وتعود بعد تقديم التوسلات والأدعية.

ولعب الإله «رع» دورًا غريبًا فى العناية بالموتى ورسم مصير الإنسانية إذ يساعده «حورس» لوضع سلم الهروب فى القبور الملكية لمساعدة الفرعون الميت على الهروب، وانتهت عبادة رع نتيجة تنافسها مع عقيدة أوزوريس حيث إن الاهتمام الأول انصب على البعث والموت، وهذه لا يمكن أن تقارن بالتأملات الكونية لأساطير الشمس.

والإله رع هو الذى يمثله فى قوة اللاهوت الكونية، وكان رع يتمثل فى شكل «آتوم رع»، وفى إله السماء حورس - الإله الصقر - الذى يعنى اسمه أنه «هو البصير»، ورع يتمثل فى شكل جسم رجل ورأس صقر، والرمز الرئيسى لرع هو المسلة، والمثل العليا للعدالة والكلمة المقدسة هى الإله رع، والإلهة «ماعت» - الصدق و العدل والوئام - هى ابنته.

وكانت عبادة الشمس قد بلغت من الأهمية والانتشار ما مهد لقيام الأسرة بعد عصر بناء الأهرام وهى التى جعلت من ديانة رع الديانة الرسمية للبلاد، وشيدت لها المعابد وحسنت عليها الأراضى، وأصبح

يراعى منذ ذلك العهد أن يتألف الاسم الذى يتخذه الملك عند توليه العرش من اسم «رع» إن لم يكن اسمه الأصلى الذى عرف به منذ ولادته يشتمل عليه.

وقد قدر لعبادة الشمس أن يكون لها أثر عميق فى ذات المعبودات المحلية، فقد حدث عندما أصبحت هى العبادة الرسمية أن حرص كهنة العبادات الأخرى على ألا [تختلف] معبوداتهم عن إله الشمس، فشبهوها به وادعوا أنها تصور له ليكون لها نصيب من جاهه وسلطانه، وهكذا اتخذ كثير من الآلهة شخصية إله الشمس واتحدت به مثل: «مين رع»، و«سبك رع»، و «خنوم رع»، و «آمون رع».

بتاح

هو إله مدينة منف، صور فى هيئة إنسان ملتف بثوب محكم الالتفاف بجسمه، كما هى الحال فى المومياء، وجعلته أسطورة مدينته خالق العالم الذى وضع فيه أشكالًا مرئية، بواسطة قلبه «فكر» ولسانه « الخلق بالنطق»، وجعلته الحظوظ السياسية لمدينة منف أحد حماة الملكية، والإله المشرف على الأعياد التذكارية، ونسبت إليه إحدى الأساطير القديمة اختراع الصناعات فصار الصناع تحت حمايته، وكان كاهنه الأعظم يحمل لقب «سيد أساتذة الصناع».

ومثل الإغريق بتاح بهيفا يستوس.

وإذا انتحل بتاح شخصية الإله الجنائزى سوكر ثم شخصية أوزوريس عن طريق سوكر، صار عضوًا فى أسرة إلهية تتألف من زوجته الربة «سخمت»، التى كانت جاريته، وابنيهما نفرتو، اللوتس المعطر.

* * *

آمون

كان هناك آمون: إله الإمبراطورية، وخاصة عندما انتقلت العاصمة فى الدولة الحديثة إلى طيبة، ومن خلال أناشيد آمون التى نشرها كهنة يدعى الإله فاته «ملك الآلهة» و «سيد الملوك» و «الإله العظيم» و بدراسة ما جاء إلى الوجود، بإله الدولة القديمة رع تحت اسم آمون رع القوى الشهير، فلما كانت الدولة الحديثة طغى آمون على جميع اختصاصات وصفات رع والأب الجثمانى للملك الحاكم كما كان رع من قبل، وتحول بذلك النظام الشمسى الكلمة لدولة رع إلى آمون رع.

وفى الكهنوت الطيبى يعتقدون أن آمون عندما جاء إلى الوجود لم يكن هناك شىء كائن؛ لهذا كان هو خالق نفسه بنفسه، ثم جاءت الآلهة بعده إلى الوجود، وهو لم يكن له أب أو أم بل إنه شكل بيضته بنفسه ومزج نطفته بجسده وكان مختفيًا كآمون على رأس الآلهة، وهو يرتبط بظاهرة الهواء فى الضوء والماء - أيضاً - وأقدم رمز له هو الأوزة، وبعد بدء الدولة الحديثة يصبح رمزه هو الخروف.

وكان يمثل على هيئة رجل ملتح يلبس غطاء رأس تعلوه ريشتان ومن خلفه يتدلى خيط ويمسك فى يد «واس»، وفى الأخرى «عنخ».

وقد كانت لآمون السيادة حين كانت هناك مستعمرات مصرية، وازدادت عظمته بعظمة مصر واختفى حين ضاعت هيبتها؛ فقد كان إله مصر الإمبراطورية.

حورس

منذ الأسرة الأولى، اعتبر الإله حورس ملك مصر فى صورة صقر قاعد أو قائم، وهذا يعنى أنه موجود منذ فجر التاريخ، وكان معبودًا محليًا على هيئة الصقر فى هيراكونيوليس، وتجسد فى صورة زعيم محلى

ثم استطاع أن يصبح ملكًا لمصر، ولا زال أصل حورس غامضًا، فقد سمى ملوك الأسرة الثانية «حورس وست» أو «الصقران» وظهر فى نصوص الأهرام حورس وست أخوين وحاكمين متساويين لمصر السفلى والعليا وبالرغم من هذا الغموض، فما زال الإله حورس منذ أول التاريخ يمثل الصقر وهو ملك مصر.

وقد كان أيضًا «حورس السماوى» و «رب السماء» وكان جرمًا سماويًا إما نجمًا أو شمسًا، ولعل هذا الطابع الكونى كان نتيجة للموقف بأن حورس كان حاكم مصر كلها.

وهكذا فقد مثل حورس ثالوثًا يتكون من الملك السماوى والملك فى الأرض والصقر، ويرجع تصوير هذا الإله الكونى الأزلى وثالوث هذا الإله إلى سنة ٣٢٠٠ ق. م، وقد مثل على مشط من العاج للملك «جث» الثعبان، من حوالى عام (٢٩٠٠) ق. م فقد مثل الصقر حورس مرة وهو يقف فى زورق فوق السماء وفى ذلك إشارة على أنه جرم سماوى وأخرى وهو يقف تحت السماء.

وفى ذلك إشارة إلى أنه يمثل الملك «جث» ومنذ ذلك التاريخ عرفنا أن «حورس السماوى» رب السماء نجم والآلهة ملكها، وكذلك عرفنا أن «حورس الأرضى» ملك مصر. أما عن تصور المصريين لحورس كأنه إله كونى، فقد ذكر ذلك فى نصوص الأهرام السبعة حوالى(٢٤٠٠) ق. م عندما أخذ «رع» مكان «حورس» وعندما لقب كل من حورس، و«أوزوريس» والملك رع بالإله العظيم وأخيرًا تحدد طابع حورس الأولى فى نصوص الأهرام، إذ ذكر أن الملك ظهر فى الوجود البدائى قبل أن تخرج إلى الوجود السماء والأرض ومن هنا عرفنا فكرة وجود الإله الأزلى منذ أول بدء التاريخ فى مصر. وعرف ذلك منذ توحيد البلاد السياسى، يؤيد ذلك المظهر السماوى للثالوث، فحورس هو شمس

النهار ونجم الليل وهو تصور تأملى من أجل حورس الإله والملك وجاء بعد توحيد مصر. ونتيجة لذلك أصبح من السهولة بمكان قبول فكرة أن حورس إله أزلى وذلك من خصائص سلالته، ولكن كيف يمكن أن نتصور إلهًا كونيًا أزليًا مثل حورس يتعرض للموت بوصفه ملكا أرضيًا.

وقد أجابت نصوص الأهرام على هذا التساؤل، فأشارت إلى الجنازة وتحول الملك حورس إلى أوزوريس، واعتبر الملك حورس وأوزوريس معًا وقد تحول إلى المظهر الدائم للملك الأزلى متحدًا مع حاكم السماء، وفى الوقت نفسه خلفه تجد آخر لحورس.

وقد ولد حورس من اتحاد إيزيس وأوزوريس الإله المذبوح، بطرق سحرية إذ تقول الأسطورة المصرية إن إيزيس لجأت إلى الأهوار فى الدلتا وأنجبت ابنها حورس وربته بسرية تامة، وعندما بلغ سن البلوغ أراد حورس الانتقام لقتل والده فى معركة مع «ست» عمه القاتل وخسر إحدى عينيه ولكن سيث قتل واعتبر الخاسر وأعيدت العين لحورس الذى أعطاها لأوزوريس ووضع مكانها الأفعى المقدسة التى أصبحت شعارًا ملكيًا فيما بعد ويتجسد حورس على شكل مخلوق رأسه رأس صقر وهو إله المزروعات عند المصريين، ويمثل أوزوريس فرعون مصر كلها.

إما إيزيس فتمثل المرأة الحزينة وحورس الابن المخلص وقد عبد فى مصر العليا كإله للشمس، وعرف برع وعند وفاة فرعون فى مصر يصبح أوزوريس خلفه الحى فهو حورس ورع فى آن واحد كتجسيد للابن الحى.

وكانت آلهة الصقور، مثل: سوكر أو عنتى أو سويد أو نحنتى أرتى، عديدة فى مصر، غير أن الآلهة المشهورة أكثر من غيرها، هى الآلهة المعروفة باسم «حورس»، ويجب أن نميز بين كثير من الآلهة بهذا الاسم ولو أن أساطيرهم وطقوس عباداتهم مختلطة بعضها ببعض.

لا شك أن حورس كان - أولًا - إلهًا للسماء مثل الطائر الجميل، الصقر الذى كان رمزه، وظل بعض الوقت إله الفضاء، متخذًا الشمس والقمر عينيه. وأحيانًا أخرى، صار هو الشمس ولا سيما باسم رع حواراختى وفى هاتين الحالتين الأخيرتين، استمر حورس إلهًا يحكم على السماء والنجوم. ولما كان ذا صلة بالملوك الذين وحدوا مصر العليا ومصر السفلى، فقد عينته الأقدار إلهًا ملكيًا بالامتياز، وعند انتصارهم فى بداية الأسرة الأولى، صار الصقر حورس الإلهى حامى الملك، وإلى حد معين، صار هو الملك نفسه، كانوا يكتبون الاسم الملكى داخل صورة قصر يجثم فوقه الصقر، وهذا ما يعرف «بالاسم الحورى».

شاعت أساطير أخرى إلى جانب هذه المعتقدات، منها واحدة يبدو أنها نشأت عن النضال بين عبادتين متعاديتين.

إنها قصة النضال الأبدى بين الإلهين حورس وست وكان هذا النضال حتميًا حتى يحافظ على توازن القوى فى الكون، ظل ذلك العراك لمدة طويلة متجسدًا فى الشخص الملكى، فمنذ الأسرة الأولى اعتبر أن الملك قد ورث قوته وعرشه معًا من «سيدين» أطلق على الملكة «التى ترى حورس وست». وبمرور الزمن، اختفى ست تماماً من الشركة الملكية؛ حدث ذلك بتأثير أسطورة خلطت بين حورس إله السماء وبين إله أسطورى آخر، وهى أسطورة أوزوريس التى أنشأها علماء اللاهوت بمدينة هليوبوليس؛ وإذ صار حورس ابن أوزوريس وإيزيس، وابن شقيق ست، كان هو الوارث الصغير لمملكة أبيه الأرضية، التى خلعه عنها عمه الشرير. وتقول هذه الأسطورة: إن حورس اختفى من مطاردة قاتل أبيه فى مستنقعات الدلتا، وبعد ذلك جاء التنافس العلنى لاسترداد ميراثه، وبعد مناوشات عديدة، وبعد تحكيم الآلهة، كسب حورس القضية.

ويقول مذهب منف: إن حورس أخذ الدلتا بينما بقى ست سيد مصر

العليا، غير أن الأسطورة التى شاعت فى الدولة الحديثة تقول: إن حورس الظافر صار ملكًا أبديًا على الأرض كلها، وذهب ست إلى الرعد فى السماء. وتبعًا للرواية الأوزيرية لهذه الأسطورة، وهى الأكثر شيوعًا، لم يكن ست، فى النهاية، أكثر من إله للأغراب. وكوفئ حورس العادل فصار سيد مصر وملكها الوحيد.

وبهذه الطريقة اندمجت فى النهاية شتى العناصر المختلفة والمتشابهة: فصار حورس ابن إيزيس، وحاربوقراطيس الصغير «باللغة المصرية» «حورس الطفل»، الذى صنعت له فى عصر متأخر تماثيل من البرونز كطفل يرضع إصبعيه، صار ملك مصر مثل إله هيراكو، نيوليس المسمى باسمه. أما رب السماء، حورس إدفو الذى قهر العالم من أجل رع، فتغلب على أعدائه الذين لم يكونوا غير ست وأتباعه.

جب

جب هو إله ذكر يمثل الأرض، وهو زوج «السماء»، التى فرق شو «الهواء» بينه وبينها. كان جب، تبعًا لأساطير هليوبوليس أحد آلهة التاسوع، وكان ملكًا قبل مجيء المخلوقات البشرية. والحقيقة أنهم كانوا يطلقون على فرعون اسم «وارث جب»، وتبعًا لأسطورة متأخرة، انتزع جب السلطة من والده العجوز شو، وصور الفن المبكر جب كرجل ليس له خصائص معينة، ويرى فى مناظر من عصر متأخر لابسًا تاجًا معقدًا.

أبو الهول

حسب الأسطورة المصرية فإن أبا الهول هو إله الشمس رغم أنه كتلة صخرية فى مرتفع الجيزة تمثل أسدًا رابضًا ورأسه رأس إنسان يلبس غطاء رأس فرعونى. وفى الألف الثالث قبل الميلاد قام شيفرين بالإيعاز إلى رجاله لنحت أبى الهول فى الجيزة وطوله ٢٤٠ قدمًا ويواجه الشمس

المشرقة. وهو حامى الأهرامات ويمزق أعداء «رع» وكان أبو الهول نموذجًا شعبيًا فى الصناعات المصرية والبناء.

وتقول الأسطورة: إن أبا الهول وعد طوطميس الرابع بأنه سيعتلى العرش فى عام ١٤٣٥ ـ ١٤١٢ ق. م بعد أن أزال الرمال من مخالب أبى الهول.

أما الأسطورة الإغريقية فتصوره كوحش مع وجه وثديى امرأة وجسم أسد وأجنحة وأن هيرا إلهة الأرض أرسلته ليهدد مدينة طيبة وكان أبو الهول يحرس ممرًا على حافة جبل ويسأل كل عابر أحجية وعندما أعطى الملك أوديب الجواب الصحيح رمى أبو الهول بنفسه من القمة وسقط فى البحر. ولكنه كثيرًا ما ينسب «أبو الهول الغامض» إلى مصر القديمة، وبذا تتعارض أسطورتان مختلفتان، إحداهما: خاصة بأبى الهول الإغريقى القاسى، وهو لبؤة مجنحة لها رأس امرأة، وتتكلم بالألغاز بطبيعتها كما يتضح من قصة أوديب.

أما الأسطورة الثانية فخاصة بالأسود الإلهية المصرية الذائعة الصيت، التى أطلق عليها الإغريق أنفسهم كلغة سفنكس «أبو الهول»، ولكنها كانت، فى الحقيقة، أسودًا لها رأس فرعون، وهى ذكور كما قال: «هيرودوت» نفسه، وهى مسألة كانت موضع خلاف، وهناك تشابه بين الكلمة الإغريقية سفنكس والتعبير شب عنخ «تمثال حى» الذى استعمل فى اللغة المصرية عند الكلام على الأسود ذوات رءوس الإنسان؛ وبسبب هذا الشبه ظن بعض العلماء أن الاسم الإغريقى والصورة الإغريقية مأخوذان من مصر القديمة عن طريق سوريا، ولو كانت هذه النظرية صحيحة حقًا، فلا بد أنه انقلب كائنًا شريرًا عندما وصل إلى الأرض الإغريقية، وحتى على ضفاف النيل، وحتى فى الحالات النادرة والتى كان فيها أبو الهول أنثى «ممثلًا للملكات»، وحتى عندما اتخذ صورة فهد

ذى أجنحة صقر ينقض على الرؤساء الأجانب، لم يكن أبو الهول وحشًا شريرًا. لقد كان دائمًا قوة ملكية صارمة حيال المتمردين، وتحمى الأخبار، وبفضل وجهه الملتحى، كان يمثل: إما الملك أو إله الشمس، وكانت له نفس صفات الأسود. وإذا كان من فصيلة الأسود، فإن، مقاومته فى القتال متعذرة.

ولقد مثل فرعون نفسه بعدة أسود لكى يحمى معبده حماية أفضل، ونرى هذا فى الصف المزدوج للتماثيل التى تمثل إحدى صور أبى الهول على جانبى الطرق المؤدية إلى المعابد. وهكذا شبه فرعون نفسه بأبى الهول التوأم أو بالأسدين التوأمين، حارسى «الأفقين».

وأحياناً كان أبو الهول هو الإله نفسه متجسدًا فى صورة أسد؛ كى يدافع عن بيته، وهذا هو السبب فى حراسة معبد الكرنك بتماثيل أبى الهول لها «رءوس كباشى»، أى بأسود ذات رءوس كباشى تقترن باسم آمون.

لأبى الهول الموجود بالجيزة شهرة خاصة، فهو أضخم تماثيل أبى الهول جميعًا ومن أقدمها.

أمر خفرع بأن ينحت تل من الحجر الجيرى طوله أكثر من ٧٠ م، ليصير بصورة أسد ضخم، يحرس الممرات الغربية التى تختفى فيها الشمس والأموات. صار أبو الهول، فى الدولة الحديثة، الإله حورماخيس «حورس فى الأفق». وإذا ما ذهب الملوك للصيد بقرب أبى الهول هذا، زاروه وكرسوا له لوحات حجرية. وعندما قامت مستعمرة كنعانية بجواره، اعتقدت أنه الإله الفلسطينى حورون، كثيرًا ما غرق أبو الهول «وخصوصًا فى عهد تحوتمس الرابع» فى الرمل الذى تذروه الريح على جسمه. ومن ير عينيه وفمه الشهير يعتقد أن وجهه كان سيحتفظ بجماله الإلهى لو لم يرغب أحد أمراء العصور الوسطى فى تحطيم

ابتسامته الوثنية بنيران المدافع.

أنوبيس

إله مصرى قديم له رأس ابن آوى كان يعبد فى أبيدوس، وتذهب الأسطورة إلى أنه كان يشرف على تحنيط جثث الموتى، وهو ابن أوزوريس ونفتيس، ويقال: إن أمه ألقت به فانطلقت إيزيس تبحث عنه مستعينة ببعض الكلاب حتى وجدته.

ونشأ أنوبيس فى حجرها ثم أصبح لها حارسًا وتابعًا فى جولاتها، ومعنى اسمه «رقيب على الكلاب وحارس لها» وهو يشرف مع «أبو أوت» على عالم الموتى ويقودهم إلى قاعة الحساب، ويراقب عملية وزن القلوب، وربما كانت عبادته أقدم من عبادة أوزوريس، ولعلها طوطمية فى أصلها.

وثمة روايات أخرى تذهب إلى أنه «ابن ست» إله الشر والظلام وربما يكون قد ارتفع إلى مقام الآلهة ليحول بين بنات آوى وبين التهام جثث الموتى.

ومن أسمائه أنبو وأنوبا وويب.

* * *

آلهة الإغريق

زيوس

كلمة زيوس تعنى فى الأصل «السماء»، وزيوس يعرفه الرومان باسم جوبتر هو رب الأرباب وحاكم الكون المطلق من فوق جبل الأولمبوس، بإقليم أبيروس غرب بلاد اليونان، حيث كانت مركز نبوءته، وكذلك فى أولمبيا بإقليم إيليس فى غرب إقليم البيلوبونيسوى، حيث يلتقى نهرا كلاديوس والفايوس.

ومن الطبيعى أن يمر زيوس نفسه بألوان من التحولات المختلطة، ففى كريت حيث وجدت حكايات كثيرة عن مولد زيوس، امتزج بالإله المحلى للخصوبة، وتوحى أسماؤه المتعددة بأنه كتبت له السيادة على وظائف معظم الآلهة المتخصصين.

فقد أدرك اليونانيون مبكرين، على نحو غير عادى، وجود إله عال محيط بكل شىء، وأصبح زيوس هو الإله الذى يرعى الاستقامة، فهو زيوس «المنقذ» وزيوس «محقق الآمال». عاليًا فوق الأولمب المشرق يتربع زيوس، يحيط به لفيف من الآلهة. وهنا - أيضًا - زوجته هيرا وأبو لون، ذو الشعر الذهبى، وشقيقته أرتيميس، وأفروديت الذهبية، وأثينا القوية، ابنة زيوس وكثيرون غيرهم من الآلهة.

وتقوم على حراسة مدخل الأولمب العالى الهورات الثلاث الحسناوات اللواتى يرفعن الغيمة الكثيفة، التى تسد البوابة حين تهبط الآلهة إلى الأرض، أو ترتفع إلى قصور زيوس العالية، وعاليًا، فوق الأولمب، تمتد السماء الزرقاء السحيقة، ومنها يتدفق الضوء الذهبى.

وفى مملكة زيوس لا يوجد مطر ولا ثلج، ولا تعرف إلا الصيف المشرق البهيج، ومن تحتها الغيوم، التى غالبًا ما تحجب الأرض

البعيدة، وهناك على الأرض يحل الخريف والشتاء محل الربيع والصيف، ويحل البؤس والحزن محل السعادة والفرح.

صحيح أن الآلهة بدورها تعرف الأحزان، لكن أحزانها سرعان ما تزول، وتعم البهجة الأولمب من جديد، ومن الأولمب يرسل زيوس إلى الناس عطاءاته ويرسخ النظام والقوانين على الأرض، فمصير الناس بين يدى زيوس: السعادة والبؤس، الخير والشر، الحياة والموت. وعند بوابة قصر زيوس يقوم وعاءان كبيران، فى الوعاء الأول عطايا الخير، وفى الآخر عطايا الشر، ومن الوعاءين يغرف زيوس الخير والشر، ويرسلهما للناس، والويل كل الويل لذلك الإنسان، الذى لا يغرف له نافث الصواعق إلا من وعاء الشر، كما أن الويل كل الويل لمن يخل بالنظام، الذى سنه زيوس على الأرض، ولا يتقيد بقوانينه؛ حيث يقطب ابن كرونوس حاجبيه الكثيفين برهبة، فتحجب السحب السوداء السماء، يستبد الغضب بزيوس العظيم فيرتفع الشعر على رأسه بشكل فظيع، وتقدح عيناه شررًا لا يطاق، ويلوح بيده اليمنى، فيتردد هزيم الرعد عبر السماء كلها، ويومض البرق الساطع، ويميد الأولمب العالى. وعند عرش زيوس تقف الربة ثيميس حامية القوانين، وبإيعاز من نافث الرعد تدعو إلى اجتماع الآلهة على الأولمب، والاجتماعات الشعبية على الأرض، وتسهر على ألا ينتهك القانون والنظام.

آريس

ويعرفه الرومان باسم «مارس» إله الحرب والوباء، وعشيق أفروديتى الشهيرة. كانت عبادته تتركز فى منطقة طيبة وثركيا. وقد لعب دوراً كبيراً فى أسطورة الحرب بين الإغريق والطروادیين، ولكن الديانة الإغريقية لم توليه أهمية كبرى إذ اعتبره الإغريق رباً دخيلًا عليهم، وباستثناء ظهوره مع أعضاء مجلس الآلهة، لم يظهر كثيرًا فى أعمال الفنانين ولم نعرف أى

معبدًا خاصًا بعبادته.

إن آريس الهائج، إله الحرب، هو ابن زيوس قاصف الصواعق وهيرا.

ولم يكن زيوس يحب ابنه، ولو لم يكن آريس ابنه إذن لكان قد رمى به منذ عهد بعيد فى التارتار المظلم؛ هناك حيث يتعذب المردة، إن قلب آريس الشرس لا تسره إلا المعارك الطاحنة، فتراه لا يقر له قرار، وهو يتحرك وسط قعقعة السلاح وصراخ وأنين المتقاتلين، فى سلاحه الساطع، حاملًا ترسه العملاق. ومن خلفه يندفع ولداه ديتيمسوس وفوريوس - الخوف والرعب - ومعهما أيريس، ربة الشقاق، وأينيو الربة التى تزرع القتل. ويحمى الوطيس، وتتردد قعقعة السلاح، ويتساقط المحاربون، وهم يطلقون الآهات، لكن آريس يتلذذ برؤية ذلك، إن آريس يشعر بنشوة النصر حين يصيب المحارب بسيفه الرهيب، ويتدفق الدم الحار على الأرض، إنه يضرب خبط عشواء، يمينًا وشمالًا.

إن آريس عنيف، شرس ورهيب، لكن النصر ليس أبدًا حليفه، فغالبًا ما يتقهقر آريس فى ساحة المعركة أمام أثينا بالاس المحاربة، ابنة زيوس، التى تتغلب على آريس بحكمتها وإدراكها الهادئ لقوتها، ولا يندر أن يتغلب حتى الأبطال الفنانون على آريس، وخاصة إذا ما مدت لهم أثينا بالاس يد المساعدة.

وعلى هذا النحو أصابه البطل ديوميد برمحه النحاسى تحت أسوار طروادة، كانت أثينا هى التى سددت الضربة، وقد ترددت بعيدًا صرخة الإله الجريح، لكن عشرة آلاف محارب قد صرخوا دفعة واحدة، وهم يندفعون إلى ساح الوغى. تلكم كانت صرخة آريس من شدة الألم، ودب الرعب فى قلوب الإغريق والطرواديين، أما آريس الشرس فقد انطلق، مدثرًا بغيمة كالحة، مضرجًا بالدم، انطلق إلى أبيه زيوس يشكو أثينا إليه، لكن زيوس لم يستمع لشكواه، فهو لا يحب ابنه، الذى لا يتلذذ إلا

بالنزاع والمعارك والقتل.

بوسيدون

عرفه الرومان باسم نبتون رب البحار والمحيطات والينابيع والأنهار وكان يمسك بالأرض حتى لا تهتز أو ترتجف، فإذا أراد شرًا بالناس هز الأرض فتحدث الزلازل والبراكين وقد عشق بوسيدون الخيل وارتبط بها، وكان مركز عبادته عند منطقة خليج كورنثا حيث تبدأ السفن رحلاتها إلى ما وراء البحار.

وعميقًا فى غياهب البحر يقوم قصر خارق الفتنة، قصر بوسيدون محرك الأرض، أخو زيوس مبدع الصواعق. وهو يبسط سلطانه على البحار فأمواجها رهن إشارة يده المسلحة بالخطاف المثلث الشعب، وإلى جانبه تعيش زوجته الفاتنة امفيترينا، ابنة نيريوس، شيخ البحر الخالد والتى اختطفها بوسيدون، سلطان الأغوار البحرية من أبيها. لقد شاهدها ذات مرة تقود حلقة راقصة مع أخواتها النبريدات على شاطئ جزيرة ماكسوس فأسره جمالها وأراد أن يحملها معه على مركبته. إلا أن امفيترينا اختبأت عند العملاق أطلس، الذى يرفع القبة السماوية على منكبيه العظيمين.

ومكث بوسيدون يبحث طويلًا عن الفتاة الرائعة دون جدوى، وأخيرا هداه الدلفين إلى مقرها فأثابه بوسيدون برفعه إلى السماء وجعله نجمًا من نجومها، واختطف بوسيدون ابنة نيريوس الفاتنة واتخذها زوجة. ومنذ ذلك الحين تقيم امفيترينا مع زوجها فى مملكة ما تحت البحار. تضطرب الأمواج عاليًا فوق القصر وتحيط ببوسيدون جمهرة من آلهة البحر وكلهم خاضع لإرادته.

* * *

أوربا

هى ابنة ملك صور - والتى سميت باسمها قارة أوربا - وهو ابن ليبيا، وبوسيدون إله البحر وقد ترك مصر ليسكن فى فينيقيا مع أولاده الخمسة قدموس وفيونكس (أبو الهول) وسيلس وثاسوس وفينياس.

وتقول الأسطورة: إن زيوس كبير الآلهة رآها فهام بها حبًا ولكى يفوز بها تقمص صورة ثور وديع وراح يقفز حولها وهى تمشى على الساحل، وأخيرًا تمكن من إغرائها بالركوب فوق ظهره وقفز فى الماء حاملًا حبيبته أوربا إلى كريت وهناك أنجب منها ثلاث ذكور منهم: مينوس الذى أصبح حاكما للجزيرة، وتقول الأساطير - أيضًا - : إن أوربا كانت إلهة الليل إذ إن اسمها من أصول سامية ومعناها الواضعة، وتروى الأسطورة أن أوربا حملت إلى الغرب لتزويجها من زيوس، ثم تزوجت من استريوس ملك كريت الذى تبنى أولادها وقد أعطاه زيوس هدية الزواج تمثالًا برونزيًا لرجل اسمه ثالوس؛ للدفاع عن مملكته. ويقولون: إن ثالوس كان يضرب الغرباء بحجر أو بالنار أو يعصرهم بيده.

أرتميس

وقد عرفها الرومان باسم ديانا وهى توأم أبوللون وقد اعتبرها المفكرون والفنانون الإغريق رمزاً للكمال والجمال العذرى، كما كان أخوها بالنسبة للشباب وقد فضلت أرتميس أن تعيش عذراء واهبة حياتها للأدغال والمراعى فهى ربة الصيد حيث صورت دائمًا وهى تحمل السهام كما عرف عنها الانتقام ممن يحاول حتى النظر إلى قوامها كما فعل أكتايون الذى كان يصطاد فى إحدى الغابات ففوجئ بها تستحم فراح يختلس النظر إليها فما كان منها إلا أن جعلت الكلاب تنهش لحمه.

وهكذا أصبحت أرتميس حامية للشرف العذرى كما كانت تعاون

النساء ساعة الوضع، كما ارتبط اسم أرتميس بالقمر مثلما ارتبط اسم أخيها بالشمس.

هرميس

ويعرف عند الرومان باسم مركوريوس، وقد ذكرته الأساطير بأنه مبعوث الآلهة؛ لذا كان يصور دائمًا وهو يحمل عصا الرسول ويرتدى خوذة الإخفاء المجنحة والحذاء الطويل المجنح، وقد قام بعد مولده بسرقة ماشية أخيه أبوللون، ولذا اتخذه اللصوص ربًا لهم كما عرف بأنه رب التجار وحامى الطرق وقائد الأرواح عبر سراديب العالم الآخر وقد ارتبطت صورته بعضو الإخصاب؛ حيث كانت تقدم إليه القرابين فى هذا الشكل، وقد عرف - أيضا - بأنه رب الطبقات الفقيرة، وقد ارتبطت عبادته بعبادة الإله المصرى أنوبيس رب العالم الآخر وامتزجا معًا فى صورة واحدة أطلق عليها هرمانوبيس، كما عودل بالرب بتاح رب منف.

ديونيسوس

عرفه الرومان باسم باخوس رب الحصاد والحدائق والكروم ورب الخمر والمرح والشهوة والمتعة وكان لا يفيق من سكره أبدًا ويصور ثملًا يحيط به مجموعة من أتباعه وهم مخلوقات بشرية لها ذيول الخيل وآذانها.

محبة للعربدة والعبث، ولهذا الإله أهمية فى الأدب الإغريقى والتراجيديا الإغريقية حتى أن كلمة تراجيديا اشتقت من اسم تراجوس أى: (الجدى)، وهو حيوان ديونيسوس المفضل لما عرف عنه من طاقة وحيوية وخاصة فى الجماع، ويقال: إن ديونيسوس كان إلهًا وافدًا من الشرق ولكن الأساطير الإغريقية ربطته ببلاد اليونان.

* * *

ديمتير

وقد عرفها الرومان باسم كيريس، كما عرفوا ابنتها بتحريف اسمها الإغريقى الى بروسربينا التى كانت تعرف عند الإغريق باسم كور، وقد عبدت الأم والابنة ربتين عظيمتين وارتبطتا بالعبادة الزراعية؛ حيث كانتا فيما كان يعتقد تحميان الزراعة وتزيدان المحاصيل حتى أن ديمتير كانت تصور دائمًا وهى تحمل سنابل القمح فى يدها.

هيرا

وقد عرفها الرومان باسم يونو، وهى شقيقة زيوس وقرينته الشرعية وكانت الربة المختصة بشئون النساء والحامية للزواج وللأسرة وإلى جانب معبدها فى أولمبيا عبدت فى مدينة أرجوس فى أسبرطة وكذلك فى جزيرة ساموس بالقرب من شاطئ آسيا الصغرى.

أثينا

وتعرف عند الرومان باسم مينرفا وتروى الأساطير الإغريقية: أن زيوس عندما ضاق ذرعًا بربة العقل والحكمة ميتس وخاصة بعد أن أنذره الكهنة من خطر الإنجاب منها قرر التخلص منها ولم يجد أفضل من أن يبتلعها فى جوفه؛ وما أن فعل ذلك حتى أصيب بصداع شديد فى رأسه جعله يصرخ من الألم ولم تجد الآلهة ما تفعله له ثم نودى على إله الحدادة هيفايستوس وبعد أن تفحصه زيوس انهال على رأسه بفأس فشجها وسرعان ما قفزت منها الربة أثينا مدججة بالسلاح تطلق صيحات الحرب.

وقد ورثت أثينا الحكمة عن أمها كما كانت ربة الحرب والنزال وحامية الصناع، وقد لقبت بأسماء كثيرة أشهرها: «ذات الوجه الجميل» والعذراء؛ ذلك لأنها آثرت أن تبقى دون زواج حتى لا تنجس عذريتها.

وقد أقيم لها أكبر معبد عرفته اليونان فى تاريخها وهو معبد البارثينون «معبد العذراء» فوق الأكروبول فى مدينة أثينا وقد نسبت الأساطير إلى أثينا أعظم الأعمال.

أبوللون

ويعنى باللاتينية أبوللو وعرفه الرومان باسم فيبوس (رب النور) أما عند اليونان فكان -أيضًا - رب الشباب والشعر والموسيقى فهو الذى أوجد القيثارة وقد ولد مع أخته أرتميس من أمها ليتو من زيوس، وقد عرف أبوللو بأنه رب النبوءات والطهارة ورد الأذى والأوبئة عن الناس وقد اشتهرت جزيرة ديلوس «مسقط رأسه» كمركز لعبادته، وكان معبده فى «دلفى» كعبة اليونان جميعًا ومركزًا للوحدة الدينية والسياسية فيما بعد.

أفروديت

وتعرف عند الرومان باسم فينوس ربة العشق والجمال، وقد صورها الفنانون الإغريق بقوام ممشوق وجسد يتفجر أنوثة، وكانت أفروديت تعنى بأمور النساء والعلاقات العاطفية؛ ولهذا كانت قلوب العشاق تتوجه دائمًا بالدعاء لها، وتقول الأساطير الإغريقية: إن أفروديت ولدت من زبد البحر قرب شواطئ قبرص.

وتعد أفروديت الغذاء الروحى والإلهام الفنى لكثير من الفنانين الإغريق ومن جاءوا بعدهم.

وقد ارتبط ظهور أفروديت فى كثير من الأحيان بابنها إيروس الذى عرفه الرومان باسم كيوبيد حيث كان يرمى القلوب بسهام الحب، وكانت أفروديت تبدو - دائمًا - وهى تمسك بالتفاحة أو ترتدى قلادتها الشهيرة حول عنقها، وأحيانًا كانت تحتضن اليمامة طائرها المفضل.

هيفايستوس

ويعرف عند الرومان باسم فولكانوس رب النار سواء التى تصدر عن البراكين أو التى يشعلها الإنسان، كما كان - أيضًا - رب الحدادة وتقول الأساطير: إنه كان يملك مصنعًا للحدادة فى قلب مجموعة من البراكين فى جزر ليبارى وكان يعاونه الككلوبيس وهم مخلوقات عملاقة لكل منها عين واحدة فى منتصف الوجه، وكان هيفايستوس يقوم فى مصنعه بعمل أسلحة للآلهة المختلفة. وقد وصفته الأساطير بأنه أعرج وذلك لأن أمه هيرا لم تعجبها خلقته المشوهة بعد ولادته فألقت به من السماء فأصيب بكسر فى ساقه.

هستيا

وقد عرفها الرومان باسم فيستا، وتقول الأساطير الإغريقية: إنها كانت شديدة التمسك بعذريتها حتى أنها رفضت جميع الذين جاءوا لطلب يدها مثل بوسيدون إله البحر وأبوللو إله النور، وقد عرفت «هستيا» بأنها «ربة الموقد» الذى كان يوجد فى المنزل أو يتوسط ساحات المدن كرمز للحياة حيث اعتبر الإغريق الموقد من أهم أجزاء البيت؛ ولذا اعتبرت هستيا ربة الدار وراعية الأسرة والساهرة على سعادتها وراحتها حتى أن الإغريق كانوا يتقدمون إليها بالصلاة قبل تناول الطعام وبعده.

* * *

آلهة الآشوريين

أونو

إله السماء عند الآشوريين، ويمثل أول الآلهة وأكبر المعبودات فى قائمة الآلهة فى العراق القديم ويعتبر أبا للآلهة.

وتقول الأسطورة: إن هذا الإله انهار حين ضاع نفوذ سومر وأكاد وسرق منه مكانته «مردوق» البادلى ثم اختلس وظائف الاثنين وسرق مكانتهما «آشور» حين أصبحت لدولة آشور الغلبة والسيادة. «وأونو» هو أب السماوات وملكها وعرشه على قبة السماء ويحكم أونو مجموعتين من الآلهة هما «الأجبى» فى السماء و«الأنوناكى» فى الأرض وهم الذين يقتسمون التصرف فى شئون العالم.

أنليل

إله الأرض، وكان سيد جميع الآلهة فى المجتمع السومرى. ومعنى اسمه سيد الريح والروح. ثم لقب بعد ذلك بـ «سيد الأرض» الذى يحكمها ويحكم كل من فيها وما فيها، وكانت له شبكة من الأتباع يعيد بهم العصاة، وله مظهر الجندى المغوار الذى تهز قوته السماوات والأرض.

أنكى

إله الماء، وكان ثالث أفراد الثالوث الرئيسى للآلهة وكان يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الأرض، الأرض العليا حيث يحكم أنليل، والأرض السفلى حيث يحكم نيرجال، والأرض الوسطى ما بين الاثنين حيث يحكم أنكى إله الماء.

وكان أنكى إلهًا للسحر - أيضًا - وإليه يرجع استخدام الماء العذب فى طقوس الطهارة وهو الذى يتلو الرقى للآلهة وكان أنكى كذلك إلهًا

للحكمة فهو رب العقل والذكاء وإلهًا للعلم والفنون والصناعات، وتقول الأسطورة: إن على يديه تمت عملية خلق البشر.

نرجال

إله العالم السفلى ويعرف بإله الوباء المسئول عن تعمير العالم السفلى والذى يعاقب بالحديد والنار من يعتدى على الشريعة.

وكوكب نرجال هو: المريخ، وقد استطاع بقوته هو وزوجته أرشكيجال سيدة الأرض العظمى السيطرة على العالم، وقد نشأ نرجال إلهًا شمسيًا وهو يشارك أونو وأنليل وأنكى فى ملك العالم؛ كما أنه المسئول عن معاقبة المدن التى تثور ضد السماء بما فيها بابل ورمزه الأسد وأحيانا ثور أو تنين أو غراب. ويقولون: إن أحدًا لا يستطيع أن يقاومه فهو يمثل فى رأيهم القدر الذى لا يستطيع أن يفلت منه أحد.

شمس

هو إله الشمس عند الآشوريين وصوروه بدائرة ذات أربعة أشعة تخرج بينها أشعة مجعدة تمثل المعبود الشمسى، وهو رمز لانتقال الشمس من الشرق إلى الغرب.

تصور الكرة الشمسية ذات أجنحة وذيل طائر، وحين تترك الشمس عرشها لتعبر الفلك تمتطى حصانًا.

أما صفات شمس فهو أنه يضىء للعالم، ضوء الأعالى والأعماق، ضوء السماوات والأرض، ضوء الآلهة وهو مانح الحياة ومحيى الموتى وهو الذى يقود العالم كله «الآلهة والبشر»، وبصفته كصاحب للأشعة التى تخترق الظلمة التى يعمل فيها الأشرار، فإنه يمثل النور عدو الشرق.

* * *

سن

هو إله القمر عند الآشوريين، وهو إله صغير يظهر كثور صغير قوى قرونه شديدة، وهو سيد التاج يعين الملك، ويمنح الصولجان أو ينزعه، وحين ينحدر الشهر يتحول إله القمر إلى شيخ مسن له لحية من لازورد ينفذ بحكمته قرارات الآلهة ويتصرف فى أقدار البشر وهو يباشر تنفيذ العدالة مع الإله شمس فى الليل والنهار.

عشتار

وتعرف عند الآشوريين بإلهة الزهرة، وهى إحدى بنات «سن» إله القمر، وتظهر فى الصباح كذكر يشرف على الحروب والمذابح، أما فى المساء فهى أنثى ترعب الحب والشهوة، هى ربة تسعى وراء اللذة والإغواء، ورمزها نجم تخرج منه ثمانية من الأشعة أو ستة عشر داخل دائرة.

وقد دعا الإله «أونو» الآلهة؛ ليمنحوها لقب «عشتار النجوم»؛ لأنها أكثر إشعاعًا بينها ولهذا فهى التى تقود النجوم. ولقبوها بـ «كوكب الزهرة» و «نجم الفجر» ووصفوها بالشجاعة والقوة والتغيير؛ ولأنها أيضًا أنثى فى المساء فهى عندهم ربة العشق وكانت زوجة وعشيقة لكبار الآلهة «أونو» و «أنليل» و «آشور» أى: أنها رفيقة كبار الآلهة وهى التى تحدد مصائر البشر.

مردوك

هو أكثر الآلهة التى تقول الأساطير: إنها لعبت دورًا رئيسيًا فى مصير بابل، وهو الابن الأكبر للإله «أنكى» إله الماء ورث عن أبيه العلم والسحر، وهو الذى يتلو الرقى والتعاويذ للآلهة، ولمردوك أربعة عيون وأربعة آذان فهو أعقل العقلاء بين الآلهة؛ سلموه القوة التى يدير بها

شئون السماء والأرض.

وتقول الأساطير: إن جميع صفات الآلهة قد تركزت فى مردوك وكلمته تخلق الخلق أو تمحوه.

وفى السماء كوكبه «المشترى»، ويصور أحيانًا فى عجلته الحربية.

وقد انتشرت عبادة مردوك من العاصمة بابل إلى الإمبراطورية وكانت تودع تماثيله فى المدن الأخرى إلى جانب تماثيل الآلهة المحلية.

آشور

ويحتل المكان الأول فى مجمع الآلهة الأوربية وتاريخه مرتبط بتاريخ مدينة آشور ويشار إليه كصاحب أعلى المراكز بين سائر المعبودات هناك، حيث نما وكبر مع مدينته حتى استولى على اختصاصات غيره من المعبودات واعتبروه أبا الآلهة بدلًا من أونو وأنليل بل اعتبروه خالقهم جميعًا وسيدهم وملكهم. ويحدد مصائر البشر. وكانوا يتقدمون إليه بالصلوات والقرابين.

* * *

آلهة الهندوس

«براهما»

أما براهما فسيد جميع الآلهة رغم أنه مقل فى شعائر العبادة الفعلية، وكان له من الشهامة ما أبعده عن الميل مع الهوى، وهو القوة الخالقة فى الطبيعة، رغم اعتبار براهما من ثلاثى الآلهة العظام الهندوس وهم «فشنو»، و«شيفا» المدمر فقد خسر براهما قوة كونه الخالق لهذين الإلهين اللذين أصبح أحدهما للبناء والآخر للتهديم؛ وكذلك الإلهة الأم المقدسة الحمراء اللون، ويجد براهما بأربعة رءوس وكانوا سابقًا خمسة رءوس ولكن الإله شيفا أحرق إحدى الرءوس بعينه الثالثة؛ لأنه تكلم معه باحتقار ويحمل براهما صحن الزاهد الذى يشحذ الطعام والصدقات.

وتصوره صورة أخرى، وهو يقدم للآلهة صحن الزاهد المتنسك الشحاذ؛ وكذلك حكمة المعرفة السحرية مع بقية الآلهة الذين يقدمون فروض الطاعة للعنصر الأنثوى - براهما.

وهناك أسطورة أخرى حول الخليقة تقول: إن براهما هو المادة الأساسية وموجودة منذ الأزل وأن براهما خلق المياه الكونية ووضع فيها بذرة ونمت وأصبحت بيضة ذهبية «هرانيا كاربها» ووليدها هو براهما خالق الكون وكان الكائن الأول «يوروشا» أو الرجل الكونى وهو أحد أسماء براهما.

وتقول أسطورة أخرى: إن براهما خرج من زهرة لوتس من سرة «فشنو» وبوجود رفيقة «زوجته» الإله «فشنو» الإلهة «لاكشمى» إلهة اللوتس، وتمثل لاكشمى الثراء والنعمة والمسئولة عن ولادة البشرية، وكانت لبراهما علاقة غير شرعية مع الكلمة الملفوظة «فان»، أو البقرة التى تغنى ألحانًا وتجلب الحليب والمياه، وهى أم «الفيدا» و «فان»

تعنى: الكلمة، وقوى الطبيعة، وهى بطبيعة أخرى تعنى الوهم «مايا» وتظهر على شكل لبؤة. وتظهر «فان»، فى النقوش فى المعابد مع رجل أما عربة براهما «حمزة» أو «فاهانا» فهى استمرارية للأسطورة؛ لأن اسم الطير مرتبط مع صوت الكون والتنفس.

فالشهيق يعمل صوتًا هو: «هام»، والزفير: «زا». والكلمة هى: «حمزة»، أو «همزة»؛ لذا فإن تمارين التنفس اليونحية ونفس الحياة مبنية عليها ونجد فى أبنية المعابد نفس كلمة «هاما» أو همزة على جانبى زهرة اللوتس وهى رمز المعرفة.

أما أصل أسطورة اللنغام فيقال: إن «شيفا» حل نقاشًا لبنى «براهما»، و«فشنو» حول الذى أوجد الخليقة، وقد خرج «براهما» على شكل ذكر أوز فى المحيط الكونى «وفشنو» على شكل خنزير برى؛ وذلك للتحقيق فى الأمر، وعندما طار الأوز رأى إله الذكر الكونية ينفجر، وفى ملجأ على شكل كهف كان الإله الخالق «شيفا مختبئاً».

فشنو

وأما «فشنو» فهو إله الحب: ما أكثر أن ينقلب إنسانًا؛ ليقدم العون إلى البشر.

وفشنو هو: الإله المجدد والمحافظ وله شعبية فى الهند وجذر كلمة «فشنو» هى «فش» معناه: ينتشر ويعم ويوصف فشنو بأنه فى كل مكان، وقد تجسد فى عدة صور على شكل «أفاتارا» إله، أما جوهره المقدس فيتجسد على شكل إنسان أو شكل خارق ويظهر على شكل «أفاتارا» عندما تدعو الحاجة لإصلاح كل شىء والقضاء على الشر، ويقول «فشنو»: عندما يتهدد النظام والعدالة فى الأرض فسأنزل إلى الأرض.

ورغم أن شيفا تجسد (١٨) مرة على شكل إنسان أو إله فإن فشنو

بتجسداته العشرة يسيطر على فحوى الأسطورة الهندوسية، وأعظم ما يتجسد فيه فشنو هو شخصية «كرشنا»، وهو فى صورته الكرشنية مولود فى سجن، يأتى بكثير من أعاجيب البطولة ومغامرات الغرام، يشفى الصم والعمى ويعاون المصابين بداء البرص، ويذود عن الفقراء، ويبعث الموتى من القبور.

وكان لكرشنا تلميذ محبب إلى نفسه هو: «أرجونا» الذى تبدلت أمامه خلقة فشنو، وتقول أسطورة حياته: إنه مات مطعونًا بسهم، وتقول أسطورة أخرى: إنه قتل مصلوبًا على شجرة، ثم هبط إلى جهنم ومنها إلى السماء، على أن يعود فى اليوم الآخر؛ ليحاسب الناس أحياءهم وأمواتهم وهو - مثل الإله شيفا - تتبعه الأكثرية الكبرى من سواد الشعب الذى يكرم الآلهة، والذى يرسم الواحد منهم على جبهته كل صباح بالطين الأحمر علامة الفشنو، وهى شوكة ذات أسنان ثلاث، بينما الشيفى المخلص لعقيدته يرسم ثلاثة خطوط أفقية على جبهته برماد من روث البقر، أو يلبس «اللنجا» ويربطه على ذراعه أو يعلقه حول عنقه.

أما أتباعه فيقدسونه على أنه هو الذى خلق الكون كله، وأنه بعد أن قام من النوم أمر «البراهما» أن يخلق الأرض، ثم اتخذ له مكانًا فى «الفيكونتا» وهى السماء التى كان هو نفسه إلهًا لها، وهناك يجلس «فشنو» على العرش بجانب زوجته والإلهتين «لاكشمى»، و«سرى» إلهتى الحظ السعيد والبركة الطيبة، وفشنو ينتابه القلق - أحيانًا - بسبب هذا العالم، فهو يهبط بين حين وآخر من عليائه يتفقد شئون البشر.

ويعتقد الهندوس أن تجسد فشنو القادم سيكون «كالكى» أو الحصان الأبيض وسيعود خلال الـ (٤٢٨) قرنًا القادمة التى نمر بها وتسمى «كالى يوغ» دهر كالى وهى مرحلتنا الحالية، وفى هذه الفترة يعتبره أتباعه الأعلى ويعتبرونه الخالق؛ لأن براهما خرج من سرته فى زهرة اللوتس،

وفى تجسده على هيئة كرشنا فهو «الحافظ»؛ أما شيفا فقد خرج من رأسه كما يذكر فى ملحمة «المهابهارتا» وشيفا هو المدمر الذى يحل الأشياء.

شيفا

إله القسوة والتدمير: وهو تجسيد لتلك القوة الكونية التى تعمل واحدة بعد أخرى على تخريب جميع الصور التى تتبدى فيها حقيقة الكون.

وشيفا لا يظهر عادة إلا فى ميادين القتال والمعارك الضخمة والمنازعات الطاحنة، أما تماثيله المنحوتة فى الصخر فهى تمثله وهو يضع فوق رأسه عددًا من الجماجم وتحيط به أرواح الشر حيث يمارس رقصة الموت والدمار تلك الرقصة التى تنتهى بتحطيم العالم. وقد جسد شيفا قوى التدمير وعرف بأنه الذى يأخذ الشىء ويوجد على شكل شاب أشقر بأربع أيد وأوجه وثلاث عيون، وتقع العين الثالثة فى وسط جَبهته، وتمثل - أحيانًا - هذه العين بثلاث خطوط أفقية، ويقوم أتباعه برسمها على جباههم فى الوقت الحاضر، ويصور وهو لابس جلد الأسد وتلتف أفعى على رقبته.

والصفة الثانية لشيفا هى: صفة «بحيرافا» أو الملتهم السعيد وفى تنكره هذا يرتاد المقابر وأماكن حرق أجساد الموتى ويلتف بالأفاعى والجماجم كقلادة له ومعه مجموعة من الجنود والشخصية المضادة لصوره هو ظهوره على شكل «ناتراجا» ملك الراقصين ويرقص رقصته الكونية أمام «بارفاتى» للتخفيف عن آلام أتباعه، ونجد أجمل ما تحمله هذه الأسطورة فى جنوب الهند حيث تنتشر تماثيله البرونزية والدخول فى غيبوبة عن طريق الرقص.

آلهة الصينيين

«شانج تى»

آمن أهل الصين القدماء بوجود حاكم أعلى واحد فوق كل الأرواح وفوق كل الناس، اسمه «شانج تى»، هو القوة العليا المسيطرة على العالم، وقالوا: إنه عادل لدرجة أنه مهما صلى له الأشقياء فلن يقبل العفو عنهم أبدًا.

تيان

ولكن شانج تى - مع كل ذلك - لم يكن الإله الأعلى والأعظم فى اعتقاد الصينيين؛ فالإله الأعلى، سيد كل الآلهة، إله اسمه «تيان»، هو: السماء.

وكانت الطريقة التى عرف بها الصينيون «تيان»، إله الآلهة غاية فى البساطة، والتسلسل المنطقى، فالمطر الذى تشتد حاجتهم إليه لرى حقول الأرز، ينزل من السماء، والسحب التى تحمل المطر الذى تشتد حاجتهم إليه، تأتى هى الأخرى من السماء، والريح التى تدفع السحب التى تحمل المطر الذى تشتد حاجتهم إليه، تهب أيضًا من السماء، والرعد والبرق اللذان يفتحان السحب التى تدفعها الريح ليتساقط المطر، موجودان فى السماء، وحتى قوس قزح الذى يظهر بعد سقوط المطر والذى يستطيع الجميع أن يروه دون أن يلمسوه، يبدو هو الآخر فى السماء؛ إذن فمن المؤكد أن «تيان» رب الأرباب موجود هو الآخر فى السماء، وما دام الأمر واضحًا بهذا الشكل فلماذا لا يعبد الناس ذلك الرب الأعلى الذى يعيش فى السماء وهو غاية فى العدل، إلى جانب عبادتهم لأرواح الشمس والقمر والمطر والنار والرعد والجبال والأنهار؟ ولكن هل اكتفى الصينيون القدماء بكل هذه العبادات؟ لا، لقد عبدوا

أرواح أسلافهم - أيضا - فإذا مات رجل عبد أبناؤه روحه كما عبده أحفاده وحتى أبناء أحفاده وأحفاد أحفاده عليهم أن يعبدوا ذكراه.

ولم يكتف الناس بعبادة أرواح آبائهم وأرواح أجدادهم وأرواح آباء أجدادهم وأرواح أجداد أجدادهم فحسب، بل عبدوا كذلك أرواح كبار الحكماء والأبطال الوطنيين، وعبدوا بصفة خاصة أباطرتهم الذين كانوا يعتبرون - دائمًا - مقدسين.

* * *

أساطير الأبطال

* بجماليون
* ثيسيوس
* ذو القرنين
* سيزيف
* أورفيوس
* هرقل
* جلجامش

بجماليون

كان يعيش فى قبرص شاب وسيم يدعى «بغماليون» وكان هذا الشاب فنانًا موهوبًا فى نحت التماثيل، ولم يكن يصل لمستوى فنه وعبقريته أى إنسان آخر فى زمنه، فكان ينحت التمثال من العاج أو الحجر؛ فيبدو، كأنه مخلوق حى من لحم ودم. وكان بغماليون يكره النساء بشدة ويرى أن المرأة مخلوق ناقص كله عيوب وأنها وراء كل الكوارث التى تصيب الرجال. ولم يكن موقفه هذا يحتمل المناقشة أو التغيير؛ لذلك أخذ على نفسه عهدًا بألا يتزوج أو يفكر فى النساء، وقرر أن يهب حياته لفنه الذى أبدع فيه.

وعلى الرغم من موقف بغماليون السابق من النساء، فقد كانت أجمل تحفة فنية صنعتها يداه عبارة عن تمثال لامرأة فائقة الحسن، لم يكن التمثال مجرد صورة عادية ولكنه كان آية فى الجمال والروعة، وكان تجسيدًا لكل أوصاف الحسن والجمال، ولعله أراد بهذا التمثال رسم نموذج للاكتمال يكشف به قبح النساء ويشعر الرجال ببشاعتهن، أو أنه لم يستطع أن يمحو من خياله ما استطاع أن يمحوه من حياته وواقعه، ولكن هذا التمثال أصبح هم بغماليون الأكبر فكان يصنع بأصابعه الساحرة لمسات فنية جديدة يضيفها إليه فى كل يوم حتى أصبح التمثال أروع تحفة فنية يمكن صناعتها.

ولم يعد بغماليون يستطيع أن يجمل تمثاله أكثر من هذا الحد فقد أصبح أجمل من أى امرأة أو أى تمثال آخر فقال بغماليون مخاطبًا تمثاله الجميل: كنت جميلة وأصبحت الآن أجمل، كنت رائعة وأصبحت الآن أروع.

ولكن بغماليون أصابه أمر لم يكن يخطر بباله فقد أحب تمثاله حبًا

شديدًا وأصبح لا يقدر على فراقه لحظة واحدة، يقضى معه ساعات الليل الطويلة يقبله ويمد جسده ويدغدغ يديه ووجهه، كان يفعل كل ذلك وهو يتخيل أنه أمامه امرأة حقيقية وليس تمثالًا، ثم حاول بغماليون لفترة من الزمن أن يقلد الأطفال الصغار؛ فيفعل معها ما يفعلونه مع دماهم - يلاطفها ويلاعبها ويكسوها بالملابس الفاخرة، يأتيها بالهدايا الثمينة كالعطور والورود الجميلة، والعصافير - ولكنه كان عبثًا يحاول أن يبعث الحياة فى شىء ميت، وأدرك بغماليون أنه لن يستطيع الاستمرار فى هذا الوهم؛ ومنذ ذلك الحين تحول بغماليون إلى ضحية تستحق الرثاء والشفقة، وكانت عشترون «فينوس» ملكة الحب على علم بما يحدث لبغماليون فلما وصل به الحال إلى هذه الدرجة القصوى من البؤس والقنوط رقت لحاله وقررت أن تساعده، ولما جاء عيد «عشترون» بدأت تنصب الزينات وتقام الأفراح احتفالًا بها، وكانت المعابد تزدحم بالعشاق الذين يأتون من كل صوب حاملين هداياهم وقرابينهم إلى ملكة الحب؛ لكى ترضى عنهم وتتوسط لهم لدى معشوقاتهم لكى يبادلوهم حبهم وهيامهم.

ذهب بغماليون بالطبع؛ ليشارك هذه المرة ولم يكن من قبل يهتم أو يبالى بمثل هذه الاحتفالات والطقوس، وقد حمل هدية ثمينة تليق بمقام «فينوس» التى أصبحت آخر رجاء له.

وقف بغماليون وسط المعبد وأخذ يناجى «عشترون» يطلب منها أن تجد لبغماليون البائس عذراء تشبه تمثال المرأة الذى صنعه بيديه ووقع فى غرامه وتجرع كأس عذابه حتى الثمالة، وبعد طول وقوف ورجاء رأى بغماليون الشعلة تضطرم فى الهواء فوق المعبد ثلاث مرات، وكان هذا دليلًا على رضا «عشترون» واستجابتها لتوسلاته ورجائه، فاستراحت نفس بغماليون وشعر بالتفاؤل وبدأ الأمل يتسرب إلى قلبه مرة أخرى.

ولما رجع بغماليون إلى منزله ألفى حبيبته منتصبة على منصتها فنظر إليها نظرة طويلة ملؤها الرجاء والأمل ثم أقبل عليها وأمسك يدها وضغط عليها بقوة، لكنه تراجع بسرعة والدهشة تتملك جوارحه! شعر بغماليون بحرارة غريبة تسرى فى جسده! هل استجابت عشترون وحدثت المعجزة؟! لم يصدق بغماليون نفسه فى أول الأمر فما حدث كان يشبه الصدمة، ثم أقبل على عذرائه مرة أخرى، وقبل شفتيها فوجدهما لذيذتين بين شفتيه ثم ضمها إلى صدره فطوقته بذراعيها، أما بقية الأسطورة فتقول: إن بغماليون أطلق على عذرائه اسم «فلاطية» وإنهما تزوجا وإن ملكة الحب «عشترون» باركت زواجهما وحضرت حفل زفافهما بنفسها وإنهما أنجبا طفلاً أسمياه «بافوس» أطلق اسمه فيما بعد على مدينة «قبرص».

* * *

ثيسيوس

لم يكن بين أبطال أثينا من هو أعز على أبنائها من ثيسيوس، ولا عجب فقد صنع بطولته بيديه القويتين، وانتزعها انتزاعًا من بين براثن الأخطار، فحينما رحل أبوه «إيجيوس» إلى أثينا ليجلس على عرشها فى عهدها الملكى الأول، تركه جنينًا فى بطن أمه وقال لها وهو يودعها مشيرًا إلى صخرة هائلة: إذا كان ما فى أحشائك غلامًا، وشب قوى البأس بحيث يقدر وحده على دحرجة هذه الصخرة فسيجد تحتها سيفى الأعظم وخفين ينتعلهما، ويستطيع عندئذ أن يلحق بى، ويكون خليفتى على العرش.

وجاء الوليد ذكرًا، وشب قويًا غاية القوة، وما علم بقصة تلك الصخرة حتى رفعها بيديه فى غير عناء كبير، ثم تقلد سيف أبيه، وانتعل خفيه، وأعلن عزمه على اللحاق به، ولما أخبرته أمه بأن أباه أعد لرحلته سفينة جيدة قوية الشراع، أبى أن يركبها إلى أثينا؛ لأن الرحلة إليها بالبحر هينة لا مشقة فيها ولا خطر. أما الطريق البرية إليها فتحفها المخاطر والأهوال؛ إذ يكثر فيها القراصنة والوحوش وقطاع الطريق، وجدير بمن كان مثله ينشد إكليل الأبطال أن يركب الصعاب ويتحدى الأخطار!

وهكذا ودع أمه وجده، ثم اتجه إلى أثينا وحده، لا يؤنسه إلا سيف أبيه الباتر، وقلبه الفتى الشجاع، فلقى فى الطريق أولئك الأشرار الفاتكين، الذين أشاعوا الرعب فى قلوب المسافرين، فقتلهم أجمعين.

وتحدثت بلاد اليونان كلها بما صنع «ثيسيوس» البطل الشاب، فسبقته شهرته إلى أثينا فاستقبله أهلها استقبال الغزاة، ودعى إلى مأدبة تكريم فى قصر الملك أبيه، من غير أن يعلم هذا أنه ابنه الذى تركه جنينًا فى قرية نائية بالجنوب!

وأوجس الملك خيفة من شهرة البطل الفتى الذى احتل أعلى مكانة فى قلوب الأثينيين، وأوحت إليه زوجته «ميديا» . وكانت ساحرة عرفت بسحرها حقيقة ثيسيوس . أن يدس له السم فى كأس الشراب أثناء تلك المأدبة، فلما هم الفتى بتناول الكأس المسمومة رافعًا سيفه بتحية الفروسية التقليدية، عرف الملك ذلك السيف وحامله، وسرعان ما اختطف الكأس من يده ثم احتضنه فرحًا فخورًا به، بينما فرت ميديا ناجية بنفسها إلى آسيا!

وأعلن الملك على رءوس الأشهاد أن ثيسيوس ولده وولى عهده ووارث ملكه، فأقيمت معالم الأفراح، وزاد الشعب به تعلقاً، ولعرش والده ولاء!

وسنحت بعد ذلك فرصة مواتية؛ كى يزداد ثيسيوس فى نظر الأثينيين قدرًا ومكانة، فمن قبل ذلك بسنوات جاء ابن ملك كريت إلى بلاط أثينا زائرًا، فاقترف الملك خطأ ما كان له أن يتورط فيه، إذ بعث بضيفه الشاب فى مهمة خطرة، هى اقتناص ثور وحشى هائج، فقتل الثور الأمير.

وغضب ملك كريت لمصرع ولى عهده، فاجتاح مملكة أثينا وأعلن أنه سيسويها بوجه الأرض فلا تقوم لها قائمة أبد الدهر أو يبعث إليه ملكها مرة كل تسع سنين بجزية فريدة فى بابها هى سبع عذارى وسبعة شبان من أعرق الأسر فى المدينة، ليقذف بهم إلى وحش هائل يلتهمهم التهاما!

ولم يكن هذا الوحش سوى «المينوتور» الرهيب: نصفه الأدنى ثور، ونصفه الأعلى بشر. وفى رأسه قرنان، وقوته قوة الضياغم، وشراسته شراسة النمور!

ولهذا الوحش الأسطورى تاريخ مسطور مشهور، فأبوه ثور أبيض

رائع، أهداه الإله «بوسيدون» إلى «مينوس» ملك كريت كى يقدمه إليه قربانًا على مذبح هيكله. ولكن مينوس أفتتن بجمال الثور وقوته فعز عليه أن يذبحه قربانًا، واستبقاه فى قصره الملكى معززًا مكرمًا، فغضب الإله «بوسيدون»، وانتقم منه بأن أشعل فى قلب زوجته «باسيفاى» الحسناء حب ذلك الوحش حبًا جامحًا جعلها تمكنه من نفسها، وتلد مسخًا يحمل آية عارها، وفضيحة زوجها الملك وذلته بين الناس! ولم يسع هذا أن يقتل ذلك الوحش، فعهد إلى مهندسه العبقرى «دايدالوس» فى حبسه داخل حظيرة هائلة ليس إلى الخروج منها سبيل، وإلى هذه الحظيرة كان شباب أثينا وعذاراها يقادون فيعجزهم الخروج، ويأتى عليهم المينوتور!

وحلت نوبة الجزية عقب وصول «ثيسيوس» إلى أثينا، فأبى إلا أن يكون من بين الشبان السبعة، وألح فى ذلك إلحاحًا شديدًا، حتى قبل والده على مضض كبير!

ولما حان وقت الرحيل، قال ثيسيوس لأبيه: لقد انتويت قتل الملك المينوتور بعون الآلهة؛ كى أخلصكم من هذه الجزية الشنعاء، وسأعود بعد ذلك فى سفينة الوفد الأثينى جاعلًا لها شراعًا أبيض، بدل الشراع الأسود الذى كان شعار الحداد على ضحايا أثينا الأبرياء.

ولما وصل شباب أثينا إلى كريت، عرضوا على الناس فى موكب حافل، قبل أن يلقى بهم إلى «المينوتور»، وكانت «أرياند» ابنة مينوس الحسناء ممن شهدوا ذلك العرض، فراق فى عينها «ثيسيوس» الوسيم القوى وأحبته لساعتها، وانصدع فؤادها إشفاقًا عليه، فبعثت من فورها إلى «دايدالوس» مهندس والدها العبقرى؛ ليهيئ لها وسيلة للخروج منه، ثم بعثت إلى «ثيسيوس» خلسة بأنها ستعينه على النجاة إن هو وعد باصطحابها إلى أثينا حيث يتزوجها.

ولم يبد الفتى اعتراضًا، فقدمت إليه، «أرياند» كرة من الخيط الرفيع

المتين زودها بها دايدالوس، وأمرته أن يربط طرف الخيط فى باب الحظيرة من الداخل، ثم يبسط الخيط من الكرة وهو ماض فى طريقه؛ فيدله الخيط على طريق النجاة!

وفعل ثيسيوس ما أشارت عليه به، ثم تقدم ثابت الجنان رابط الجأش يفتش عن ذلك الوحش مينوتور، إلى أن عثر عليه نائمًا فى بعض الشعاب، فانقض عليه، وأخمد أنفاسه غير مستعين بشىء سوى قبضتيه القويتين، ثم عاد أدراجه مستهديا بذلك الخيط، ورفاقه ورفيقاته من ورائه يهتفون فرحين!

وتحت جنح الليل اختطفوا «أرياند» وركبوا سفينتهم عائدين إلى أثينا، ولكن الأميرة المنكودة ماتت فى الطريق فحزن عليها ثيسيوس حزنًا عظيمًا.

وفى غمرة ذلك الحزن الفادح على منقذة حياته، نسى «ثيسيوس» ما وعد به أباه، فلم يستبدل الشراع الأبيض بالشراع الأسود. وكان الملك إيجيوس منذ سفر وحيده فوق مركب الأكروبول الشاهق، لتقع عينه على السفينة من أقصى الأفق، فلما رأى الشراع الحالك، أيقن بهلاك قرة عينه، وألقى بنفسه من فوق قمة الأكروبول فمات لساعته غريقًا فى البحر؛ وسمى البحر منذ ذلك اليوم بحر «إيجه» نسبة إليه!

وتسنم «ثيسيوس» عرش أبيه، فكان أحكم الملوك وأنزههم مقصدًا ولكن هل يكف مثل ثيسيوس عن طلب المخاطر ومصارعة الأهوال؟ وهل يلهيه الملك والسياسة عن هواية تجرى فى عروقه مجرى الدماء؟

لقد كان يخرج إلى المجاهل لصيد الوحش، فلما سئم ذلك خاطر بنفسه بالرحلة إلى بلاد «الأمازون» حيث سلالة النساء المسترجلات الفارسات اللائى لا يخضعن لمشيئة رجل، ويمتن كما ولدن أبكارًا،

وهناك قنص واحدة منهن تدعى «هيبوليتا» وعاد بها إلى قصره، فاستولدها ابنًا دعاه «هيبوليتوس».

وحاول «الأمازون» الانتقام لذلك الخرق الفاضح لناموسهن، فاقتحمن أثينا ليختطفن الطفل الوليد وأمه، ولكن ثيسيوس ردهن على أعقابهن مدحورات، وبعث بابنه إلى بلدة أمه فى جنوب اليونان حيث نشأ هو؛ ليشب فى أحضان جدته!

وماتت «هيبوليتا» بعد حين فانصرف ثيسيوس عن الزواج إلى نصرة من يستنصره من الملوك والأبطال إلى أن عشق «فيدرا» أخت أرياند فتزوجها وعاشا فى أرغد حال، وكبر ابنه «هيبوليتوس»، وصار شابًا رائع الحسن والبأس، يحقر نعومة الترف، ويزدرى هوى النساء فأعجب ثيسيوس بولده أيما إعجاب، وتوثقت بينهما المحبة أيما توثق.

وشغف هيبوليتوس زوجة أبيه حبًا، فأرقت ليلها، وعافت طعامها، والحق أنها لم تكن مذنبة فى ذلك لأن ربة الحب «أفروديت» هى التى زينت لها ذلك العشق الآثم؛ كى تنتقم من «هيبوليتوس» لانصرافه عن عبادتها.

وعولت «فيدرا» على الانتحار، ولكن مربيتها العجوز ردتها، ووعدتها أن تنقع غلتها وتشفى نفسها بطيب وصال من تحب، ثم ذهبت إلى الفتى تستعطفه لسيدتها، وكان والده على سفر، فأنكر عليها ذلك، وغادر القصر معلنًا أنه لن يعود إليه إلا وأبوه فيه!

ولم تمض دقائق حتى حضر «ثيسيوس» من سفره، فاستقبله النسوة فى الحديقة مولولات؛ لأن سيدتهن الملكة «فيدرا» ماتت لتوها وفى يدها رقعة إلى زوجها الملك، فانكب الملك عليها باكيًا معولًا، وهو يقسم لتكون رغبتها التى انطوت عليها رسالتها أمرًا مقدسًا.

وتلا الرقعة مثنى وثلاث ثم صاح فى حاشيته كالليث الهائج: ما أشقانى بالذى قرأت! اعلموا أن ابنى قد اغتصب زوجتى عنوة، فقتلت نفسها تكفيرًا وأسى، اسمعى أيتها الآلهة صوتى وأنا ألعنه، وأنفذى لعنتى فيه!

وأقبل «هيبوليتوس» مسرعًا، فإذا أبوه يلقاه باللعنات ويعلنه بالنفى المؤبد، فخرج يتعثر إلى سفينة يركبها إلى منفاه، ولكن أفروديت لم تمهله، بل تذرعت بلعنة أبيه فأخرجت من اليم وحشًا هائلًا افترسه، ثم ظهرت «أرتميس» إلهة الصيد لأبيه فأخبرته بالحقيقة فمات أنبل الملوك، بطل أثينا الأعظم حزنًا على وحيده البرىء الشهيد!

* * *

ذو القرنين

يعتبر ذو القرنين بحق شخصية نموذجية ووجهًا أسطوريًا متعدد الجوانب تتنازعه ثقافات وحضارات شتى؛ لأنه يقع فى نقطة تقاطع يجتمع عندها عديد من القضايا، بعضها محلى يتنزل فى ظروف تاريخية بعينها ويعبر عنها، وبعضها إنسانى «أنثروبولوجى» يتنزل فى صميم قضايا الوجود والمعرفة، وهو ما يفسر بقاء هذه الشخصية الرمزية على مر العصور وارتداءها أثواب عدة هى ثوب الرجل الصالح والملك الفاتح والنبى كلهم يسعى نحو غاية محددة فيقوم برحلة عجيبة أشبه ما تكون بالمعراج ويتصل بأسباب السماء فتخبره عن الغيب وينبلج أمامه نور الحق.

فذو القرنين: هو تارة ملك من الملائكة أو نبى أو عبد صالح وتارة أخرى هو ملك حمير الصعب ذو مرائد، أو غيره، ويرى بعضهم أنه عاش زمن ثمود، وعمر ألفًا وستمائة سنة، فى حين يرى آخرون أنه عاش فى المدة التى يسمونها الفترة بين عيسى ومحمد. ولا يهمنا فى الحقيقة إن كان شخصية تاريخية أو أسطورية بقدر ما يهمنا أنه «شخصية نموذجية» نسجت حولها مخيلة الشعوب الذين تناقلوا أسطورته صفات ونسبت إليها أعمالًا تدخل فى تشكيل بنية رمزية لها وظيفتها ودلالتها.

وهناك روايتان لهذه الأسطورة.

الرواية الأولى:

وهى أقصر الروايات وذو القرنين فيها ملك وأكثر من ملك؛ لأن له صلة بعالم السماء وله خليل من الملائكة اسمه «روفائيل» يذكرنا بالملك الموكل بملائكة السماء السابعة، يحاوره ويخبره بأخبار السماء والملائكة.

ومنطلق الحدث الأساسى فيها رغبة «ذى القرنين» فى عبادة الله حق عبادته واستشارته «روفائيل» فى الأمر وجوابه أن الوسيلة إلى ذلك هى أن «لله فى الأرض ظلمة لا يطؤها إنس ولا جان، فيها عين الحياة» التى من شرب منها نال الخلود.

وتقع جميع الوقائع الجزئية بين حدثين أولهما رحلة ذى القرنين فى طلب عين الحياة بمعية الخضر وما صادف أثناء ذلك، وثانيهما عودته قانعًا زاهدًا رغبًا عن الدنيا.

فما أطوار الرحلة؟ وهل هى رحلة حقيقية أم رحلة رمزية؟ وما دلالتها؟

إن الغاية التى كان يريد ذو القرنين بلوغها «أرض لم يبلغها إنس ولا جان» وفيها «عين الحياة» أو «عين الخلد» وتذكرنا - شئنا أم أبينا - بشجرة الحياة أو شجرة المعرفة أو شجرة الخلد فى أسطورة الحق فى الفردوس.

وإذن فمسعى ذى القرنين من هذه الناحية يحاكى مع بعض الفوارق طبعًا، مسعى آدم لما أكل من الشجرة وهو إما طلب المعرفة أو أن يكون من المخلدين كما يحاكى مسعى البطل السومرى جلجامش - كما سنرى - من بحثه هو الآخر عن عين الحياة.

أما الرحلة فى ذاتها فإن مختلف القرائن تدل على أنها رحلة أسطورية رمزية فى اتجاهين اثنين وذلك أنها عمودية وأفقية:

فهى رحلة أفقية يطأ فيها ذو القرنين أرضًا مظلمة فيضل الطريق ويحسبها مبتغاه، ولكن الزمردة الحمراء ترده إلى سواء السبيل.

ويتضمن هذا المقطع من الرحلة أسطورة قيمة هى: «أسطورة الليل والنهار»، وتذكرنا بخرزة مماثلة وبالملكين «هراميل، وشراميل» ويصل فيها إلى قصر وإذا طائر أسود يشبه الخطاف مزمومًا بأنفه إلى حديدة

معلقًا بين السماء والأرض، يتكلم فيحاوره ويسأله عن حال الناس بعد الإسلام - مما يجعل ذا القرنين بطلًا مسلمًا - ويضرب له مثل الحجر وأن ابن آدم لا يشبعه إلا التراب.

وهى رحلة عمودية؛ لأن الطائر المذكور يطلب منه أن يرقى إلى أعلى القصر، والصعود فعل رمزى هو فى قصتنا عروج إلى السماء «فإذا سطح ممدود عليه صورة شاب قائم وعليه ثياب بيض رافعًا وجهه إلى السماء واضعًا يده على فيه».

ونتبين من رمزية المكان «الأعلى» ومن رمزية الألوان «البياض» ومن رمزية الهيئة أنه الملك الموكل بالصور، وهكذا يزور ذو القرنين «أرض الجن والملائكة» كما تفيد ذلك صراحة رواية وهب بن منبه.

أما الرواية الثانية:

فهى رواية وهب بن منبه والشخصية الأساسية فيها - كما قلنا - : الصعب ذو القرنين بن الحارس الرائش ذى مرائد ملك حمير المتجبر.

وتخلو هذه الأسطورة من علاقة بين ذى القرنين وملك يأتيه بأخبار السماء، ولكنها تبدأ بخمسة أحلام أسطورية هى بمثابة رحلات مجازية أو معراج أو ضرب من الكشف، واتصال بالغيب عبر الحلم؛ حسب ما كان شائعًا فى المجتمعات القديمة ورؤيتها للعالم بناء على أن أحلام الملوك والكهان وأمثالهم، أحلام وليست كأحلام سائر الناس.

ولقد أشرف البطل فى الأول منها: على جهنم، وفى الثانى: نصب له سلم يرقى عليه حتى بلغ السماء وعلق سيفه مسلطًا إلى الثريا فأخذ الشمس بيده اليمنى والقمر بيده اليسرى، وتبعته الدرارى والنجوم، ورأى فى الليلة الثالثة أنه يأكل الأرض جبلًا جبلًا، وأرضًا أرضًا، ويشرب البحار السبعة حتى وصل إلى محيط فيه طين وحماة فتوقف وأفاق من

نومه، فلما كانت الليلة الرابعة رأى كأن الإنس والجن أتوه من الأرض كلها حتى جلسوا بين يديه.

ثم أقبلت البهائم والأنعام من الأرض كلها حتى جلست بين يديه.

ثم أقبلت الوحوش من الأرض كلها حتى جلست بين يديه.

ثم أقبلت الطير كلها حتى أظلته.

وأقبلت الهوام من جميع الأرض كلها حتى حفت به.

ثم أقبلت الرياح حتى استدارت فوقه.

قال: فأرسل أممًا من الإنس والجن مع ريح الصبا إلى المغرب فهبت بهم إلى المغرب.

ثم أرسل أممًا من الإنس والجن أمر البهائم والأنعام فذهبت بها الرياح الأربع وجوهًا من الأرض فذهبت فى سبيل الإنس والجن.

ثم أمر الطير فذهبت بها الرياح فى الوجوه الأربعة.

ثم أمر الرياح فذهبت بالوحوش، وحبس سباعها تحت قدميه.

ثم أمر الرياح فذهبت الهوام فى سبيل من مضى من جميع من أرسل.

ويتميز هذا الحلم عن «الأحلام العادية» بما يتجلى فيه من خصائص الخطاب المنظم المتماسك المنسجم على عكس ما يتميز به الحلم عادة من تشوش واضطراب، وبأنه خاضع فى نظمه وبناء قوانينه إلى السنن الثقافية السائدة فى المجتمع؛ ولذلك فهو لا يحتاج إلى تأويل نفسى، وإنما على تأويل من نوع التكهن، فهو من نوع الأحلام الواضحة مثل حلم «يوسف، والبقرات السبع السمان ثم البقرات السبع العجاف» أى أنه حلم بلاغ نسيجه الرموز الطبيعية العادية يؤذن بقرب تحقق أمر خطير؛ ولذلك جمع الملك أهل التنجيم والكهانة والأحبار فلم يفسر أى منهم

شيئًا من رؤيا الملك وقال له شيخ: «ليس على الأرض من يفسر تأويل رؤياك إلا نبى ببيت المقدس من ولد إسحاق بن إبراهيم الخليل»، ولهذا القول كما للوجهة التى سلكها ذو القرنين مدلولها الرمزى.

* * *

سيزيف

تقول الأسطورة: إن الآلهة حكمت على سيزيف ملك كورنثة بتصعيد حجر إلى أعلى الجبل. لكنه لم يتمكن من بلوغ الهدف أبدًا، وكان الحجر الضخم يسقط منه دائمًا. وكان بالتالى يعيد الكرة إلى ما لا نهاية.

لم يتفق علماء الميثولوجيا فيما مضى على أسباب هذا العقاب.

قال البعض: إن سيزيف كان ملكًا طموحًا منافقًا خرب البلاد.

وقال البعض الآخر: إنه ارتكب عملًا محرمًا، ألا وهو الإفشاء بالأسرار الإلهية، وأيًا كانت جريمته، فإن الأسطورة تقول: إن زيوس أرسل إليه «ثاناتوس» إله الموت، لكن «سيزيف» نجح فى تقييده، فخلت إمبراطورية الموتى من سكانها تدريجيًا، إلى أن جاء يوم أجبر فيه زيوس سيزيف على الإفراج عن «تاناتوس»، ونقل «سيزيف» إلى الجحيم، لكنه توصل إلى الهرب منه، وعاش بعد ذلك سنينًا طويلة قبل أن يعاقب على جرائمه.

وفى الجحيم، كلفته الآلهة بعمل لا ينتهى، لكى لا يجد وقتًا للتفكير فى الهرب أو ارتكاب جرائم أخرى.

هو ابن «أيول»، الرب الآمر لجميع الرياح، وكان مؤسس مدينة «كورنثوس»، التى كانت تعرف فى الأزمنة الغابرة باسم إيفيرا.

لم يكن أحد فى اليونان القديمة يجارى سيزيف دهاء وحيلة ومكرًا؛ واستطاع «سيزيف» بفضل دهائه جمع ثروات لا تحصى فى كورنثوس، وطبقت شهرة كنوزه الآفاق.

وقد جاء ثاناتوس الكئيب إله الموت؛ لكى ينقله إلى مملكة هادس الحزينة، لكن سيزيف، الذى أحس مسبقًا باقتراب إله الموت تمكن من

خداع ثاناتوس، وتكبيله بالأغلال، وتوقف الناس عن الموت على الأرض، ولم تعد تقام الجنائز الفخمة، ولا تقدم القرابين لآلهة العالم السفلى، واختل على الأرض النظام، الذى سنه «زوس» وحينئذ أرسل «زوس» قاذف الصواعق إله الحرب الجبار«أريس» إلى سيزيف، وقد قام آريس بتحرير ثاناتوس من الأصفاد، فقام هذا الأخير بقبض روح سيزيف، وقادها إلى مملكة أشباح الموتى.

لكن سيزيف عاد فخدع الآلهة من جديد؛ فقد أمر زوجته: ألا تدفن جثمانه، وألا تقدم القرابين لآلهة العالم السفلى، وقد عملت زوجة سيزيف بنصيحة زوجها، انتظرها دس وبيرسفونه قرابين الدفن طويلًا، لكن دون جدوى، أخيرًا دنا سيزيف من عرش هادس وقال:

يا هادس العظيم، يا سيد أرواح الموتى، يا من تعادل «زيوس» جبروتًا، دعنى أذهب إلى الأرض النيرة، ولسوف آمر زوجتى أن تقدم لك القرابين الكثيرة، وبعدها أعود إلى مملكة الأشباح.

صدق هادس سيزيف، وتركه يذهب إلى الأرض. لكن سيزيف لم يعد إلى مملكة هادس، بل بقى فى قصره الفاخر يحيى المآدب المرحة، وهو سعيد؛ لأنه الوحيد من بين الفنانين، الذى تمكن من العودة من مملكة الأشباح المظلمة.

غضب «هادس»، ومن جديد أرسل «ثاناتوس» لقبض روح «سيزيف»، دخل «ثاناتوس» قصر أكثر الفنانين مكرًا ودهاء، فوجده خلف مائدة عامرة، قبض إله الموت - الذى يكرهه الآلهة والناس - روح سيزيف، التى طارت إلى الأبد إلى مملكة الأشباح.

إن عقاب سيزيف قاسٍ فى الحياة الآخرة؛ جزاء كل ما ارتكب على الأرض من مكر وخداع، لقد حكم على سيزيف بدحرجة صخرة هائلة

نحو قمة جبل عال شديد الانحدار.

إن سيزيف يعمل بكل ما لديه من قوة، ويتدفق العرق منه مثل حبات البرد؛ بسبب العمل القاسى، ها هو يقترب من القمة رويدًا رويدًا، وإذ يصبح قاب قوسين منها تفلت الصخرة من يديه، فتتدحرج بصخب نحو الأسفل، مثيرة سحب الغبار، ومن جديد يبدأ سيزيف عمله.

وهكذا يستمر سيزيف إلى الأبد فى دحرجة الصخرة، ولن يستطيع أبدًا بلوغ الهدف، قمة الجبل.

وهكذا ترى أن سيزيف هو البطل الأبوردى، إنه هذا البطل بحكم عواطفه وعذاباته. واستحق هذا العقاب البالغ الذى يندفع به كيانه كله لتحقيق لا شيء، استحقه؛ لأنه احتقر الآلهة وكره الموت وأحب الحياة بحماس، وهذا هو الثمن الذى كان عليه أن يدفعه لقاء ما تمتع به من مباهج الأرض، ولا تقول لنا رواياته المختلفة شيئا عن حياته فى العالم السفلى، وإنما تترك لنا الأساطير هذا الأمر لخيالنا؛ ينفث فيها الحياة.

ولا نرى فى هذه الأسطورة إلا الجهد الذى يبذله الجسم كله مندفعًا ليرفع الصخر الضخم، يدحرجه ويدفعه إلى أعلى مئات المرات من جديد.

ونستطيع أن نتخيل وجه صاحبه وقد زمت، وخده قد التصق بالحجر، والكتف ينفعل بالكتلة المتربة، والقدم يسنده، وهو يبدأ من جديد وذراعاه ممدودتان على آخرهما، وكفاه مبسوطتان قد كساهما الطين، واستند عليهما تماما، وفى نهاية النهاية لجهده الطويل، وقد استغرق فيه فى مكان وزمان لا سماء لهما ولا عمق، يصل بالحجر إلى القمة، وحينئذ يرقب «سيسفوس» الحجر ينزلق مندفعًا، فى لحظات، إلى العالم السفلى ليبدأ به من جديد إلى القمة، ويهبط سيسيفوس إلى السهل.

وهنا أعجب «بسيزيف» وهو عائد أثناء تلك الهدنة بين الدفع الأول والدفع الثانى.

لقد تحول وجهه إلى حجر من طول ما جهد مع الحجر، وأتخيل هذا الإنسان نازلا بخطوات متثاقلة لكن ثابتة إلى العذاب الذى لا يعرف له نهاية. تلك الساعة، كالوقت الذى يستغرقه التنفس، والتى تعود دائما كما تعود إليه عذاباته، هذه هى ساعة الوعى. وفى كل لحظة من تلك اللحظات، عندما يترك المرتفعات وينحدر تدريجيا إلى عرائن الآلهة، أجده أسمى من قدره، أقوى من صخرته.

و إذا كانت هذه الأسطورة مأساوية؛ فذلك لأن صاحبها واع.

ومن أين يمكن أن يتأتى العذاب فى وجوده إذا كان لديه أمل فى النجاح مع كل خطوة يخطوها؟ إن عامل اليوم يعمل كل يوم فى حياته فى نفس الأعمال، وهذا القدر الذى لعامل اليوم ليس أقل. لكنه مأساوى فقط فى اللحظات النادرة التى يصبح فيها واعيا. إن سيسيفوس بروليتارى الآلهة، الذى لا قوة له، والمتمرد، يعرف مدى حالته البائسة كلها، إنها ما يظنه خلال هبوطه. إن عذاباته واضحة جلية، وانتصاره واضح كذلك، ولا قدر هناك لا يمكن أن يتجاوزه الاحتقار.

* * *

أورفيوس

بطل أسطورى من الشخصيات الخارقة فى الأساطير اليونانية. ويعده الإغريق أشهر شاعر قبل «هوميروس» وإليه تنسب «الأورفية»، وهو ابن إحدى ربات الشعر «كاليوبى» كما تجمع على ذلك المصادر، وأبوه هو «أوياجروس» أحد آلهة الأنهار فى تراقيا.

«وأورفيوس» لسان الطبيعة، ونجى الآلهة، ووحى إلى الأرض، وصاحب القيثارة ذات الرنين والأنين.

كان يعزف، فتشيع الحياة فى الصخر، ويقف أبوللو العظيم فى مركبته الذهبية مطلا برأسه من عليين، يسمع ويطرب؛ وكذلك كانت تصنع ديانا، فطالما كانت تنزل من مركبتها الفضية فى أعلى أجواز السماء، لتلبث هنيهة بباب «أرفيوس»، تتزود لرحلتها الليلية المرهقة، من مشرق الدنيا إلى مغربها.

ولقد عاش «أورفيوس» فى «تراقيا» ورافق بحارة سفينة الأرجو فى رحلاتهم.

وتذهب الأسطورة إلى أن الوحوش المفترسة والأشجار والصور فوق جبل الأوليمب كانت تطرب لغنائه، وتتبعه منتشية بسحر صوته وجمال عزفه على الهارب، ويقال: إنه تزوج «يورود يكى» إثر عودته من حملة للأرجونوت، وعاش معها فى «تراقيا».

ولكن الأقدار تنكرت له، ولم يتمتع بالحياة السعيدة طويلا مع زوجته، فبعد العرس بفترة قصيرة، وبينما كنت «يوريدس» تجمع الأزهار الربيعية مع صديقاتها الحوريات الشابات فى وادٍ أخضر، داست على أفعى دون أن تراها، فلدغت الأفعى زوجة «أورفيوس» الشابة فى قدمها، أطلقت «بوريس» صرخة قوية، ووقعت على أيدى صديقاتها اللواتى

هرعن لنجدتها.

شحب وجه «يوريدس»، وأغمضت عينيها، وقضى سم الأفعى على حياتها، ولا تسل عن خوف صديقات «يورديس». ورحن يندبنها، فيتردد بكاؤهن عاليًا، إلى أن تناهى إلى سمع أورفيوس، فانطلق إلى الوادى على عجل، وهناك رأى جثة زوجته الحبيبة، فكاد قلبه ينفطر من شدة الحزن، ولم يستطع تحمل هذه الخسارة الفادحة.

أمضى أورفيوس فترة طويلة يندب «يوريدس»، وقد شاركته الطبيعة كلها بكاءه، وهى تسمع غناءه الحزين لوفاة زوجته، وهبط إلى هاديس «العالم السفلى» ليبحث عنها.

ويقال: إنه استطاع بسحر موسيقاه أن ينسى المعذبين فى «هاديس» آلامهم. وتوسل أورفيوس إلى «بلوتو وبرسسفونى» أن يسمحا لزوجته «يوروديكى» بالعودة معه إلى العالم العلوى فاستجابا له بشرط ألا ينظر خلفه إلى زوجته أثناء عودتهما، إلا بعد أن يبلغا هدفهما ولكنه فى غمرة لهفته الشديدة لرؤية «يوروديكى» تطلع خلفه فى آخر لحظة ليستوثق أنها تتبعه، وما كاد يفعل حتى رآها تجذب إلى الوراء وتختفى عن ناظريه إلى الأبد.

لكن أورفيوس ظل على عهده فى إخلاصه لها، ولم يرغب فى الزواج من أية امرأة تراقية.

وفى ذات مرة، مع بداية الربيع، حين ظهرت على الأشجار تباشير الخضرة، كان المغنى العظيم جالسا على تلة عالية، وكانت قيثارته الذهبية عند قدميه، رفعها المغنى، وداعب أوتارها بحنان، ثم أطلق عقيرته، فسحر الطبيعة كلها بغنائه الشجى. كان غناؤه يمور بالقوة، والتى فتنت الوحوش الكاسرة، فتزاحمت من حوله بعد أن تدفقت من كل

الأحراش والجبال المجاورة، كما جاءت الطيور لتستمع إلى المغنى. حتى الأشجار تحركت من أماكنها وأحاطت بأورفيوس، فالبلوط، والحور، والسرو الممشوق، والدلب ذات الأوراق العريضة، وأشجار الصنوبر، والشوح، كلها تجمهرت من حول أورفيس، وراحت تصغى إليه، ولم يكن يهتز عليها أى غصن، ولا ورقة.

وفجأة ترددت فى البعيد صيحات قوية ورنين الصنوج والضحكات. إنهن «الباخانت» يحيين عيد «باخ» المرح والصاخب. وما إن اقتربن ورأين «أرفيوس» حتى صاحت إحداهن بصوت قوى:

- ها هو ذا كاره النساء.

لوحت إحدى الباخانت بالعصا، ورمت أورفيوس بها، لكن اللبلاب الملتف حول العصا، أنقذ المغنى، فرمته امرأة أخرى بحجر، لكن الحجر سقط مفتونًا بالغناء عند قدمى أورفيوس، لكأنه يطلب منه الصفح، وشيئا فشيئا راحت تقوى صيحات «الباخانت» من حول المغنى، ويقوى إيقاع آلات «الفليت» وقرع «الصنوج».

طغى ضجيج الاحتفال على غناء أورفيوس، وأحاطت الباخانت بأورفيوس كأنهن سرب الطيور الجارحة. وكما حبات البرد راحت تتساقط عليه العصى والأحجار، وعبثا راح أورفيوس يطلب الرحمة، فلم تصغ «الباخانت» المجنونات له؛ لصوته، الذى كان يطيعه الشجر والحجر، سقط «أورفيوس» على الأرض مضرجا بدمه، وطارت روحه، أما «الباخانت» فقد مزقن جثته بأيديهن الملطخة بالدم. وألقين برأسه وقيثارته فى مياه نهر هيروس السريعة. وكانت المعجزة، فأوتار القيثارة، التى حملتها أمواج النهر، راحت تعزف بصوت ضعيف لكأنها تندب المغنى الراحل، فترد عليها الضفة بحزن وأسى. الطبيعة كلها كانت تبكى أورفيوس، بكت الأشجار والأزهار، والوحوش، والطيور، حتى

الصخور الصم بكت، وازدادت الأنهار غزارة بسبب ما ذرفت من دموع؛ وتعبيرا عن الحزن حلت الحوريات والدائيد شعورهن، وارتدين الثياب الداكنة.

حمل هيروس رأس أورفيوس وقيثارته بعيدًا، نحو البحر الواسع، أما أمواج البحر فحملت القيثارة إلى ضفاف لسبوس.

* * *

جلجامش

ملك «أور» الأسطورى وبطل الملحمة المشهورة باسمه. وقصته مبنية على أساطير عاشت فى سومر لمدة قرون. وقد عثر على النص الكامل للملحمة فى مكتبة آشور «بانيبال» فى «نينوى» ويعود الرقم إلى القرن السابع قبل الميلاد، أى: بعد ألف عام من نشوء الأسطورة.

تعد ملحمة «جلجامش» أشهر الملاحم البابلية، وتتألف - فى أصلها - من طائفة من القصص غير الوثيقة الاتصال، ضم بعضها إلى بعض فى عهود مختلفة ترجع إلى ما قبل «المسيح» بثلاثة آلاف عام.

وكان «جلجامش» - بطل هذه القصة - حاكما أسطوريا يشبه شمشون. واستطاع الاطلاع عل جميع أسرار الكون وجاء بأخبار الأيام التى سبقت الطوفان، وسار فى طريق بعيد شاق، ثم كتب على لوح حجرى كل ما قام به من أعمال، كانت هى أصل هذه الأسطورة.

تروى الملحمة أن جلجامش ولد نتيجة اتحاد آلهة مع بشر، ومن الممكن أن يكون ثمرة علاقة بين راهبة عليا من راهبات المعبد الحاكم خلال أعياد رأس السنة، وقيل: إن «جلجامش» كان ثلثاه منه إلها وثلثه بشرا فانيا.

وتروى الأسطورة فى البقايا الطينية السومرية: أن شبح الموت كان يطارد «جلجامش»، كما تروى تلك البقايا مغامراته للحصول على الخلود وتقول إحدى وجهات النظر: إن الملحمة تتعلق بمراسم الدفن؛ لأنها وجدت فى غرفة الموتى فى «أور»، أما الملحمة «الأكادية» فتصور «جلجامش» كطاغية سقط نتيجة مغامراته الجنسية.

وقد توسل السكان للآلهة لمساعدتهم والتخلص من الطاغية، فقامت الآلهة الأم «أورورو» بصنع كائن بشرى متوحش من الطين، وكان كث

الشعر ويأكل العشب اسمه «أنكيدو» وعندما سمع جلجامش بالنبأ، أمر عاهرة من عاهرات المعبد أن تذهب لإغوائه، إذ إن أنكيدو لم يعرف الملذات الجنسية، وعلمت العاهرة «أنكيدو» معنى المدنية؛ إذ كان متوحشا، ثم أثارت طموحاته؛ ليعمل على إسقاط جلجامش، ولكن المعركة انتهت بدحر أنكيدو، وبدأت صداقة لمدى الحياة بين الاثنين.

وبدأ الاثنان مغامراتهما إذ غزوا معا غابة الأرز التى يسكنها «حواو، وخمبابا» ويخرج النار من أنفه، وقد أردياه قتيلا بمساعدة رياح عاتية أرسلها لهم إله الشمس شمس، وقد غازلت الآلهة «عشتار» جلجامش ولكنه رفضها؛ لأنها كانت متقلبة المزاج مما أغضبها، وأسرت الإله «آنو» أن يرسل ثورا من السماء ليعيث فى الأرض فسادا مما أدى لخسائر كبيرة، وتمكن البطلان «جلجامش، وأنكيدو» من قتله مما أثار غضبها الشديد ودعت الآلهة «أنليل» لقتل «أنكيدو» و«جلجامش» لغرورهما وأدى قتل صديقه إلى حزنه الشديد؛ إذ عرف معنى الفناء والموت.

وبدأ يهيم على وجهه فى البرارى والهضاب لإيجاد طريقة للخلاص، وأخيرا قرر اللجوء إلى جده الأكبر «أوتانابشتم» الذى أصبح خالدا، ويسكن على أطراف البحار التى تحيط بالعالم وحاولت الغانية «سيدورى» إغواءه ليشرب الخمر، وكانت تمثل إحدى صور عشتار، ولكن جلجامش رفض ذلك، كما أنه لم يدفن أنكيدو وبكاه لمدة سبعة أيام وليالٍ حتى خرجت دودة من أنف «أنكيدو»؛ لأن الآلهة جعلت مصير البشر الموت، وأبقت الخلود لها، وهذا ما قالته «سيدورى» لجلجامش.

ولكن جلجامش البطل أصر أن يعرف من هذه السيدة السماوية مكان سكن «أوتانا بشتم» وزوجته فى مكان سكناهما الأبدى، وعلم من «سيد ورى» أنه يسكن خلف مياه الموت وسافر إلى هناك بمساعدة الملاح «أوسانبى» بعد أن بنى قاربا وعبر المياه السامة، ووصل فى نهاية المكان

إلى مصب الأنهار، وهو المكان الذى خصصته الآلهة «لأوتانا بشتم» الذى عاش وزوجته بعد أن منحتهما الآلهة الخلود بعد الطوفان الذى حول البشر إلى طين.

وكان بحث «جلجامش» بلا أمل؛ إذ غالبه النعاس وكان أمله الوحيد فى الخلود الحصول على نبات سحرى يعطيه شبابا أبديا، وينمو فى قاع البحار وبعد مغامرات عديدة تمكن «جلجامش» من الحصول على النبات وبدأ فى طريق العودة إلى «أور»، ولكن فى طريق عودته غالبه النعاس قرب حفرة ماء، وشمت أفعى الرائحة الزكية لنبات فسرقته وابتلعته، وفجأة حصلت الأفعى على قوة خلع جلدها.

وأفاق جلجامش ليعرف أن مصيره سيكون الموت وبكى بحرقة.

أما النص الآخر فيقول: إن جلجامش ساعد إينانا فى قطع شجرة تحرسها أفعى والريح ونسر، وقام مع «إينانا» بصنع طبل وعصا ولكن الطبل سقط صدفة من جلجامش إلى العالم السفلى، وحاول أنكيدو أن يعيد الطبل والعصا ونسى التعليمات لحماية نفسه فى العالم السفلى وبقى هناك إلى الأبد، ولكن الإله «أيا» فتح له ثقبا وتمكَّنَ أنكيدو من الخروج كالريح والعاصفة الترابية، ووصف ذلك العالم بأنه المكان الذى يصبح فيه الأمراء خدما، ولا تفيد الألقاب الدنيوية ولا تحمى الألقاب أحدا.

حداد: ومعناه: المحطم وهو إله أرامى وسماه السوريون حدادًا وهو رديف «بعل - حداد» الذى يهز الأرض والجبال ويسقط الأشجار، وحمل حكام دمشق فى الأيام التوراتية اسم «بار - حداد» وأولاد حداد. وفى إصحاح زكريا ذكر أن حداداً كان إلهاً للخصب مثل «بعل» وهناك ذكر للمآتم التى تجرى حول موته.

* * *

أساطير متولدة

* أوديب
* ألكترا
* أوريستيس
* أفيجينيا

أوديب

ومعناها حرفيا: «القدم المتورمة»، وتذهب الأسطورة اليونانية إلى أن أوديب هو ملك طيبة الذى توصل إلى حل لغز أبى الهول، وقتل أباه وتزوج من أمه، وهو أحد حكام طيبة الذين قدر عليهم أن تكون حياتهم مأساة؛ بسبب لعنة «بيلوبس».

وأوديب: هو ابن لايوس ملك طيبة وجوكاستا «أبيكاستا فى رواية هوميروس».

وتذهب بعض الروايات إلى أن العرافين أنذروا لايوس بأنه سيلقى مصرعه على يد ابنه وتذهب رواية أخرى إلى أن «بيلوبس» دعا على «لايوس» إما أن يكون عقيما وإما أن يرزق بولد يقتله.

وشاءت الأقدار أن ينجب لايوس ولدا فأمر بأن يطرح الطفل فى العراء بعد أن يدق فى قدمه مسمار حتى يعوقه عن الزحف، أو ليمنع شبحه من العودة وإزعاجه. (١)

وعثر على الطفل أحد رعاة الملك «يوليبوس» ملك «كورنته» وحمله إلى الملكة «بيريبوا» أو «ميروب» أو «ميدورا» فاحتضنته، وربته، واتخذته هى والملك يوليبوس ابنا لهما، وأطلقا عليه اسم «أوديب»؛ بسبب إصابة قدمه.

ولما بلغ أوديب مبلغ الرجال أثار بأعماله المجيدة المتفوقة رفقاءه، فما كان منهم إلا أن لمزوه بما يتردد من شكوك حول مولده، وعجز «أوديب» عن الحصول على جواب شاف من الملكة ميروب فانطلق إلى دلفى لعله يعرف من أبوللو حقيقة أبويه. وبلغته النبوءة أنه سوف يقتل أباه ويتزوج من أمه، فقرر ألا يعود إلى كرنثه؛ إذ كان يعتقد أن والديه هما الملك «بوليبوس» والملكة «بيريبوا» واتجه نحو «طيبة» وفى طريقه إليها

التقى بأبيه الملك «لايوس» فى ممر ضيق وتنازعا على المرور واشتبكا فى معركة انتهت بمقتل «لايوس». وهكذا تحقق الجزء الأول من النبوءة.

وفى طيبة وجد الناس يتحدثون عن وحش خرافى يقطع الطريق على المارة ويقول مراب: إن هذا الوحش من نوع «التنين» فقرر أوديب أن يقتل هذا الوحش؛ ليخلص الناس من شره. وكان هذا الوحش يبادر كل من يمر به بالسؤال التالى:

- ما الشىء الذى يمشى على أربع فى الصباح وعلى اثنتين فى الظهيرة وثلاث فى المساء.

وكان الوحش يلتهم كل من يعجز عن التوصل إلى حل هذا اللغز.

ومهما يكن من أمر فإن التنين عندما طرح اللغز على أوديب أجاب هذا بقوله: «إنه الإنسان، فهو يحبو على أربع فى طفولته ويسير على اثنتين فى فتوته ويتوكأ على عصا عندما تتقدم به السن».

وأسقط فى يد الوحش فهجم عليه أوديب وصرعه، ويقال: إن الوحش قتل نفسه عندما سمع الإجابة الصحيحة من أوديب.

ودخل أوديب طيبة، فاستقبله أهلها بحفاوة بالغة، وعرضوا عليه أن يتوجوه بعد وفاة مليكهم. وتزوج أوديب من «جوكاستا» دون أن يدرى أنها أمه، وهكذا تحقق الجزء الثانى من النبوءة.

وعاش «أوديب» و«جوكاستا» معًا بضع سنوات، ولكن الآلهة سرعان ما كشفت للناس عن حقيقة ما بينهما من علاقة. وتذهب الأسطورة إلى أن العرافين أعلنوا أن ما ارتكبه أوديب وجوكاستا من إثم فظيع هو السبب فى المجاعة التى تعرضت لها البلاد، وعندما عرفت جوكاستا بالحقيقة المرة انتحرت بشنق نفسها وسمل أوديب عينيه بنفسه. ويقال: إن خدم لايوس هم الذين سملوا عينيه وخلعوه عن عرش طيبة.

وقد حدث انتحار جوكارستا وخلع أوديب من العرش على التعاقب فى بعض الروايات. وتذهب روايات أخرى إلى وجود فاصل زمنى بين الحادثين.

وقد أنجب أوديب أربعة أبناء، هم: (أينوكلس، وبولينيس، وأنتيجون، وإيسمين) من «جوكاستا»، أو من زوجة أخرى هى «يوريجانيا» أو «إستيميدوزا». ويضع الكتاب الأثينيون نهاية معقدة للقصة فى «أتكيا».

ويقال: إن أوديب أخذ يجوب البلاد، بعد أن كف بصره، حتى وصل إلى غيضة يوميندس فى كولونوس ثم اختفى من الوجود.

وتذهب بعض الروايات إلى أنه قتل فى إحدى المعارك، ولعله كان يدافع عن أهل طيبة ضد المغيرين، ولم يدفن جسده فى طيبة، وورى فى مكان آخر، ثم أخرجت الجثة من القبر عندما توالت المصائب على الناس الذين يعيشون بجوار القبر.

وأخيرًا أمرت الآلهة «ديميتر» الناس فى «أبيينوس» ألا يزيلوا جثمان رجل يتضرع إلى الآلهة»، وأطلق على دفن الجثمان اسم «أوديببون». واشتهر هذا الحادث فى العالم القديم.

ولقد عرف هوميروس قصة أوديب، وربما تكون نسيجا مؤلفا من محاور رئيسية لحكايات شعبية نسبت إلى أحد ملوك طيبة، أو من مجموعة حكايات شعبية منتحلة اعتقد الإغريق أن لها سندا من التاريخ.

ومن قبيل القصص المشابهة لقصة أوديب ما يوجد عند أهل «فنلندة وهنغاريا ورومانيا وليتوانيا وأوكرانيا»، وفى أماكن أخرى من العالم مثل «جاوه» إذ يتردد فى هذه الحكايات سفاح القربى وقتل الأب.

ويمكن عقد مقارنة بين قصة «أوديب، وأبى الهول» من ناحية وبين

قصة «فاراروتشى وراكشازا» من ناحية أخرى فقد وجه الشيطان إلى «فاراروتشى» السؤال التالى:

- من هى أجمل امرأة فى المدينة؟

فأجاب فراروتشى؛ لينجو بحياته:

أية امرأة تعد جميلة فى نظر الرجل الذى يعجب بها؛ وبهذا استطاع أن يكسب صداقة الوحش «راكشازا».

* * *

ألكترا

الكترا: ابنة الإله «أوقيانوس» وشقيقة «ستيكس»، وهو نهر العالم السفلى: وكانت ألكترا زوجة تاوماس الابن المهول للأرض «جايا».

وقد أنجبت من ثاوماس قوس قزح المعروف اسم «إيزيس والهاربيس» التى اتخذت هيئة أنثى طائر متوحش تخطف الطعام وتفسده.

وهى ابنة أطلس، وواحدة من «البلايادیس»، وقد أنجبت «داردانوس» من «زيوس»، وهو جد الأسرة «الطروادية».

وتذهب بعض الروايات إلى أنها أم «الكابيرى» الذى كان يحمى الملاحين. كما تذهب روايات أخرى إلى أنها أم «بيازبون» عشيق الإلهة «ديميتر».

ويروى أن الكترا حزنت حزنا شديدا على تدمير طروادة ففقدت نجمة الثريا - التى تمثل لها - لألاءها، ويقال: إنها تحولت إلى مذنب يمثل ذيله شعرها المسترسل.

كما أنها ابنة «أجا ممنون» و«كليتمنسترا» وقد استطاعت أن تنقذ حياة أخيها «أوريست» بأن أبعدته عندما لقى أبوهما مصرعه، حتى إذا شب وعاد أدراجه عاونته أخته «الكترا» على أن يثأر لمصرع أبيهما بقتل أمهما وعشيقها، وتزوجت «الكترا» بعد ذلك من «بيلاديس» صديق أخيها «أوريست».

ولقد تناول «سوفوكليس، وإسخيلوس، ويوربيدس» هذا الموضوع فى تراجيدياتهم التى تتفاوت فيما بينهم من حيث التفاصيل فحسب.

* * *

أوريستيس

فى الأساطير اليونانية ابن «أجاممنون وكليتمنيسترا» ويذهب هوميروس إلى أن أوريستيس كان غائبا عن «مسمينا» عندما عاد أبوه من «طروادة» ليلقى حتفه على يد «إيجستوس» عشيق زوجته «كليتمنيسترا».

ولقد أرسلته أخته سرًا إلى «ستروليوس» ملك «فوكيس»وزوج «أناكسيبيا» شقيقة أجاممنون، وهناك قامت صداقة قوية بين أوريستيس وبين بيلاديس ابن الملك ستروفيوس، وعندما شب أوريستيس عن الطوق ذهب سرا مع صديقه إلى أرجوس، وهناك قتل أمه كليتمنيسترا، وعشيقها إيجستوس. ويعد مسلك أوريستيس فى الأخذ بالثأر على هذا النحو مثاليا؛ كما يقضى بذلك القانون الأخلاقى فى مصر البطولة.

وهناك رواية أخرى تذهب إلى أن أوريستيس كان لا يزال طفلا عندما قتل أبوه أجاممنون، وأن مربيته هى التى أنقذته بتهريبه سرا إلى موضع آخر بعيد عن بطش أمه وعشيقها، ورأت كليتمنيسترا فى منامها أنها ستلقى جزاءها وشيكا

وسرعان ما عاد أوريستيس ليأخذ بثأر أبيه منها ومن عشيقها. وأصيب أوريستيس بالجنون، وهام على وجهه لا يلوى على شىء تطارده ربات الانتقام «النيورى».

ويصور أوريستيس فى ثلاثية الشاعر اليونانى إيسخيلوس على أنه إنما فعل ما فعل تلبية لأوامر أبوللو وأنه بدا فى زى رجل غريب عن الديار يذيع أنباء موته. وغلبه الندم على أمره عندما واجه أمه، ولما قتلها التمس النجاة من ربات الانتقام فلاذ بدلفى، وحثه أبوللو على أن يذهب إلى أثينا ويعرض قضيته على محكمة الأريوباجوس. وانقسم القضاة إلى فريقين متساويين وما كان من الربة أثينا إلا أن انضمت إلى المنادين ببراءته،

وحكم على ربات الانتقام بتهدئة سورة غضبهن، وتحولن إلى ربات للشفقة والرحمة «يومينيديس».

ويصور الشاعر اليونانى يوربيدس بعض ربات الانتقام غاضبات لا تهدأ لهن سورة فينصح أبولو، أوريستيس، بأن يذهب إلى تاوريس لإحضار تمثال أرتيسيس من معبدها فى خير سونيسى بتاوريس فصدع أوريستيس بأمر أبوللو، وذهب إلى المكان مع صديقه بيلوديس، وما كادا يبلغان هدفهما حتى قبض عليهما؛ ذلك لأن العرف قد جرى هناك بأن يقدم الغرباء قربانا إلى الربة أرتيميس. بيد أن الكاهنة الموكلة بالقربان كانت أفيجنيا أخت أوريستيس. وعرف كل منهما الآخر وفر الثلاثة معا، وعادوا بالتمثال المنشود.

وورث أوريستيس مملكة أبيه مسينا، وأضاف إلى رقعتها أرجوس.

* * *

أفيجينيا

ابنة أجاممنون وكليتمنترا فى الأساطير اليونانية، ويذهب البعض إلى أنها صورة من أرتيميس؛ لأن اسمها يعنى: القوية منذ مولدها.

وتروى الأسطورة أن أجاممنون قد أحنق الآلهة أرتيميس؛ عندما قتل وعلًا مقدسا لها، وافتخر مع ذلك بأن أرتيميس نفسها لم تكن تستطيع أن تفعل خيرا مما فعل.

وفى رواية أخرى أنه أحنق الإلهة أرتيميس؛ لأنه حنث بوعده أن يقدم لها قربانا، فما كان من أرتيميس؛ إلا أن أمرت الريح بأن تسكن لتحول بين الأسطول اليونانى، وبين الإبحار إلى طروادة. وأعلن العراف الخاص أن الريح لن تعود إلا إذا ضحى بأفيجينيا. واستدعيت الفتاة بحجة أنها ستزف إلى أخيل. وما كادت أن تتقدم للمذبح حتى افتدتها أرتيميس بغزالة، أو دبة، أو امرأة عجوز، على تفاوت بين الروايات فى ذلك.

وحملت أرتيميس الفتاة أفيجينيا على سحابة إلى تاوريس حيث أصبحت كاهنة لها. وكان من واجباتها هناك أن تشترك فى التضحية بالغرباء عن المدينة للآلهة أرتيميس. واتفق أن جاء أوريت إلى مدينة تاوريس؛ لينقل تمثال أرتميس منها إلى أتيكا، فتعرفت عليه أخته أفيجينيا وفرا معا.

وفى دلفى التقت ألكترا بأختها أفيجينيا، وأوشكت أن تنتقم منها لما سمعته عن مقتل أخيها، بيد أن أوربت وصل فى اللحظة المناسبة والتقى الجميع. ووضع تمثال أرتيميس المسروق فى معبدها بمدينة برورون حيث أصبحت أفيجينيا كاهنة لها هناك وماتت بعد ذلك بسنوات. وكانت تقدم إليها الملابس، وبخاصة إذا كانت لن تموت فى أثناء المخاض.

وهناك روايات مختلفة عن الأحداث الخاصة بأفيجينيا فى الأسطورة،

ولا سيما ما يتعلق منها بالطقوس المرتبة بعبادة أرتيميس.

ففى برورون بالقرب من مدينة ماراتون فى أتيكا اعتقد الناس أنها ابنة البطل القومى ليسيوس. وثمة رواية تذهب إلى أن أفيجينيا لم تمت ولكنها وهبت الخلود، وتزوجت من أخيل.

* * *

أساطير الحب والجمال

* أفروديت ربة الحب والجمال
* سبيليا الجميلة وميناس
* إيزيس وأوزوريس
* بيرام وتسيبيه
* كيوبيد وابنة الملك
* ديانا رمز الكمال الجسدى
* هيلانة الفاتنة والأمير
* عيد العشاق

أفروديت ربة الحب والجمال

ربة الحب والجمال والإخصاب، مثال الفتنة والسحر فى المرأة: وتعد - أحيانا - حامية البحارة وراعية المحاربين فى إسبرطة بنوع خاص، ويبدو أنها كانت فى الأصل معبودة شرقية تماثل عشتار، أما فى بلاد اليونان فقد لقبت أفروديت أورانيا، وأصبحت ترادف آلهة السماء «عشتروت» عند الساميين، والآلهة أناهيتا عند الفرس.

والراجح أنها انتقلت إلى اليونان من قبرص، ملتقى الشرق بالغرب، وأنها استوعبت بعض ملامح آلهة ما قبل الهلينية.

أما فى روما القديمة فقد كانت أفروديت ترادف «فينوس» ربة الحب والجمال. وروت الإلياذة أن أفروديت ابنة زيوس وديونه، وصورت لأول مرة فى النشيد الرابع عشر من الإلياذة على أنها الإلهة التى «تقهر جميع الرجال وجميع الآلهة بالشهوة».

ومن صفاتها: دلال الغيداء، وسحر الفتاة، ومكر الأنثى، إلى جانب ما تشيعه من البهجة والحب والوداعة.

ويمتد سلطان أفروديت حتى يشمل جميع الأحياء، وكانت مثلا أعلى للشباب والجمال والحب.

وليس لأفروديت - الربة الرقيقة - أن تشارك فى صراع الحروب فسلطانها يسرى على قلوب الآلهة والبشر الفانين. وهى تبسط سيادتها على الكون بفضل قدرتها هذه، فليس لأحد - حتى من الآلهة - ملاذ مما تشاؤه، ماخلا «أثينا وهيستيا وأرتيميا فهن الوحيدات اللاتى لا يخضعن لإرادتها.

وأفروديت - بقامتها الهيفاء، وجسدها المتناسق، وتقاطيع وجهها الرقيقة، وبموجة الشعر الذهبى الناعم المعقود كالإكليل فوق رأسها

الجميل - مثال للجمال القدسى وللشباب الخالد النضر وتزداد الشمس إشراقا، والزهور تفتحا عندما تسير هذه الربة الرائعة بجمالها وبثيابها اللألاءة.

وعندما تتجول فى الغابة تفر إليها الضوارى من الأوكار، وتطير إليها أسراب الطيور وتتململ الأسود والفهود والنمور والدببة عند قدميها، فهى تسير بين وحوش البرية عزيزة بجمالها الفاتن، تخدمها مرافقاتها الأورات والهاربات - ربات الجمال والتناسق. إنهن يلبسنها جميل الثياب، ويسرحن شعرها الذهبى، ويتوجن رأسها بالإكليل البراق.

وتعرف «أفروديت» عند الرومان باسم فينوس، ربة العشق والجمال والسحر الفتان. صورها الفنانون الإغريق بقد ممشوق، وجمال خلاب، وجسد يتفجر أنوثة.

كانت أفروديت تعنى بأمور النساء من عواطف وعلاقات عاطفية، ولها كانت قلوب العشاق تتوجه دائما بالدعاء.

ومن دراسة آثار الإغريق فى مصر يظهر أن هذه الربة كانت من أشهر الربات فى العصور الأخيرة؛ لكثرة تماثيلها وصورها. وقد ارتبط ظهور الربة - فى كثير من الأحيان، بابنها الطفل «إيروتين»، والذى عرفه الرومان باسم كيوبيد حيث كان يرمى القلوب بسهام الحب، وكانت أفروديت تبدو دائما وهى تمسك بالتفاحة، أو ترتدى قلادتها الشهيرة حول عنقها. وأحيانا كانت تحتضن اليمامة طائرها المفضل.

وتقول الأسطورة: إنه فى الصباح الباكر، من يوم ليس كمثله يوم فى وضاءة شمسه وحلاوة أنسه، فى الغرة من أيام الربيع، فى أروع شبابه وأجدى أهابه، وقد هبت أنفاس الربيع الحارة العطرة المنعشة على البر والبحر، جعلت الأمواج تفور فورانا شديدا عجيب الشأن، بالقرب من

جزيرة «أقريطش» بين الأقاليم الثلاثة: آسيا وأفريقيا وأوربا، فى العالم القديم. وجعلت كل موجة فى سائر أرجاء البحر المتوسط تعج وتضج، وتنزو وتتوثب بحافر. لا عهد لها به من نزوع الشوق وجنون الحب.

إن الكون يتمخض الساعة عن آية، يالها من آية!

هى بضعة من جسم «أوراتوس» رمز السماء، فى أساطير الإغريق القدماء، حبها ناقم عليه من أبنائه فهوت فى الماء، فلقحت منها - على حد قولهم - الدماء ودار الفلك دورته، ولم يزل البحر بهذه البضعة الدامية تصفقها لجته، حتى استكمل الحمل السماوى فى اللجة المصطفقة مدته.

وهذا هو البحر - فى بكرة ذلك اليوم الأغر المأثور من أيام الدهر - يجيش بالقرب من أرض يونان، بالغا من الجيشان أشده، وقد تعالى على موجه المصطفق زبده. وقبل أن يعلو النهار ويستوفى على البحر شروقه، تجلت من معجزات الخلق فى أول الخليقة هذه المعجزة الفائقة المرموقة، فانشقت اللجة المصطفقة الراغبة، عن حسناء معبودة الحسن عارية، كأنها - من بياض الجسد - صيغت من ذلك الزبد.

تجلت على لجج الماء هذه المعبودة الحسناء، آية التناسق والروعة والرواء ممشوقة القد، معتدلة الشطاط، لطيفة التكوين، مبتلة الأعطاف، كاعب النهدين، محطوطة المتنين، مستديرة الردفين، أملود الساقين، غضة الشباب بضة الإهاب، رفافة البشرة، بديعة الملامح والقسمات، إلى آخر ما لا يسبق إليه وهم، ولا يعلق به خيال، ولا يخطر وجوده على بال، من المحاسن التى لا يحصرها عد، ولا تنتهى عند حد.

ولا بدع أن تكون هذه المولودة الخالدة الأخيرة فى صورة الخلق وجهارة الحسن على هذا الكمال؛ فإنها طلعت حين طلعت لتكون قالب

الجمال، ومثاله الأعلى الذى صيغ على غير مثال.

وكانت أفروديت «وليدة الزبد». وهو الاسم الذى عرفت به ربة الجمال فى صورة ذلك الجسد المستغرق لصفات الكمال - عارية متجردة، حين طلعت من تلك اللجة المزبدة. أجل، عارية متجردة الوليد ساعة ولاده، وقد تلألأت محاسر جسدها كاللؤلؤة اليتيمة العظيمة عريت من صدفها، حاشا تلك الذوائب الفينانة من شعرها الطويل الذهبى، المسترسل على ظهرها المرمى، ضاربا إلى حقويها، ولو أنها شاءت التستر لسترها بغير عناء، ولكن أعفاها أن فضيلة الخفر والحياء لم تكن فى تلك الأزمنة الأولى معروفة عند الأحياء.

ولم يشهد مطلع أفروديت ربة الجمال، وهى على تلك الحال متجردة الجسد عارية الأوصال فيما عدا أبويها الأزليين السماء والماء، إلا ثالث لا يخلو منه فضاء، هو الهواء، هو ذلك الهواء الذى لا يزال خافق الأحشاء، دائم الأنين، منذ ذلك الحين إلى أبد الآبدين وما كاد الهواء يراها، حتى ضمها واحتواها، وقد هاج هائجه وجن جنونه لفرط ما بلغ منه هواها. وجعل الهواء الولهان يعنف السواحل مندفعا إلى الأشجار المتفتحة النوار، يهز الفروع ويهتصر الأغصان منتزعا أكاليل من ورقها العاطر وزهرها الأبيض الباهر يحملها مسافات من البر إلى حيث أفروديت عروس البر، فيرتمى متنهدا عند قدميها، وينثر أزاهير العرس الناصعة حواليها، حتى سارت الأمواج فى تلك الناحية، أشبه بقطع الرياض الحالية.

ولم يزل الهواء - من فرط الهوى - تتوجه إلى أفروديت زفراته، وتتتابع تنهداته، فإذا صدفة لؤلؤية عظيمة بيضاء تنساق إلى تحت قدميها الناصعتين وقد نشرت شعرها الأثيث الذهبى فى شعاع الشمس الذهبى الوضاء، ربة الجمال الفرماء، فانسابت صدفة بها فى لطف على الماء،

فى وجه هذه الأنفاس المتنهدة المتصعدة من الهواء المرح، افتنانا بهذا الجمال واحتفالا بمطلعه؛ فكانت الجنيات الحسان، من بنات آلهة البحر، سابحات حول الصدفة العظيمة ممسكات حوافها بأيديهن الرخصة الناصعة البياض، وكانت أفواج الخيلان من أبناء آلهة البحر - وأدناها سمك، وأعلاها إنسان - تتقدم بين يدى الموكب المائى نافخة فى أبواق من الودع الكبار، ترجع فيه الآذان فى أثر الآذان، وتعلن البشائر فى لحن من أعذب الألحان.

وعلى مسافة قريبة، تتوثب مسرورة مجبورة، دواب البحر من أعلم لماعة الوبر، حداد العيون طوال السبال، ومن دولافين طاغين كالزقاق المنفوخة، فضية الألوان منقوطة، ومن ورائها جميعًا حيتان البال، ترسل الماء من نافورتى هامها ذاهبا فى الفضاء، وكأنها من ضخامة الجثث كسلانة فى سبحها متثاقلة؛ وهى من فرط فرحها تشق على نفسها فى السبح جادة متحاملة.

وانسابت أفروديت على هذه الصفة، تهفو بها أنفاس الهواء المتصعدة، حتى ساحل أقريطش وكانت الجزيرة فى ذلك الزمان لم يطأها إنسان، وإنما هى برية أنف معطار، وريفةالأشجار موشاه بمختلف الأزهار، وكان فى استقبال المولودة الخالدة الجديدة، للترحيب بمقدمها الميمون من قبل الأرباب الخالدين الأقدمين جنيات الطبيعة الموكلات بتدبير الأطوار والأحوال المعروفات بـ «الساعات» وهن صبايا من الحسان الناضرات متشحات بحلل من الزهرشتى الألوان والشيات ولما كانت «أفروديت» عارية إلا من شعرها الأثيث العبق، فقد أقبلت عليها الساعات باللباس والزينة، فأفرغت إحداهن عليها غلالة من الشفوف بديعة الألوان، يبدو لابسها - من رقة النسج - بين المكتسى والعريان وعكف بعضهن على ذوائب شعرها الفيشان الذهبى، تسرحه وترجله بمشط ذهبى. ثم تضفره

غدائر مسترسلة كأمواج البحر اللجى، ثم تضم الغدائر بعضها إلى بعض بإكليل من الورد الأحمر الجنى، وجعل بعضهن الأقراط إلى أذنيها الصغيرتين، والقلائد حول جيدها الأتلع، والمرسلات على ترائب صدرها المصقول كالسجنجل، وكلها من عجائب الحلى، صنعة صناع عبقرى، متخذة من الزمرد والياقوت والزبرجد الأصفر القبرصى، ثم كان الختام أن أدير حول حقويها وشاح مفصل بالدرر والجمان، جاذب للنظر، مستدع لكوامن الفكر، كأنما ينطوى على أسرار غريبة ونجاوى غامضة عميقة. وهكذا تولت «الساعات» تعليم الربة الشابة ما فى الزينة من فتنة وما فى بعض الحجاب من استهواء، ولما أن اجتمع فى «أفروديت» إلى سحر الحسن المطبوع غوايات الحسن المصنوع، نظرت ربة الجمال - نظرة متطلعة خفية - إلى مرآة من الفضة المجلوة، عرضتها عليها، ورفعتها إليها وصيفة من وصيفاتها القائمات على خدمتها. فامتلأت رضًا عن نفسها واعتزازاً بحسنها الذى جاز الغاية وفاق النهاية، ولم تملك أن سرت فى أعطافها خفة وشاعت فى وجهها إشراقة الغبطاء، فهاد قوامها فى اختيال، وابتسمت فى دلال وتلفتت تتبين حواليها، كيف يكون الافتنان بها والصبابة إليها؟ فراعها ما استبان لعينها من غلبة سحرها على الخليقة بأسرها.

فهذا الهواء مدنف، قد براه الهوى وشفه الضنى، وعند قدميها نسيم الصبا، خائر القوى متهالك طليح، كالمخمور الطريح، وهذا البحر عجاج متلاطم الأمواج منذ أن أخذه مخاضها لا يقر له قرار كالمتقلب على الفضا، لهفة عليها وأسفا على فراقها، وهذه الشمس مضطرمة من الوجد، كلما أحست مغالبة الأسى توارت خلف ثقاب من متراكب السحاب، وأجهشت بالبكاء والنحيب حتى ليحول الثرى الجديب من وابل دموعها وهو جد خصيب، وهذا الفضاء الواسع الجنبات يجيش

بألوف الألوف من الذرات التى تدق من رؤية العين وتخف عن أن يقام لها وزن وهى مشوقة إلى التكثر والتطور، وهذه الدواب والطير والزواحف والهوائم وسائر أنواع الحيوان من الهولات الجسام ذوى الأجلاد والجثث الضخام، إلى الدويبات الدقاق الميكروسكوبية الوحيدة الخلية. وهذه جميعا قد دب فى أجسادها - لطيفة كانت أم كثيفة - هزة تنزع بها إلى التعانق والتواصل والتخفف من فيض الحياة الذى حفلت به واكتظت حتى نسى الفرد منها ذاته فى سبيل استدامة النوع. وانبثقت من هذه الخلائق جميعها غمضة مبهمة لا يفصح بها اللسان، ولكنها مستغنية عن اللفظ مبينة من غير بيان؛ لأنها تهليل الحواس وتكبير القلوب وهتاف الوجدان. وهى تتوالى على «أفروديت» من كل صوب وتحفها من كل ناحية، فتحتويها من هذه المشاعر المحيطة بها المحلقة حولها أمواج حارة مسكرة.

ووقفت الساعات من جلال الموقف خاشعة ساكنة.

وأما ربة الجمال، فقد لبثت جامدة فى وسط هذه الحلقة المغناطيسية، وقد أطبقت جفنيها وغابت من فوق شفتيها ابتسامة الدلال الغريرة الصبيانية، وتبين عليها التأمل العميق والخلوة إلى النفس واستجماع شوارد الفكر، بعد أن بان لها سلطانها الرهيب وما يستتبعه هذا السلطان من التبعات والأعباء.

وبقيت أفروديت لحظة على هذا الحال تتنفس - وهى كالنائمة الحالمة - من خياشيمها المتفتحة الخافقة، ومن فمها المنفرج المنفعل، أنفاسها عميقة مطردة فى هذا الجو الحادث من حولها حتى تشبعت به أنسجة جسمها، وامتزج بكيانها، يا لها من لحظة من اللحظات القدسية التى تتقرر فيها المقادير الكونية!

لقد صارت أفروديت ربة الجمال الذى لا يضارع، ربة العشق الذى لا

يدافع وأقبلت «الساعات» فوضعن على هامة الربة الجميلة الجليلة تاجا لا من الذهب والجواهر بل من النور تبلور وتجوهر. ومضين بحرا وبرا بها والخلائق تضطرب وتجيش فى البحر والبر فى طريقها حتى أوفت الرحلة على غايتها فسرن بين يديها منفردات بخدمتها، وهى فى الموكب الحافل من بهائها وفتنتها إلى مشارف «الأولمب» منزل الآلهة ومتبوأ عروشها.

وكانت أفروديت زوجة «هيفايستوس» ولكنها لم تكن وفية له وأحبت «آرس» إله الحرب كما أحبت الآلهة ديونيزوس وهرمس وبوسيدون، وهامت بالفتى الجميل أدونيس. وتفوقت أفروديت على قريناتها فى الجمال وتسلمت من باريس الجائزة الخاصة بالجمال، وكانت لها القدرة على أن تهب الآخرين الجمال والفتنة، ويقال: إن كل فتاة أو امرأة تضع المنطقة أو الحزام السحرى المنسوب لأفروديت تصبح موضع الحب والاشتهاء، وهناك عدد من الطير الذى قدس لها؛ لأنها كانت تجر عربتها أو تحمل رسائلها مثل العصفور والحمام والبجع والخطاف.

ولقد صورها الفنانون مع ابنها إيروس وأشهر تماثيلها فى الأزمنة القديمة التمثال الذى تحته براكسيتيليس وتمثال ميلوس المحفوظ. واختلفت الشعائر المرتبطة بعبادة أفروديت باختلاف الأقاليم والعصور. ولقد كان بالقرب من أحد معابدها، عين جارية يشرب النساء من مائها ويغتسلن التماسا للحمل أو اليسر فى الولادة وكان النساء فى هرميون يقدمن القرابين لأفروديت من أجل المحبة والسعادة الزوجية والإنجاب. وخلط الأمهات فى أسبرطة بين أفروديت وربة الزواج، وكن يقدمن القرابين إليها عند خطبة بناتهن حتى يوفقن فى حياتهن الزوجية إلى الرفاء والبنين، وقد عثر على بعض الرموز الجنسية التى أهديت إلى أفروديت باعتبارها ربة الخصب. واقترنت عبادتها فى كورنثه وقبرص وصقلية ببعض ظواهر البغاء، وليست الفجوة كبيرة بين الشهوة الجنسية من

ناحية، والإنجاب من ناحية أخرى.

وإذا كانت القرابين قد قدمت لأفروديت من أجل الإنجاب فإنها قدمت لها - أيضا - من أجل الخصب والنماء، ومن الشعائر الخاصة بأفروديت أن يتنكر شاب فى زى امرأة وأن يقلد صيحاتها أثناء المخاض، ولا يعرف أصل هذه الحكاية.

* * *

سبيليا الجميلة وميناس

كان ملوك ميجارا، فى الأزمنة السحيفة، يتوارثون فى التاج والعرش، مفتاحا مقدسا، يخفونه تحت شعورهم، حتى لا يحصل عليه أحد، أو يمسه كائن.

وكانت قوة الجزيرة هى - حسب النبوءة المتوارثة - تكمن فى هذا المفتاح، فطالما كان فى رأس الملك، فإن أى جيش مغير، مهما كان عدده وعتاده، لن ينال من الجزيرة منالا، أما إذا فقد المفتاح، فقل على الجزيرة الفناء.

وتسامع بنبأ هذه النبوءة مينوس ملك جزيرة كريت الشاب، فهزأ منها وعول على اقتحام ميجارا عنوة وضمها إلى عرشه.

وأعلنت الحرب بين الجزيرتين، وعسكر مينوس بجيوشه حول العاصمة وضرب عليها الحصار ثلاث سنوات، والمدينة صامدة ترد غاراته المتتالية، وملكها أرسوس واثق هو وشعبه من أن مينوس ورجاله سوف يعودون إلى بلادهم صاغرين يجرون أذيال الخيبة والفشل.

اعتادت سبليا الجميلة، ابنة الملك أرسوس، أن تصعد فى أمسية كل يوم طوال مدة الحصار، إلى قمة البرج العالية فى القصر، لتشبع عينيها بجمال المناظر المنبسطة وراء أسوار المدينة أو لتراقب المعارك وتتطلع إلى العدو وهو كامن فى معاقله، وكانت لطول المدة قد ألفت هذه المراقبة، حتى استطاعت أن تميز قواد جيش العدو، وعلى الأخص الملك ميناس الذى أخذ كرهها له ينقلب رويدا رويدا إلى إعجاب وحب لما امتاز به من مهارة فى رمى النبال وقوة فى شد القوس.

كان الملك الشاب، يختال فوق فرسه البيضاء كأنه قطعة منها ركبت فوقها، أو كأنه هرقل إله القوة.

فإذا ما انتهت المعركة وخلع عنه خوذته وقوسه وارتدى ملابسه الحريرية المزركشة، وامتطى صهوة جواده، والأعنة فى يده يتطاير منها الشر كالرشاش وهو يطوى فوق الجيش، محييا رجاله، كانت ابنة أرسوس تشعر أن روحها قد فارقت جسدها، وأنها قد طارت خلفه على صهوة جواده، تاركة جسمها الجميل فى البرج دون حواسه.

لقد وقعت إذن فى حب عدو أبيها وبلادها، وبلغ بنفسها الإعجاب به إلى حد الجنون، حتى لقد كانت تحسد الفرس التى يركبها، والأعنة التى يمسكها، والهواء الذى يستنشقه وتمنت أن لو كان لها أجنحة لتطير إليه، وتمكث فى خيامه، أو أن لديها القدرة على فتح أبواب المدينة له لتنتهى الحرب بين الشعبين، أو يحل السلام بينهما بأى ثمن كان.

وكانت وهى فى غرفتها فى البرج تناجى نفسها قائلة، لست أدرى أأحزن لهذه الحرب أم أسر بها؟ أننى فرحة بها؛ لأنها أرتنى ميناس، وحزينة؛ لأنه عدوى وعدو بلادى، غير أنى بأى شىء أستطيع به أن أرى حبيبى ومليك فؤادى.

ألا ليته ينهى هذه الحرب ويهبنا السلام، وليته يضمنا إلى عرشه، لنسعد بحكم هذا الملك القوى الجميل.

ترى لو فتحت له الأبواب أيكافئنى على ذلك بالزواج؟ ولكن، ماذا يكون موقفى أمام أبى وأمام شعبى؟ أأكون خائنة؟ معاذ الله، ولو حرمت رؤيته أبد الدهر.

ولكن ما جدوى الحصار إننا سنموت جوعا، أفليس من الأفضل أن أنقذ شعبى من الهلاك بأن أسلم مقاليد البلاد إلى هذا الملك الرحيم، فيأخذ منا جزية، ويتركنا نعيش فى سلام بعد أن يجلسنى على عرشه، ثم إن جيشه أقوى منا بكثير، فلماذا لا أفتح له أبواب المدينة بيدى بدلا من

أن يدمرها ويأخذها عنوة؟

ثم إن هناك احتمالا، ولو أنه بعيد التحقيق إلا أنه قد يحدث، فربما أصاب أحد جنودى ميناس إصابة قاتلة، فماذا أكون قد أخذت من ترددى؟ إننى باردة جبانة، وأية فتاة فى موضعى ما كانت لتحجم عن فتح الأبواب، حرصا على سلامة حبيبها.

ولكن هبنى صممت على الخيانة، فكيف أبعد الحرس؟ ليس أمامى إلا المفتاح، ولابد أن آخذه من أبى ولو قتلته.

تنبهت الفتاة من نجواها لترى أن الليل قد انتصف وأن السكون قد غمر المعسكرين، فتوجهت للتو إلى غرفة أبيها، فأخذت منه المفتاح بخفة وهو مستغرق فى نومه.

ولم تضع الوقت سدى، فخرجت من الباب السرى بواسطة المفتاح وطلبت من أول حارس من حراس الأعداء أن يذهب بها إلى الملك ميناس؛ لتبليغه رسالة هامة.

ووقفت أمام حبيبها وهو ينظر إليها معجبا بجمالها وقوامها، وتكلمت قائلة: إننى سبيليا ابنة الملك أرشوس، وقد جئت أسلم إليك بلادى وقصر أبى حقنا لدماء الشعبين، ولست أطلب فى مقابل ذلك مكافأة ولا مالا، وإنما لى مطلب واحد هو أنت، فإن الحب الذى دفعنى إلى أخذ المفتاح من أبى خفية وبدونه لن تنالوا منا منالا.

ثم مدت يدها إليه بالمفتاح وامتقع وجه الملك وتقهقر خطوة خوفا من أن يمس المفتاح، وصرخ فيها باحتقار:

- لتدمرك الآلهة أيتها الابنة العاقة، والمرأة الخائنة، ولتحل عليك لعنة السماء والأرض، حتى لا تجدى فيهما مأوى أو راحة.

- ثم بصق فى وجهها قائلا:

- إننى أكبر نفسى عن أخذ مدينة من يد امرأة خائنة، ثم أولاها ظهره ونادى قواده وأمرهم بفك الحصار والرحيل فورا، وفى لحظة كان الجيش ينتقل بخيله ورجاله إلى المراكب الشراعية؛ حيث ولوا وجوههم شطر وطنهم كريت.

وصرخت فيه الخائنة، أيها الرجل الجحود، أيكون جزائى منك السيف والاحتقار، أنا التى ضحيت بالأب والوطن من أجلك، إننى خائنة حقًّا وأستحق الموت ولكنه لم يقف ليستمع إليها، بل ركب ركبه وأمر رجاله بالإقلاع، فلما رأت المركب على وشك المسير، ألقت بنفسها إلى الماء وتعلقت بأحد الحبال.

وكان أبوها قد استيقظ من نومه، وتفقد المفتاح فلم يجده، وأخبره الحرس أنه لم يدخل غرفته أحد سوى الأميرة سبيليا.

وكاد الغيظ أن يقتل هذا الشيخ، فاستجابت إليه، وقلبته من ملك إلى طائر كبير.

وإذا كانت الفتاة متعلقة بالمركب، رأى أباها يهبط إليها من أعلى فى صورة طائر، لينشب فيها مخالبه فصرخت إلى الآلهة أن ينقذوها فاستجاب الله الرحمن وحولها إلى سمكة.

أما الطائر فقد أطلق عليه اسم «العقاب».

وما يزال «العقاب» حتى اليوم، يطوى صورة على هذه ورغبته فى الانتقام من الفتاة؛ ولذلك تراه وهو فى أجواز الفضاء، يراقب البحار، فإذا ما أبصر السمكة تطفو فوق الماء، انقض عليها انقضاض الصاعقة، غارزا مخالبه، فاغرا منقاره لينتقم منها على خيانتها له.

* * *

إيزيس وأوزوريس

أحب الناس هذه الأسطورة، ليس فى مصر وحدها، بل أحبها أهل أوربا منذ أكثر من ألفى عام. ومن الطبيعى أن طيبة الملك قد جذبت الناس حينما تعرض لعدوان أخيه ست، وتعرض ولده حورس وأمه إيزيس للعدوان - أيضا - ومن هنا صور كل إنسان نفسه حينما يتعرض لأذى أو بأس بأحداث هذه الأسطورة.

على أن استمرار القصة - كما يقول رودلف أنتس - فى أوربا - إنما يرجع إلى سبب آخر. فإن أسرار إيزيس التى أسست عليها فكرة القرن الثامن عشر عن أوزودرس التى عبر عنها فى «الناى السحرى» لموتسارت قد أضفت على قصة إيزيس وزوجها المتوفى سمات أقرب إلى المظهر الروحى منه إلى الجسدى.

لم يكتب المصريون أسطورة أوزوريس فى قصة واحدة. وقد وصلت إلينا عن طريق الإغريق، وجاء فى الوثائق المصرية على أنها نصوص دينية، وكان ذلك أولا فى نصوص الأهرام، على أن أحداثها قد وقعت قبل كتابة نصوص الأهرام بحوالى ستة قرون، وتعرضت لكثير من التعديلات.

ونشأت عناصر الأسطورة من فعلين، موت الملك وتحوله إلى «أوزوريس، وإجلاس» ابنة «حورس» على العرش وليس لذلك نظير فى التاريخ القديم؛ كذلك ينبغى أن نشير إلى أن معلوماتنا عن أسطورة أوزوريس - والتى عرفناها من شعائر جنائزية للملك - كانت تمثيلية لا أسطورة أوزوريس؛ وذلك لأن إجراءات الجنازة الملكية كانت شعائر واجبة الأداء لشخصية الملك، ممتزجة بإشارات أسطورية تناسب أسلوب الرواية.

تقول الأسطورة: إن أوزوريس - الموصوف على الدوام «بالصالح» - كان هو الثمرة الأولى من زواج إله الأرض «جب» وربة السماء «نوت» وكان ميلاده فى اليوم الأول من أيام النسىء الخمسة التى تضاف عند المصريين الأقدمين إلى أيام السنة الثلاثمائة والستين بحساب كل شهر من شهور السنة ثلاثين يوما على السواء، فقد أعقب والداه من بعده أخًا له هو «ست» الشرير الذى لم يكن ميلاده فى اليوم الثانى فى أثر أخيه الصالح بل فى اليوم الثالث، ثم جاء دور الأختين، الأولى: المخصصة للزواج بأخيها أوزوريس وهى «إيزيس» والثانية: المخصصة للزواج بأخيها ست وهى «نفتيس» فى اليوم الخامس والأخير.

وقد كان مولد أوزوريس موضع الاهتمام الكبير من الإله الأكبر «رع» ومناط الأمل فى أن يكون على يديه صلاح البشر، بعد أن أعيا الأرباب الأوائل صلاحهم، ولقد صح هذا الأمل حين خلف أوزوريس أباه «جب» ملكا على العالم الأرضى، فاستهل عهده بإصلاح أحوال مصر، فكان بمثابة النيل بمائه المخصب الذى يحيى موات الأرض، وإليه تدين مصر بوجودها وتعتبر هبة منه - كما قال هيرودوت المؤرخ القديم فكما يفيض النيل على مصر خيراته كان أوزوريس منذ ولايته يسدى إليها كل خير، ويعمل على ازدهارها، وإدخال أسباب الحضارة إليها والارتقاء، بأهلها.

فلقد كان سكان وادى النيل أحادا مستوحشين لا يكفون عن التنازع والتناحر فيما بينهم، وكانوا لا يجدون - إلا بشق الأنفس - ما يسد أرماقهم من الصيد ومن نبات الأرض، فجمع شتاتهم فى قبائل وطبقات، وعلمهم الزراعة التى كفلت لهم وفرة الطعام، وحمتهم غائلة الجوع الذى كان يدفعهم أحيانا إلى أكل بعضهم البعض، وابتدع لهم آلات الفلاحة والحرث؛ ليكثر من الأرض محصولهم، فكان مما استنبتوه - بفضل إرشاده - القمح والشعير والعنب؛ فاتخذوا من القمح الخبز الذى أصبح

- منذ ذلك الحين البعيد - قوام الغذاء للشعب المصرى، كما كشف لهم عن شجرة الكرم وعلمهم زراعتها واتخاذ الخمر منها، وطرائق صنعها وحفظها.

ولما كانت بعض البقاع لا تصلح لزراعة الكرم؛ فقد علم أهلها أن يتخذوا من تخمير الشعير شرابا وهو المعروف اليوم باسم البيرة فى اللغات الغربية وبالجعة باللغة العربية.

ثم وجه أوزوريس اهتمامه بعد الدلتا إلى الجنوب، فكان من فتح الوجه القبلى أن كشف عن مناجم الذهب والنحاس، فأخذ فى هداية الناس إلى الصناعات الأولى، فعلمهم طرائق الكشف عن عروق المعادن فى الأرض وصوغ الذهب والنحاس، وصنع الأسلحة للدفاع عن أنفسهم من الحيوانات الضارية فضلا عن اتخاذ ما تدعو إليه الحاجة من الأدوات وآلات الزراعة.

وفى أثناء ذلك بدأ المرحلة الثالثة فأسس المدن، وأقام النظم، وشرع القوانين، وعلم الناس ما يجب للآلهة من تكريم، واتخذ قاعدة للملك جعلها المركز الدينى والسياسى والفكرى.

وقد كان فى مقدمة مساعيه الثقافية أن عهد إلى تحوت - «عند اليونان هرمى وهو عطارد إله العلوم والفنون» - أن يجعل للمصريين كتابة يتخذونها للتدوين تيسيرا للتعليم ونشر العلوم والحكمة والفنون، فاخترع الحروف الهيروغليفية، وكان من فضل التدوين أن تثقفت العقول وتهذبت النفوس، فتهيأ للناس السمو على شواغل الحياة اليومية ومتطلباتها، والتطلع إلى السموات للاشتغال بأسمى العلوم وهو علم النجوم، مما أتاح لهم مجاوزة حدود مصائرهم الأرضية والعروج بأرواحهم نحو الباب المفتوح على اللانهاية والحياة الأخرى الأبدية عليهم.

وإلى جانب أوزوريس قامت «إيزيس» أخته وزوجته معا تعينه أحسن العون فى سعيه مما جعلها أهلا لأن يقترن اسمها على الدوام باسمه، فبينما كان الزوج يرسى قواعد الدولة، كانت هى مقبلة على تحقيق كيان الأسرة بما سنته للزواج من سنن وروابط. ثم هى التى علمت أفراد الأسرة طحن الحنطة وعمل الخبز منها، كما زودتهم بالمناسج وغيرها من الوسائل لصنع ما يكتسى به الناس من اللباس، وخاصة الكتان. واتخذت إيزيس لمعالجة أمراضهم وتخفيف أوجاعهم بعض الوسائل الطبية والسحرية، وكذلك علمتهم السكنى فى الأبنية وضرورة تمهيد الطرق، وأمثال ذلك مما تقتضيه الحياة الاجتماعية والعمران.

وكان أوزوريس - فى أثناء ذلك - قد شمل بعنايته تنظيم العبادات الدينية، فوضع شعائرها وطقوسها.

وهكذا لم ينقض وقت طويل حتى ظهرت آثار هذه الإصلاحات كلها فى ازدهار الحضارة المصرية.

ولما أن اطمأن أوزوريس إلى ازدهار الحضارة فى مصر بقسميها شمالا وجنوبا، اعتزم الخروج لنشر هذه الحضارة فى غير مصر من أقطار الأرض. فأقام إيزيس على الحكم فى مصر نائبة عنه ومضى هو للفتح العالمى، ومعه وزيره الكاتب «تحوت» حامى العلوم والفنون والحفيظ على القوانين والمرموز إليه بطائر «أبو منجل» «إيبيس»، واصطحب - كذلك - حليفيه من أهل القتال وهما أنوبيس الخادم الأمين فى السراء والضراء، الذى يحسن الدفاع والمطاردة، المرموز إليه هنا بالكلب السلوقى الضخم الأسود، وكذلك الذئب المقاتل المغوار «أب - واوت». ولكن الحملة مرت بسلام، فهى لم تتحرك بدافع الانتقام، بل لإقامة الحضارة ونشر المدنية. فلم يعتمد فيها أوزوريس على سلاح، بل كان يأخذ الخلق بالحسنى والإقناع، حتى دانوا له أجمعين، وانتظمت

أمورهم، واستتب النظام فى سائر البلاد، وعم الخير العباد فى الكون كله.

عاد أوزوريس؛ عودة الظافر المنصور من حملته خارج مصر لنشر الحضارة والمعرفة فى أقطار العالم المعمور. ويبدو أن أخاه الشرير «ست» كان يتابع هذا النصر تلو النصر، وقد أكل قلبه الحسد لأوزوريس وأوغر صدره، فهو أمام هذا المزيد من التوفيق، قد امتلأ ضغينة وحقدا على أخيه بما ليس بعده من مزيد. ولا غرو فقد كان «ست» على النقيض من أوزوريس؛ ومن أجل ذلك كان الأول من حيث الرمز الطبيعى ممثلا للنيل المخصب بتربته المخضرة الوافرة الإنتاج، أى: رمز الإخصاب؛ ومن ثمة كانت خلاصة القول فيه: أنه ممثل للخير عامة. وكان الثانى ممثلا للصحراء القاحلة برمالها المحمرة المحرقة، وأعاصيرها الثائرة المهلكة، فهو رمز العقم؛ ومن ثمة كانت خلاصة القول فيه: أنه ممثل للشر عامة، فلم تكن مندوحة - عاجلا أو آجلا - من قيام الحرب بين الشقيقين، الإله الأسمر المخضر أوزوريس والإله الأحمر المصفر «ست».

ولقد شاءت طبيعة الشر عند «ست» أن عمد إلى حيلة غادرة أوقع فى حبائلها أوزوريس أثناء وليمة دعاه إليها، وشهدها معه أعوان متآمرون ممن تواطأ «ست» معهم، وعددهم اثنان وسبعون، ولما بلغت الوليمة أوجها جاء «ست» بتابوت من الخشب الثمين مرصع بالجواهر والأحجار الكريمة يعرضه على الحاضرين الذين استولت عليهم الدهشة وتملكهم الإعجاب فأعلن ست أنه يقدمه هدية لمن يثبت أنه يلائم قده ويصلح له.

وأخذ المدعوون واحدا بعد الآخر - وكانوا على علم بالمكيدة - يتعاقبون على التابوت يضطجعون فيه، فلا يطابق حجمه أجسامهم، حتى تقدم إليه أوزوريس - وكان «ست» قد أعده على مقاسه الوافى - فما كاد

يرقد أوزوريس فى التابوت حتى وثب المتآمرون فبادروا إلى إغلاقه عليه وسمروه من الخارج، وصبوا عليه رصاصا ذائبا ليتعذر فتحه وحملوه إلى حيث ألقوه فى النيل، ومن ثمة أُشِيرَ إلى أوزوريس فى النصوص القديمة أحيانا باسم «ميهى» أى الغريق.

وحمل عباب النيل التابوت الطافى عن طريق الفرع الثانى - ناحية المنزلة - إلى البحر المتوسط الذى حملته أمواجه شرقا إلى ساحل فينيقية «لبنان» حتى ميناء «جبيل» المعروفة عند المؤرخين اليونانيين باسم بيبلوس.

وما إن علمت «إيزيس» بما جرى لزوجها الحبيب فى الوليمة، حتى اشتد بها الجزع والحزن، ونزعت إحدى غدائرها ولبست السواد، وأسرعت إلى البحث عنه متنقلة تتقصى أخباره - وخاصة من الصغار - حتى استدلت إلى أن التابوت الذى يحتويه ألقى فى النيل، وأن التيار حمله إلى شرقى البحر، ولم تزل تجد فى السعى والسؤال حتى علمت أن التابوت الطافى حين بلغ مدينة بيبلوس ألقت به الأمواج إلى الشاطئ عند دوحة عظيمة من الأثل، فكان من جوار الإله لها أن بلغ من استفحال نموها أن اشتمل ساقها على التابوت فأخفاه عن الأنظار.

واتفق أن ملك هذه الناحية اجتاز ذات يوم بهذه الدوحة العظيمة، فأمر بأن تجتث - دون أن يعلم بما فى جوفها - لتكون عمودا يدعم به سقف قصره.

فلما سمعت إيزيس ذلك بعد ما كان من طوال طوافها على غير هدى، ولت وجهها شطر بيبلوس، وهنالك اهتدت إلى قصر الملك، وتطلعت إلى الدوحة التى صارت دعامته وهى على حالها أمينة على مافى جوفها، وكانت إيزيس لا تبرح ليل نهار جالسة عند حوض ماء وسط الساحة على مرأى منها.

واتفق أن مرت بعض جوارى الملكة صباحا بحوض الماء، فوقعت أنظارهن على المرأة الحزينة الصامتة جالسة كعادتها.

وفى هذه المرة ألقت إيزيس عليهن تحيتها ودخلت فى الحديث معهن، فسرهن التحدث إلى هذه الغريبة، فلم تعتم أن عرضت عليهن تصفيف شعورهن وتضفيرها على ما يرينه من هيئة شعرها التى جرت عليها نساء بلدها، كما جعلتهن يتنسمن فى شعرها ما تتخذه من عطر، مع إبداء استعدادها لتزويدهن منه إذا طاب لهن. فأقبلن عليها حتى أتمت زينتهن. فلما عدن إلى القصر عجبت «عشتروت» الملكة لجمال ضفائرهن وطيب عطرهن، وعند سؤالهن علمت منهن بأمر هذه الغريبة، فأرسلت فى طلبها وألحقتها وصيفة لها كالصديقة، ثم بلغ من ثقتها أن وكلت إليها أمر العناية بطفلها.

وفى ذات ليلة طاف بصدر الملكة هاجس فقامت إلى غرفة الطفل تستطلع حاله، فإذا به مستغرق فى أطيب الرقاد، ومن حوله يتلظى لهيب النار. فجرت الملكة فى ردهات القصر صارخة مولولة، فهرع إليها الملك وسائر الوصيفات وإيزيس نفسها، واضطرت إيزيس فى تفسيرها لهذه الظاهرة تهدئة للملكة أن تكشف عن نفسها، فلما علم الملك بحقيقة أمر الربة المصرية وما جاء بها، أمر بالعمود فانتزع من تحت السقف، وتولت إيزيس شقه واستخراج التابوت منه، ثم ردت بعدها للملك والملكة وأهل المدينة كلها - على سبيل التذكار والبركة - جزع العمود الذى علقت به من جسم الإله ريح طيبة كرائحة العود.

غادرت إيزيس مدينة بيبلوس فى سفينة، ومعها التابوت وفى داخله جهة أوزيريس أخيها وزوجها العزيز، فلم تلبث أن هاجت بها الذكريات فارتمت على التابوت وهو على حاله مغلق محكم الإغلاق بالرصاص، وهناك كانت - فيما يقال - معجزة حملها. وقد بقى التابوت محكم

الإغلاق حتى بلغت مصر. فنزلت قريبا من مدينة «بوتو» حيث اختارت مكانا مهجورا لم تطأه قدم إنسان، فلما اطمأنت إلى أنها وحدها والتابوت وأنها فى مأمن من كل رقيب، عالجت فتح التابوت، وانحنت على الميت حتى صافح وجهها وجهه، وقد انهمرت دموعها، فقبلته قبلة حارة، ثم أعادت غطاء التابوت إلى ما كان عليه. وطفقت تبحث عن موضع للتابوت، ولما اطمأنت إلى خفاء موضعه انصرفت.

وكان انصراف إيزيس إلى مدينة بوتو التى كانت مسقط رأسها، تختفى بين المستنقعات ومتكاثف أعواد البردى والغاب عن ملاحقة «ست» وأعوانه لها، وبحثهم عن مكانها. وهنا ولدت ابنها حوريس، وهنا بين أعواد البردى والغاب أرضعته، وعكفت على تنشئته وتربيته بعيدا عن كيد عمه الخبيث الشرير.

وفى هذه الأثناء يكون العم المجرم - منذ ألقى بأخيه الملك فى النيل - قد تربع على عرشه، دون أن يجترئ أحد - من هول الصدمة فى هذه الآونة العصيبة - أن يهب فى وجهه، ويعترض على حكمه.

ويتفق أن يكون «ست» عائدا فى بعض الليالى المقمرة من الصيد، فيمر قريبا من الموضع الذى اتخذته إيزيس مخبأ للتابوت، فتحين منه نظرة إلى ناحيته فيقترب منه، فلا يغيب عنه التعرف عليه، فينتزع غطاء التابوت، ويمد كلتا يديه إلى جسد أخيه، فيمزقه شر ممزق إلى أربعة عشر جزءا يبعثرها كيفما اتفق هنا وهناك فى جميع الأرجاء، حتى لا يبقى لجسد أخيه وجود مكتمل يمكن أن تتعرف عليه روحه فتتحقق له - بحسب عقائدهم - القيامة والبعث للحياة الأخرى فى العالم الآخر، عالم الخلود.

ولا يكاد هذا النبأ الفاجع يصل إلى مسامع إيزيس حتى تعود إلى الطواف هنا فى طلب الأجزاء المبعثرة فى أقاليم مصر الأربعة عشر من

جسد زوجها الحبيب أوزوريس. وكانت كلما عثرت على شلو من أشلائه الكريمة، أقامت حيث وجدته ضريحا زاعمة أنه يضم أوزوريس كله أو أكرم أجزائه، وهذا هو السر فى تعدد أضرحة أوزوريس فى شمال مصر وجنوبها.

وقد وفقت إيزيس بعد جهد جهيد إلى العثور على جميع ما مزقه وبعثره ست من أشلاء زوجها إلا عضوا واحد. وقد اشتركت إيزيس وولدها حوريس وأختها نفتيس فضلا عن تحوت وأنوبيس - وهم جميعا ورثة علم أوزوريس ومستودع أسراره - فى العمل على ضم ما اجتمع من جسد الإله من الأشلاء بعد إنعاشها وتجديد وجودها، ثم تولى أنوبيس تحنيط الجسد الكريم حفظا له من الفساد، لضمان بقائه لمحلول الروح فيه، بعد تهيئته بفضل أغانى وتعازيم الأختين إيزيس ونفتيس للحياة فى العالم الآخر. وتعتبر مومياء أوزوريس المومياء الأولى فى تاريخ مصر القديم.

وعندما يصل إلى علم القاتل، الجالس على العرش، أن إيزيس قد حملت وأنجبت حوريس الذى يخشى طلبه للثأر ومطالبته بالعرش، يبادر «ست» فيتهم إيزيس التى جاء حملها بعد موت أوزوريس زوجها، بأنها حملت سفاحا من غير أخيه. ويطلب من مجلس الآلهة محاكمتها، ولكن الآلهة تصدر الحكم بتبرئتها وتأييد بنوة حوريس لأبيه أوزوريس.

ويعتزم ست - فى توه وساعته - أن يجد فى البحث عن هذا الوريث الجديد للفتك به. ولكن إيزيس تفر بولدها ومعها من أخصاء زوجها الأمناء تحوت وأنوبيس؛ للاستخفاء بعيدا عن العيون فى مكان أمين بين أوراق البردى فى مستنقعات الدلتا، حتى إذا بلغ حوريس أشده أعان على استعادة أبيه لوجوده الجسدى والمعنوى على نحو ما وصفناه وعلى الأثر يصير أوزوريس سيدًا للغرب، وملكا على العالم السفلى، ورمزاً للقيامة،

وتوكيدا للبعث، وإعلانا للبشارة بالحياة الأخرى، لا للملوك وأمثالهم، بل للبشر أجمعين.

ولما استوفى حوريس فتوته وأتم الاستعداد للنضال والتدرب عليه، واكتملت له القوة الحربية، خرج فى جمع من أعوانه للانتقام لأبيه من قاتله. فكانت من ذلك الملحمة الكبرى، ملحمة الصراع الأبدى بين قوة الخير وقوة الشر بمفهومهما المطلق، وعلى المستوى الكونى.

* * *

بيرام وتسيبيه

كان أجمل شباب بابل، وكانت أجمل حسانها. وكان بيتاهما متلاصقين، فكان يراها وكانت تراه، وكان يلقاها وكانت تلقاه، وكانا يتلاعبان فى الصغر، وطفلين كالملائكة، ثم شبا، فكانا ينفران إلى الخلاء.

ولم يقو بيرام على عذاب البعد، فاتفق وتسيبيه على أن يكلم أباه ليكلم أباها فى الخطبة، ولكن والد بيرام أبى واستكبر ورفض أن تكون هذه الفتاه - التى هى مطمع أبصار شبان المدينة - زوجة لولده، وكذلك أبى والد الفتاة، ثم شجر الخلاف واتسع، وكثرت شياطينه، وأحيا عداوات قديمة، فتدابر القوم وتناكروا، ولكن ما فى قلب الحبيبين ظل على ما كان عليه، بل ألهب البعد الذى جرت إليه الخصومة أوار حبهما، فازدادا هياما، وذابا غراما، وكانت عداوة أهليهما عليهما بردا وسلاما.

ولم يعد يفكر إلا فيها، ولم تعد تفكر إلا فيه، وراح ينظم الشعر يتغنى به برجاء، ويرسل موسيقاه يكلم السماء عسى أن ترق له آلهتها فترحمه مما يقاسى. وراحت هى تبكى وتتكلم بلغة الدموع إلى نفسها الملتاعة.

وتصدعت السماء، وانهمرت شآبيب الرحمة، وأنهل فيض الحنان، وأمرت الآلهة فزلزلت الأرض زلزالها. وكانت الغرفة التى ينام فيها بيرام ملاصقة للتى تنام فيها حبيبته تسيبيه، وكان يفصلهما جدار مشترك بين المنزلين المختصمين، أحدث الزلزال فى هذا الجدار صدعا صغيرا كالشعرة فوصل هواء الغرفتين، وحمل كلام الحبيبين وأخذت موسيقى بيرام، وأخذت النجوى الحلوة، والشكوى الجميلة، وغزل الكلام، وحنين القول، ينتقل فى برج هذا الشق كأنها كواكب السعد تحدوها

الآهات الملتهبة، وتذهب بها القبلات الحارة، ترف بأجنحة من أثير، من فم إلى فم.

وهكذا كانت أحاديث الحبيبين المعذبين كلما جنهما الليل، وضمهما غاشى الظلام، أحاديث كأوشية الروض، وأقواف الزهر، ونجوى البلابل، ممزوجة بعبرة أو عبرتين بريقيهما على جفاء الأهل، ولدد الطباع، وقسوة الأيام، أخذت تصرف عن عينيها رؤى عفاريت الليل، وتصاوير الوهم المريض، ثم سخرت من خوفها وذكرت التوتة البيضاء، والنبع الذى عندها، فارتدت إليهما؛ لتجلس ثمة، ترتقب زورة الحبيب.

وجلست عند جذع التوتة تنتظر، وهى فى هذا وذاك تفكر فى بيرام، وتضرب لتأخره أخماسا لأسداس، ثم ذعرت الفتاة ذعرا كبيرا، وساخت الأرض تحت قدميها المرتجفتين الواهنتين؛ ذلك أنها لمحت شبح لبؤة تخرج من دغل قريب فجأة ثم تيمم شطر النبع الذى تعرش من فوقه التوتة. ماذا؟ إنها لبؤة ضارية أقبلت ترتوى كأنها عروس من الجن.

وأطلقت الفتاة ساقيها للريح، ولم تحفل بها اللبؤة، لأنها قد افترست فريسة قبل ساعة ونهشتها، وهذا فمها ملوث بالدم الغريض والدافئ.

لم تصنع اللبؤة شيئا، إلا أنها رأت الخمار الأبيض الذى كانت تسيبيه ملتفعة به، ملقى على الأرض، فعاثت فيه، وكأنما أرادت أن تمسح فمها به، فلوثته بالدم، ثم همهمت نحو النبع فارتوت على مهل، وعادت أدراجها نحو الدغل الذى تركت فيه فريستها لتأتى على بقاياها.

أما الفتاة فقد ظلت تجرى حتى بلغت شجرة ضخمة وجدت فى أصلها فراغا فاختبأت فيه، وراحت تلهث من الذعر والتعب، وتتمنى ألا ترتد اللبؤة إليها وقد أيقنت أن «ديانا» إلهة القمر، قد سمعتها حين عابت على البدر عيه وبكمه، فساقت إليها ذاك الوحش فى هذا الليل.

ولم يمض وقت طويل على تلك الأحداث حتى أقبل بيرام وفى نفسه لهفة، وبقلبه قلق، فقصد إلى مقبرة نيتوس فلم يجد عندها شيئا.

وفجأة هتفا «يااللهول: ويا للفزع الأكبر، ما هذا؟ خمار حريرى أبيض! لمن هذا الخمار يا ترى؟ أواه إنه خمارها لا ريب لقد شهدتها تتلفع به مرارا. يا أرباب السماء ما هذا الدم؟! واأسفاه عليك يا تسيبيه لقد قتلتك الوحوش فلن أراك بعد اليوم، أنا السبب يا حبيبتى. لقد جررت عليك هذا باقتراحى الضال. ثم أغمد سيفه فى صدره وسقط يتجرع غصص الموت!

وهدأ روع تسيبيه، فبرزت من مكمنها فى أصل الدوحة؛ لترى من أين كان يتردد فى أذنيها هذا النداء الحبيب. وكان شبح اللبؤة لا يزال يتمثل لها فيفزعها فى الفينة بعد الفينة، ولكنها كانت تسير بخطى وئيدة؛ لأنها ما شكت مطلقًا فى أن النداء هو لحبيبها؛ لأن الصوت الفضى الذى كان يمتزج بأضواء القمر فيغمر أذنيها وقلبها، كان لا يزال يداعب أذنيها الصغيرتين ثم بدا لها أن تحث الخطى حتى تنبه بيرام إلى وجود اللبؤة فى هذا السهل الجميل جعلته كالفلاة فأسرعت وأسرعت

- من هذا المستلقى على ضفاف النبع. هو من غير شك. ثم أسرعت أكثر من ذى قبل.

- بيرام ما هذا، السيف فى صدرك. له. حبيبى رد على! تكلم تسيبيه ها أنا ذى، لم قتلت نفسك يا بيرام. آه هذا الخمار الأبيض وى إنه ملوث بالدم؛ عاثت فيه اللبؤة الملعونة

- تسيبيه

وأرسل القتيل هذا الاسم المحبب وحشرجة الموت تعتلج فى صدره، ثم فتح عينيه قليلا فرأى فتاته تبكى فوق رأسه، فتبسم ثم مات

- بيرام لا. لا تمت. لابد أن تعيش من أجلى

ولكنه مات برغم هذه الأمانى.

-إذن أنا التى قتلتك يا حبيبى. اشهدى يا توتتنا البيضاء

ثم رفعت بصرها إلى فوق، ولكنها بدلا من أن ترى الثمر الشهى الأبيض، رأت ثمرا أحمر يقطر دما قانيا.

* * *

كيوبيد وابنة الملك

ربما تكون هذه هى أشهر أساطير الحب عند الإغريق لروعتها، وجمالها، وما تحمله من أحاسيس فياضة ومشاعر متدفقة جياشة.

كان «كيوبيد» الصغير يتميز من الغيظ حين انطلق حاملا سهامه؛ ليقتل «بسيشيه» ابنة الملك، التى أهانت بجمالها كبرياء أمه فينوس.

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفق ماء الشباب فى جسمها الرشيق، وقوامها البديع فهوت إليها نفوسهم، وخفقت بحبها قلوبهم، وآثروها بعبادتهم من دون فينوس

وكان للفتاة أختان حسناوان، ذواتا دلال وفتنة، ولكنهما كانتا مع ذلك دونها جمالا وجاذبية وفتنة بجمال بسيشيه الغامض وحسنها العميق، وكان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها، وافتتانهم بها، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال.

ودعت إليها ابنها ربة الحب، فأثارت فى قلبه العداوة لهذه الغادة، وجسمت له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتها إلى هذه المخلوقة التعسة.

ومضى كيوبيد إلى قصر الملك فى طريق حفت بالورود. وعبقت فيها أرواح البنفسج.

وكبرت فى قلب كيوبيد أن تنتهى هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجريمة، وتفيض بالآلام فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل، وكان ضوء القمر ينعكس على الأزهار ثم يرتد شعرا وسحرا وموسيقى صامتة، تعزف ألحانها على أوتار قلبه الخفاق.

ولكن كيوبيد يحمل قوسه وسهامه ومضى لا يأبه بجمال الطبيعة

الساحرة، ولا يأسر لبه هذا البهاء الذى يغمر الكون حوله، حتى كان عند أسوار القصر الملكى.

وصعد كيوبيد على الدرج الرخامى دون أن يلمحه الحرس ودخل مخدع بسيشيه النائمة، واندس خلف الستائر الحريرية يوتر القوس الذهبية وينتقى سهما، وتقدم نحو الفتاة وهنا سمع صوتا من أعماق: يا للجمال النائم فوق الأريكة ويا للفتنة النائمة ملء السرير.

وخطا كيوبيد خطوتين، وحملق فى وجه بسيشيه وبهره الجبين المشرق، والهدب الناعس. مما ملأ قلبه صبابة، فتقدم نحو بسيشيه فى خطى اللهفان، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجمالها الفينان.

وطبع على الفم الدقيق قبلة دقيقة حلوة، وعاد أدراجه عاشقا وامقا لا يبالى بسخط أمه فينوس!!

وحنقت ربة الجمال والحب، ونادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد، وأقسمت لتجعلن مباهج الحياة ووضاءتها ظلاما فى عينى الفتاة!!

سلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها، وأغرت بها بعض خفافيش سوداء حلقت تناوشها وتهاجمها، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر، وطفقت تصرخ وتعول، ولا يدرى أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول.

ومضوا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة، ولكنها ما كانت لتزداد إلا شكاة وأشجانا!!

وتسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر، وفى نفسها أن تلقى بحمل الحياة من شاهق؛ فتستريح مما يطيف بها من آلام!

ورآها كيوبيد

وظلت هى ترقب المرج الهائج، وتشهد اليوم المصطخب، وتلقى على البطاح نظرة مودع عجلان، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذ القلب أسوان، ثم صرخت صرخة هائلة، وألقت بنفسها من عل.

وكان كيوبيد قد أحس بما تهتزمه حبيبته من الانتحار، فدعا إليه صديقه ونجيه زفيروس، إله الريح الجنوبية، وأطلعه على ما يكن من الحب لهذه الفتاة التى تكاد تلقى بنفسها من الجبل يا صديقى زفيروس، تلقها فى يديك الرفيقتين، واذهب بها إلى الجزيرة المقابلة حيث الشاطئ المنضور بالرياحين، فدعها ثمة، فقد أعددت لها مكانا آمنا.

ولشد ما دهشت بسيشيه؛ إذ رأت طيفا نورانيا كريما يبرز من الماء فجأة فيلتقطها فى يديه الكريمتين، ثم يترفق بها فيضعها على ظهره العريض الرحب.

ويصل إلى الشاطئ المزدهر فيبسم للفتاة ثم يجيبها بتمتمة، وينطلق فى البحر الذى يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه.

ومضت فى غياض وأرباض، ورأت فى الأفق القريب قصرا باذخا فيممت إليه، وما كادت تدنو منه حتى فتحت بوابة السور الكبرى على مصراعيها، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها، وانبرت أصوات رقيقة موسيقية تحتفى بها وتحيى وتلبى!

وفركت بسيشيه عينيها كذلك.

وجالت الفتاة فى القصر الجميل المنسق، وكان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة، محيية بابتسامة خفيفة، أو انحناءة مؤدبة.

وكانت التماثيل فى زوايا الغرف، وأوساط الردهات، وفى حنايا

الحديقة، وفوق الربى المكسوة بالسندس الرطب، تحيى الضيفة، كأن حياة تدب فى مرمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها فتتحرك الأذرع، وتومئ الرءوس، وتمر الفتاة وقد أخذت الدهشة من نفسها كل مأخذ.

وكانت العنادل تهتف بها ترجوها أن تتلبث فتسمعها أنشودة الخلد، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل منها حتى ينتهى من غنائه الحلو، وتغريده الرنان.

وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس.

وفى الليل سمعت الباب ينفتح، ويدخل فتى خفيف الخطى، ويقبل عليها فيحيى أحسن تحية بأرق صوت، ثم يستأذن فيجلس إلى جانبها.

وظل يزورها كلما أقبل الليل يتبادلان أحاديث الهوى وطقوس الغرام، فيمكث معها حتى مطلع الفجر، ثم يذهب عنها على أن يعود اليوم التالى وبسيشيه راضية قانعة. لا يضيرها ألا تعرف من هذا الحبيب الوفى، ولا ما يكون اسمه

وذهبت تستنشق أنفاس البحر فوق الشاطئ الطويل المزهر، فلقيت أختيها فجأة تخرجان من زورق جميل، فتعانقهما عناقا حارا، ويغمرها - للقائهما - فرح كبير، وتعود بهما إلى القصر، وتدخلهما «هيكل الحب» - كما اتفقت وحبيبها على أن يسميا المخدع - ثم تقص عليهما قصتها منذ اعتزامها الانتحار إلى أن تلقاهما.

وتكون الغيرة قد أنشبت أظفارها فى فؤادى الفتاتين، ويكون الحسد قد شاع فى نفسيهما الخبيثتين، فتضمران لها الشر المستطير.

- ولكن كيف تطمئنين إلى هذا الحبيب يا أختاه؟ ألا تخافين أن يكون غولا أو هولة أو سعلاة؟ لماذا إذن يأبى عليك أن تنظرى إليه؟

أليس يخشى أن تفزعى منه إذا رأيته على حقيقته. أيغرك منه كلامه

الناعم الموشى؟ لا يا أختاه! نحن نخشى أن يجفوك يوما فيقتلك لا بد أن تأخذى حذرك منه. ولابد أن تنتهزى فرصة يكون غارقا فى نوم عميق فتوقدى المصباح وتنظرى إليه، فإن كان وحشا أو هولة، فإليك هذا الخنجر المرهف فأغمديه فى قلبه واستريحى منه، وعودى معنا إلى أبينا الملك فإنه جد مشتاق إليك.

ودفعتا إليها الخنجر المسمم بعلمها، وولتا عنها تختبئان فى أجمة دانية

وفعل كلامهما فى قلب أختهما فعله، فلما كان الليل، وغفا الحبيب الصغير مما ألم به من سكرة الحب، نهضت بسيشيه إلى مصباحها فأوقدته، وإلى الخنجر فشرعته، وذهبت تنظر إلى العاشق البرىء.

وفتح كيوبيد عينيه فرأى الخنجر فى يمين بسيشيه، فقفز قفزة هائلة، ورف بجناحيه الصغيرين وقال: «بسيشيه! يا شقية وداعا فلن نلتقى بعد اليوم!».

ما كاد كيوبيد يرف بجناحيه فيغادر القصر حتى امتلأ المخدع أرواحا شريرة طفقت تهاجم نفس بسيشيه فى شدة وعنف، فهرعت إلى الخارج مهرولة، وهرعت فى أثرها المخاوف والأشجان، يحدوها الذعر والفزع الشديد. واختفى القصر من الوجود، وأخذت تنام فى العراء.

هكذا ظلت تبكى بسيشيه، وهكذا مرت بها الأيام فوق الجزيرة تنتظر أوبة حبيبها. ولكن، بلا جدوى.

ووقفت يوما عند ضفاف الغدير تفكر فى أن تلقى بنفسها فى أعماقه.

ولكن رب النهر الذى كان واقفا يسمع ويرى يسرع إلى الفتاة فينتشلها، ويصيح ببناته عرائس الماء فيأتين.

وفى الغابة، لقيت ديميتر الطيبة الوقور فانحنت تحييها.

ذكرت لها أنها رأت كيوبيد بكرة ذلك اليوم، وفى كتفه جرح دام أحدثته فيه أمه فينوس، لماذا؟ لا يدرى أحد فإذا كان لابد لك من لقاء كيوبيد، فاذهبى إلى فينوس وتبتلى إليها، وادخلى فى خدمها وحشمها، وأثبتى لها بتفانيك فى طاعتها أنك من عبادها المخلصين، عسى يا بنية أن ترضى عنك، ويذهب عنك هذا الحزن.

ثم قادتها إلى قصر فينوس، وزودتها بما ينبغى لها من النصح، وعادت إلى غابتها الوارفة تنتظر برسفونيه.

وبرهنت بسيشيه على حسن إخلاصها وجميل توبها، وكانت ربة الحسن تسخرها فيما لا طاقة لبشر به، فكانت تقوم بما تكلف به وتؤديه خير الأداء، لدرجة أنها سقطت تصارع الموت بسبب شدة المعاناة.

* * *

ديانا رمز الكمال الجسدى

وقد عرفها الرومان باسم ديانا، وهى توأم أبوللو وقد اعتبرها المفكرون والفنانون الإغريق رمزا للكمال والجمال العذرى؛ كما كان أخوها بالنسبة للشباب. لقد فضلت أرتميس أن تعيش عذراء عن أن يدنسها ذكر، واهبة حياتها للأدغال والمراعى، فهى ربة الصيد؛ حيث صورت دائما وهى تتمنطق بجعبة السهام، كما عرف عنها الانتقام ممن يحاول حتى النظر إلى قوامها، كما فعل إكتايون الذى كان يصطاد فى إحدى الغابات ففوجئ بالربة وهى تستحم، فجلس يختلس النظر إليها، فما كان من الربة إلا أن جعلت كلابها تنهش لحمه.

هكذا أصبحت أرتميس حامية للشرف العذرى؛ كما كانت أثينا، بل كانت - أيضا - الربة التى تعاون النساء ساعة الوضع؛ إذ قيل: إنها ساعدت فى مولد أخيها أبوللو، رغم أنها ولدت قبله بدقائق، كما ارتبط اسم أرتميس بالقمر مثلما ارتبط اسم أخيها بالشمس.

* * *

هيلانة الفاتنة والأمير

جمع الملك أبناءه الثلاثة، وطلب منهم أن يحفروا له قطعة من الكتان مربعة، وطولها ١٠٠ متر، ولكن بشرط أن تكون رقيقة؛ بحيث يمكن طيها وإنفاذها من خلال خاتم صغير! وقال: إنه سوف يمنح ثلث مملكته لمن يأتيه بها. (١)

كان الاختبار صعبا وقاسيا على الأبناء الثلاثة وبخاصة الابن الأصغر الذى كان يشعر أنه أضعف من أخويه وأقل منهم مقدرة خرج الأخوان الكبيران من القصر وامتطى كل منهما عربة سريعة تجرها الأحصنة القوية فى رحلة طويلة فى جميع أنحاء المملكة.

أما الأخ الأصغر فقد خرج ماشيا على قدميه، مكتئبا حزينا، لا يستطيع حتى أن يحلم بتحقيق ما طلبه أبوه، ويشعر أن أباه قد وضعه فى مأزق يستحيل الخلاص منه. ظل الأمير الصغير هائما على وجهه هكذا حتى وصل إلى نهاية المملكة. وهناك وجد ساقية يعلوها جسر حجرى صغير، فجلس على الدرابزين مطرقا مستغرقا فى التفكير فى مطلب أبيه الغريب الذى لا حيله له فيه. وبينما هو على هذا الحال انتصبت أمامه فجأة عظاية صغيرة، وقالت له: (١)

- «إنك تبدو مهموما جدا أيها الأمير الوسيم. ما الذى يحزنك إلى هذا الحد؟»

فرد عليها بلهجته غاضبا:

- أغربى عنى أيتها الحمقاء، واتركينى لحالى، فإنى لا أريد أن يقطع أحد على وحدتى وتفكيرى.

فردت العظاية:

- إن الوحدة شيء سيئ، والحزن أسوأ منها. قل لى ماذا يقلقك ويجعلك حزينا إلى هذه الدرجة؟

رد الأمير بلهجة مهددة:

- إن لم تبتعدى عنى وتتركينى فسوف أسحقك تحت قدمى.

فردت العظاية:

- أتريد أن تؤذينى وأنا أريد أن أساعدك وأكون صديقة لك؟

فأجاب الأمير:

- إن ما أفكر فيه مستحيل، ولا يستطيع أحد أن يساعدنى.

ولكن العظاية ألحت فى طلبها؛ حتى اضطر الأمير لأن يخبرها بمطلب أبيه الصعب والغريب.

فقالت له العظاية:

- إن مطلبك يسير جدًا ولا يستحق كل هذا التفكير والحزن، ولسوف تكون معك فى الحال قطعة القماش التى طلبتها.

ثم انصرفت العظاية بسرعة إلى العناكب الذهبية، وطلبت منهم أن ينسجوا لها قطعة من الكتان بالمواصفات التى ذكرها الأمير، وكانت صديقة لهم وقد أسدت إليهم خدمات كثيرة جليلة. فتجمع على الفور مائة من العناكب ونسجوا قطعة الكتان المطلوبة، وبسرعة لفت العظاية النسيج الكتانى ووضعته فى جوزة صغيرة، ورجعت بسرعة إلى الأمير الذى كان لا يزال جالسا على درابزين الجسر الصغير؛ فأعطته الجوزة، وقالت له:

- قطعة الكتان التى ذكرتها داخل هذه الجوزة، فاذهب بسرعة إلى أبيك؛ لتفوز بثلث المملكة.

أخذ الأمير الجوزة وشكر العظاية بشدة، وقال لها:

- لن أنسى أبدا صنيعك هذا؛ أنت بالفعل صديقة طيبة.

ثم سلك الأمير طريق العودة إلى القصر.

وصل الأميران قبل الأمير الأصغر، وعرضا على الملك ما جمعاه من كل صنوف وأشكال الكتان الرائعة، ولكنها لم تحظ برضا الملك؛ لأن شرط الملك الأول - وهو: أن يكون طول وعرض قطعة الكتان ١٠٠ متر، ويمكن إدخالها فى خاتم صغير - لم يتوافر فى أى منها، ثم قدم الأمير الصغير وقدم لأبيه الجوزة، وقال:

إن ما طلبته يا أبى موجود داخل هذه الجوزه الصغيرة. استخرج الملك قطعة الكتان ثم بسطها فوجد أن طولها يبلغ ١٠٠ متر، وعرضها كذلك، فسره ذلك سرورا عظيما وقرر أن يمنح ابنه الأصغر ثلث مملكته.

وبعد انقضاء شهور قليلة استدعى الملك أبناءه الثلاثة مرة أخرى، وقال لهم:

- إنى أريد كلبا صغيرا جدا؛ بحيث يمكن وضعه فى علبة كبريت، وأن يكون صوته فضيًا، ويسمع نباحه من بعد ٦٠ فرسخا.

انطلق الأميران على الفور بعربتيهما يصولان ويجولان فى أرجاء المملكة الشاسعة بحثا عن هذا الكلب الخرافى.

أما الأمير الصغير فقد كانت لديه قناعة بأنه ليست له حيلة فى هذا الأمر وأنه لن يعثر أبدا على هذا الكلب العجيب؛ فأخذته قدماه مرة أخرى إلى نفس المكان وجلس على نفس الدرابزين واستغرق فى التفكير والحزن.

وفجأة ظهرت له نفس العظاية مرة أخرى، وقالت له:

- عدت مرة أخرى إلى الحزن أيها الأمير الوسيم. ماذا يحزنك هذه المرة؟

فأجاب:

- إن أبى يريد كلبا صغيرا جدا بحيث يمكن وضعه داخل علبة كبريت، وأن يكون صوته فضيا ويسمع نباحه على بعد ٦٠ فرسخا.

ردت العظاية بسرعة:

- إن طلبك هذا عندى أيضا.

وانطلقت إلى ملك الجنيات المسحورات، وطلبت منه كلبا بنفس المواصفات، فقال لها الملك:

- إنك قدمت لنا مساعدات كثيرة، وكنت - دائما - صديقة وفية، ولا نستطيع أن نرفض لك طلبا. وأعطاها الكلب، فهرولت مسرعة إلى الأمير ومعها الكلب داخل علبة كبريت صغيرة، أعطت العظاية الكلب للأمير، وقالت له:

- احذر أن يضيع منك؛ لأنه إذا ضاع أو هرب منك فلن تستطيع العثور عليه مرة أخرى.

فرح الأمير فرحا شديدا بهدية العظاية وشكرها بحرارة، ثم انطلق يسابق الريح إلى قصر أبيه، وعندما وصل إلى مفترق الطرق قابل أخويه تتعالى من عربتيهما أصوات الكلاب من شتى الأشكال والأنواع، وعندما رأيا أخاهما خالى الوفاض صفر اليدين أخذا يسخران منه ومن ضعفه وعجزه، ولكنه لم يشأ أن يكشف لهما سر الكلب الصغير الذى يحمله.

ولما وصل الشقيقان إلى القصر، ارتفعت أصوات الكلاب الجائعة

والمنهكة من طول السفر، وانطلقت معربدة فى القصر الواسع تبحث عن الطعام والشراب، ولما رأى الملك ما حمله إليه ولداه، غضب بشدة وأمرهما بإخراج كلابهما من القصر على الفور، ثم دخل الأمير الأصغر وقدم لأبيه علبته الصغيرة وفتحها أمامه بحذر، فلما رأى الملك الكلب الصغير وسمع نباحه فرح بشدة، وقرر منح ثلث مملكته الثانى - أيضا - لابنه الأصغر.

وبعد أيام قليلة جمع الملك أبناءه، وقال لهم:

- من يأتينى منكم بعصفور الشرشور ذى الصوت الذهبى وإبريق من ماء الصبا وآخر من ماء الموت سوف أمنحه ثلث مملكتى الأخير.

خرج الأخوان الكبيران على عربتيهما القويتين وهما مصممان على تحقيق مطلب أبيهما الثالث والأخير.

أما الأخ الأصغر فلم يكن يريد الاشتراك فى هذه المسابقة الأخيرة، ولكن أخويه الكبيرين استهزأا منه وقالا له:

- إنك شعرت بعجزك وعرفت أنك لن تستطيع الحصول على شئ مما طلبه أبوك، والحقيقة أنك أصلا لا تصلح لشىء على الإطلاق، ولن ينقذك الحظ هذه المرة مثل المرتين السابقتين.

تأثر الأمير الأصغر بكلام شقيقيه، فامتطى جواده وأخذ نفس الاتجاه صوب المعدية، وهو لا يفكر فى شئ - على الإطلاق - إلا فى الطريقة التى يثبت بها أنه قوى حقًا وشجاع، وليس عاجزا كما يزعم شقيقاه، ومن فرط حزنه وألمه؛ بسبب تجريح أخويه له لم يكن يشعر بما حوله أو يرى أمامه، ولم يوقظه من شروده هذه إلا صوت العظاية التى قطعت عليه الطريق وفاجأته بسؤالها:

إلى أين تتجه أيها الأمير الجميل؟ عدت مرة أخرى إلى قلقك

وحزنك. هل ثمة شيء أستطيع أن أقدمه إليك؟ قل لى؛ فقد أستطيع مساعدتك؟

فأخبرها الأمير بما طلبه أبوه، وبسخرية شقيقيه وتجريحهما له، فقالت له:

- إن طلبك هذه المرة أصعب من المرتين السابقتين، وستقابلك مشاق وصعاب جمة، فإن كنت شجاعا وقويا فسوف تنتصر على كل الصعاب، وتحقق مطلب أبيك الأخير ثم قالت له: إن خلف هذه الغابة القريبة كوخا تعيش فيه امرأة عجوز فانية، إذا وصلت إليها، أبلغها تحياتى واسألها عما تريد، فسوف تدلك على الفور إلى الطريق.

فعل الأمير ما قالته العظاية بالضبط، وحيا العجوز وأبلغها تحيات العظاية، ففرحت العجوز بشدة، وسألته: ما الذى حملك إلى هنا يا بنى؟

فأخبرها الأمير بحكايته فقالت:

- اسلك هذا الطريق أمامك، ولا تحد عنه حتى تصل إلى غابة كبيرة، ووسط هذه الغابة ستجد قصرا من ذهب فيه نافذة مفتوحة وبمجرد أن ترى القصر من بعيد اربط ذيل حصانك، ولكن بحيث لا تفلت شعرة واحدة منه خارج حلقة الرباط، وإلا فسوف تهلك أنت وحصانك ولا تنال شيئا مما تطلبه. عندئذ تقفز داخل القصر من خلال النافذة المفتوحة ستجد أمامك الجنية الحسناء هيلانة، وهى تفوق فى الحسن كل نساء العالم، ولكن عليك ألا تحاول مخاطبتها، فقط اقترب منها وانتزع شعرة من رأسها، ثم اربط بهذه الشعرة منقار الشرشور ذى الصوت الذهبى الذى ستجده فى قفص فوق رأس هيلانة. وعلى يسار الجنية هيلانة ينبوع ماء متدفق هو ينبوع الصبا، وعلى يمينها ينبوع آخر هو ينبوع ماء الموت املأ إبريقك ثم اخرج بنفس الطريقة التى دخلت بها؛ ثم أعطته فرشاة

وبيضة ومنشفة، وقالت له:

- استعن بهم إذا أحسست بالخطر.

فعل الأمير ما قالته العجوز بدقة، ولكن أثناء خروجه من القصر وفى اللحظة التى كان يقفز بها من شباكه، أفلتت شعرة من ذيل الحصان خارج الرباط ولمست أحد حوائط القصر فارتج القصر، وضربت أجراس الإنذار فى كل مكان واستيقظت الأميرات وعرفن بوجود غريب داخل القصر وأسرعن فى اتجاه الأمير الذى جرى بسرعة كبيرة، ولكنه شعر أن الأميرات يقتربن منه جدا، وأدرك أنه سيقع فى أيديهن، فألقى الفرشاة فتحولت إلى غابة كبيرة كثيفة، ولكن الأميرات نجحن - بعد فترة - من الخروج منها ومواصلة العدو خلف الأمير، فلما أصبحن على مقربة منه ألقى الأمير البيضة فانشقت الأرض وانبثق منها جبل شاهق، ولكن الجنيات تمكن - أيضا - ولكن بمشقة وجهد من ارتقائه ومواصلة مطاردة الأمير الذى لم يجد أمامه حيلة إلا إلقاء المنشفة آخر الأسلحة التى زودته بها العجوز، فتحولت إلى محيط ضخم فعجزت الجنيات عن اجتيازه وتابع الأمير سيره آمنا مطمئنا.

وفى طريق العودة، وعلى مفترق الطرق قابل شقيقيه، وكأنهما كانا ينتظرانه، وبمجرد أن وقعت عيناهما عليه وهو يحمل العصفور والإبريق به ماء الصبا والموت أخذ الشرر يتطاير من عينيهما، والحقد يملأ قلبيهما. أدرك الشقيقان أن الثلث الأخير من مملكة أبيهما سيذهب ويضيع مع كل أمل فى الحكم والملك؛ فاتفقا على أخيهما الأصغر وانقضا عليه وسلباه ما يحمله وأمراه بالتنكر فى ملابس سايس خيل، واصطحباه معهما للعمل فى إسطبل القصر، وهدداه بالقتل إذا كشف حقيقته، أو تحدث بما وقع بينه وبين شقيقيه لأى إنسان.

قدم الشقيقان العصفور ذا الصوت الذهبى، والإبريق المملوء بماء

الصبا وماء الموت لأبيهما، فسُرَّ بذلك ومنحهما الجزء الأخير من المملكة، ولما كان الأمير الصغير لا يستطيع الظهور مرة أخرى، فقد هيأ الشقيقان نفسيهما ليكونا ملكين للمملكة بأسرها!

وذات صباح لاحظ الملك ظهور جسر ذهبى داخل قصره، وعلى منتصفه رأى الجنية الفاتنة هيلانة، وهى تقف غاضبة متحدية. التفتت هيلانة إلى الملك وقالت:

- إن أحد أبنائك هجم على قصرى واختطف عصفورى أريد أن أراه فورا.

تقدم الأمير الأكبر إلى الجنية، ولما وصل إلى منتصف الجسر، ووقف أمام هيلانة، سألته:

- أنت الذى دخل إلى قصرى؟

فأجاب:

- نعم، هو أنا.

فقالت هيلانة:

- إذا كنت أنت حقا من جاء إلى قصرى وأخذ عصفورى، فقل لى، أين كان ينبوع ماء الموت وينبوع ماء الصبا؟

ارتبك الأمير، ولم يجد إجابة على سؤال هيلانة فصمت قليلا، ثم لوى عنان جوده ورجع مرة أخرى. ثم تقدم الشقيق الثانى فتكرر معه ما حدث مع أخيه، وعاد هو الآخر من حيث أتى.

صرخت هيلانة بأعلى صوتها مخاطبة الملك:

إذا لم يظهر من دخل قصرى وسرق عصفورى الآن، فسوف أدمر مملكتك كلها.

وفى هذه اللحظة تقدم الأمير الأصغر وطلب من الملك مواجهة الجنية، فسمح له الملك بذلك، وهو لم يعرف بعد أنه ابنه الأصغر.

ولما واجهته الجنية بسؤالها، أجاب بسرعة:

- لقد كان ماء الصبا إلى يسارك، وماء الموت إلى يمينك.

فبادرته الجنية بسؤال آخر، فقالت:

- ماذا فعلت بعصفورى؟

فرد - أيضا - بدون تردد:

- أغلقت منقاره وربطته بشعرة واحدة كنت قد انتزعتها من رأسك.

عندئذ اقتربت هيلانة الفاتنة من الأمير فاتحة ذراعيها وقالت له:

- أنت حبيبى الذى خلصنى من قيودى، لقد عشت قبلك سنوات طويلة فى شقاء وألم حتى أتيت أيها الفارس الشجاع، وأزلت عنى تأثير السحر الذى أذاقنى كل ألوان المرارة، وحكم على أن أعيش فى جلد عظاية قبيحة.

ظهرت على وجه الأمير - فجأة - علامات الدهشة والاستغراب، وقبل أن يسأل فهمت الجنية ما يفكر فيه، وقالت:

- نعم، لقد كنت أنا تلك العظاية التى قابلتها عند الجسر الحجرى، فى طرف المملكة البعيد.

وتقول الأسطورة: إن الأمير الأصغر تزوج الجنية الحسناء، وأقيمت الأفراح فى كل أرجاء المملكة لمدة أسبوع كامل، أما الشقيقان الآخران فقد هربا ولم يعرف أحد - حتى الآن - أين ذهبا، أو أين يختفيان.

* * *

عيد العشاق

من الأساطير التى كانت شائعة عند الرومان قبل مولد المسيح، أن «روملیوس» مؤسس مدينة روما أرضعته ذات يوم ذئبة فأمدته بالقوة ورجاحة الفكر، وقد كان الرومان يحتفلون بهذه الحادثة فى منتصف شهر فبراير فى كل عام احتفالا كبيرا، يذبح فيه كلب وعنزة، ويدهن شابان مفتولا العضلات جسميهما بدمهما، ثم يغسلان الدم باللبن.

وبعد ذلك يتقدم الشابان موكبا من أندادهما فى السن يطوف طرقات المدينة ومعهما قطعتان من الجلد يلطمان بها كل من يصادفهما. وقد كانت النساء يعرضن أنفسهن لتلقى هذه اللطمات مرحبات، لاعتقادهن بأنها تمنع العقم وتشفيه.

وفى السنوات الأولى بعد الميلاد، تغيرت نظرة القوم إلى الاحتفال ولم تعد النساء يرين فى لطمهن بالجلد علاجا من العقم، وصار الاحتفال فرصة يتيسر فيها اللقاء بين الشبان والشابات.

وفى عام ٣٠٠٠ بعد الميلاد صار يوم ١٤ فبراير عيدا للعشاق، وسمى باسم القديس «فالنتين» شفيع العشاق وراعيهم.

وكان من مراسم الاحتفال بهذا اليوم، أن تكتب أسماء الفتيات اللائى فى سن الزواج فى لفافات صغيرة من الورق توضع فى طبق على منضدة، ويدعى الشبان الذى يرغبون فى الزواج ليخرج كل منهم ورقة، فيضع نفسه فى خدمة صاحبة الاسم المكتوب فيها لمدة عام، يختبر كل منهما خلق الآخر، ثم يتزوجان، أو يعيدان الكرة فى العام التالى يوم العيد.

ولكن رجال الدين ثاروا على هذا التقليد واعتبروه مفسدا للخلق، فنجحوا فى إبطاله فى إيطاليا، ولم يكن العيد معروفا فى بلاد الغرب

الأخرى حتى ذلك الحين.

وفى العصور الوسطى، أحيا الشبان هذا العيد، لا فى إيطاليا وحدها، وإنما فى إنجلترا أيضا.

وكان الشبان والشابات والرجال والنساء فى إنجلترا يقضون ليلة العيد فى سمر ومرح حتى الصباح، فى أفنية دور العبادة أو الحدائق المتصلة بها.

وفى القرن السابع عشر، بدأ العيد يأخذ طابعا آخر، فيتبادل فيه المحبون بطاقات التهنئة من غير أن يذكروا أسماءهم. فكانت فرصة طيبة للخجولين منهم، تتيح لهم التعبير عن مكنون عواطفهم بغير حرج.

وكان الشعراء والكتاب يتبارون فى كتابة قصائد وموضوعات عن الحب؛ تحية للعيد.

وقد كانت بعض هذه البطاقات تطرز على أقمشة حريرية رقيقة وبطريقة فنية رائعة، حتى لقد بلغ ثمن بعضها نحو عشرة جنيهات للبطاقة الواحدة، وبعضها كان يحتوى على لوالب إذا لمست رفعت الطبقة العليا، وظهرت من تحتها صورة جميلة أو عبارة رقيقة.

وقد تفننت دور الطباعة فى إخراج هذه البطاقات وما عليها من الأشعار والعبارات المناسبة.

ثم انتقلت عادة الاحتفال بهذا اليوم من أوربا إلى أمريكا. وأصبح الاحتفال بيوم «فالنتين» من الاحتفالات الكبيرة، يلى فى أهميته عيد الميلاد مباشرة، بالرغم من منافسة يوم الأمهات ويوم الآباء ويوم ٤ يوليو له، وأصبحت تصنع له أنواع خاصة من الحلوى والشكولاتة والأطعمة تعرف باسم «فالنتين»، وأصبح أغلب الأمريكيين يتشاءمون إذا لم يساهموا فى الاحتفال بهذا اليوم.

أساطير الحيوانات

* أسطورة العنقاء
* أسطورة الهامة
* أسطورة البقرة
* أسطورة القط والديك والثعلب

العنقاء

عندما غمرت مياه الفيضان الوادى لم تترك سوى القرى والمرتفعات، وشاهد أوائل قدماء المصريين طائرا جميلا يخوض الماء أحيانا، ويجثم على الأكام أخرى، إنه بحق ملك العالم المائى. إنه الحزين الرمادى، ذو المنقار الطويل المستقيم، وتزين رأسه ريشتان ممتدتان إلى الخلف. يبدو يقفز من الماء عند الفجر الوردى، كما فعلت الشمس عند الصباح الأول. عبد هذا الطائر فى هليوبوليس مع الشمس نفسها والحجر الغريب، الذى جاء إلى الوجود عند بدء الخليقة، إذا ما جثم ذلك الطائر على شجرة الصفصاف المقدسة بتلك المدينة العظيمة؛ كان أمارة على الفرح والأمل، أشبه بعودة البجع إلى قمم سقوف منازل الألزاس فى أوربا. «عادت العنقاء!» وكل طفل يولد فى ذلك اليوم يحتفظ فى اسمه بذكرى تلك اللحظة المدهشة.

تظهر العنقاء فى الصباح تتألق فى مجدها، أشبه بالشمس التى هى صورتها وهى كالشمس فى أنها خلقت نفسها وسط المياه الأولى لخلق العالم، وكالشمس - أيضا - فى كونها تحكم على دورات من ثلاثين سنة، وأعياد إعادة الشباب.

بالغ الإغريق فى هذه المعتقدات، وألفوا أسطورة الطائر العجيب. واشتقت كلمة من اللفظ المصرى بنو، فمن مولده الشبيه بمولد الشمس، ومن حكمه على الدورات الزمنية، خلقوا أسطورة الطائر الذى قتل نفسه وسط اللهب، ثم ولد ثانية من رماد جسمه المحترق، والذى كان يظهر فى فترات منتظمة تبلغ كل منها عدة سنوات (٥٠٠) ،سنة تبعا لإحدى الروايات، وألف سنة تبعا لرواية أخرى. وأخيرا اعتقدوا أن عودته فى فترات منتظمة تنبئ بأحداث هامة.

الهامة

والهامة: طير الليل، وهو الصدى، والجمع: هام وهامات. ومن معانى الهامة: اليوم، وتدل مادة هيم على العطش.

والهام: داء يصيب الإبل فتشرب ولا تروى.

«الهامة»: فى معتقدات العرب الجاهليين التى أنكرها الإسلام وأبطلها من خلال القول المأثور: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة»، وتسمى أيضا: الصدى.

والهام: طائر يزعمون أنه يخرج من رأس القتيل الذى لم يؤخذ بثأره فيزعق عند قبره ويقول: اسقونى من دم قاتلى.

فإذا أخذ بثأره طارت.

ومن مزاعمهم أن ذلك الطائر يكون صغيرا، ثم يكبر حتى يصير فى قدر البوم، ويسمونه هو - أيضا - الهام، وأنه يتوحش ويصيح، ويوجد فى الديار المعطلة الخالية من أهلها، وحيث مصارع القتلى وأجداث الأموات، وكانوا يقولون - أيضا - : إن الهام لا يزال عند ولد الميت وتخلفه ليعلم ما يكون بعده فيخبره.

وهكذا، ومهما يكن من أمر الهام، وسواء اعتبرناها البوم أو طائرا أسطوريا وهميا يخرج من رأس الميت فإنا أمام رمز من رموز الظلام والعطش والموت، وواسطة بين عالم الموتى وعالم الأحياء؛ بما أنها تطالب بالثأر وتخبر الميت بما يكون بعده.

* * *

محاكمة بقرة

هذه الأسطورة ورد ذكرها بين ما ذكر عن محاكمة الجماد والحيوان، التى كانت تمارس فى أوربا كلها وإلى عصور متقدمة.

وهذه الأسطورة من بين (٩٢) محاكمة من هذا النوع عثر بعض الأثريين الفرنسيين على وثائق خاصة بها.

وهذه الأسطورة عن بقرة حوكمت، وأدينت، وحكم عليها بأقصى العقوبة بالشنق!!

انقشع الضباب - قليلا - صباح هذا اليوم عن سماء المدينة الصغيرة النائمة على طرف من أطراف المزارع الشاسعة فى مقاطعة نورماندى الفرنسية، فإذا بالأب «كليمن» يلمح ثورا صغيرا فرحًا راقصا طروبا من فرجة الستائر المسدلة على نافذة غرفته الباردة. إنه لم ينم طوال ليلة أمس، فقد ترك مجمع الآباء والإخوان من رهبان الدير بعد صلاة المساء وانزوى فى غرفته يقرأ فى التوراة ويتأمل هذا النبى الذى ستدور حوله محاكمة الغد.

ومن بين سطور الإصحاح التاسع من سفر التكوين، كانت صورة الأب «دومنيك» تقفز إلى عينه لتغيظه، فيقرأ بصوت عال حتى لا يراها، ويعيد يقرأ والنص واضح بارز يعلو على القصة. قصة نوح بكل ما فيها من جمال.

لقد أرسل نوح الحمامة وعادت إليه بغصن الزيتون بشارة له بأن السماء أقلعت وغيض ماء الأرض فباركها ثم ها هو ذا ينزل من فلكه وقد رسا على قمة الجودى، ذلك الجبل الذى تواضع ولم يشمخ بقمته يوم فار التنور، فاحترمه الطوفان لتواضعه، وباركه الله بأن أنزل الحياة من الفلك عليه.

وهذا هو صوت الرب فيما تروى التوراة يطمئن نوحا - بعد أن أهلك الكافرين وابن نوح من بينهم - بأن الطوفان لن يصيب الأرض بعد اليوم.

إن الإنسان من نسل هذا النفر القليل الذى آمن ودخل الفلك مع نوح سيكرم، إلا من عصى ربه فإنه سينال الذنب وحده، إن دم الإنسان سيكون غاليا على الرب. وفى الإصحاح التاسع قرأ الأب «كليمن» للمرة العشرين:

«وأطلب أنا دمكم لأنفسكم، من يد كل حيوان أطلبه، ومن يد الإنسان أطلبه، ومن يد أخيه الإنسان أطلبه. سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه؛ لأن الله على صورته خلق الإنسان».

كلمات صريحة لا ريب فيها، فكيف يكون المخرج من هذا المأزق؟ ودارت حياته أمامه؛ كأنها شريط سينمائى مقطع خاطف سريع: طفولته فى روما، تعلمه المذهب الكاثوليكى على نوابغ الرهبان والقسس، ثم قبوله فى الدير، وأمه تلك الرائعة الجميلة التى يقال: إنها تشبه جدة بعيدة لها، كانت من فلسطين، وتزوجت بجده الأعلى، إبان الحروب الصليبية، إن صورتها تلم به فى الأزمات فتخفف عنه الألم.

وبسرعة يذكر يوم دخل هذا الدير منذ أسابيع قليلة، تلك المدينة الهادئة الجميلة التى لا يحدث فيها شىء أبدا، إنها أبرشية صغيرة لا أكثر، ومع ذلك يأتى إليها الفلاحون صباح كل أحد أفواجا بأطفالهم وطعامهم وروائحتهم ووجوههم البلهاء والهادئة المطمئنة، لا شىء يقلق بالهم أبدا، بهجة عيد وحزن ميت، وفرحة مولود، ثم رتابة تتلوها رتابة. ولكنهم اليوم سيتوافدون على فناء الكنيسة كما لم يتوافدوا منذ سنوات وسنوات. إن حادث البقرة اللعينة قد قلب حياتهم انقلابا شنيعا. لا حديث لهم إلا الصبى البائس الذى انكفأ على وجهه من أعلى الربوة فرارا من البقرة الهائجة وقد عدت خلفه، ثم دمه الزكى القانى وقد صبغ

الأرض، ثم جثته الهامدة، وصرخة أمه ترددها البرارى الشاسعة، فإذا صداها مريع، والقرية كلها من ورائها تردد الصوت والنواح.

والبقرة قد سبقت إلى فناء الكنيسة وعيق أبى الصبى مطالبا بمحاكمة البقرة. ثم آخر هذا اليوم المشئوم وقد أسدل الليل ستره القاتمة، وعلى نور المدخل الذى كادت الريح أن تطفئه، وقف الفلاح البائس يقرع الباب قرعا خفيفا حتى فتح الأب «كليمن» له، وأدخله فناء الكنيسة، ثم سار معه إلى القاعة الكبرى جوار المصلى، وعلى ضوء الشموع الخافت المرتعش، وبمحضر من الخيالات الراقصة على الصور والرسوم على جدران المصلى أخذ المسكين يروى فى تلعثم قصته:

«إن البقرة يا سيدى الأب مظلومة. كانت ترعى. الصبى ورفاقه أغاظوها لم تتمالك أن عدت فارة منهم. نافرة من لعبهم السمج. الصبى هيئ إليه أنها تلاحقه. كانت فى الحقيقة هاربة منه. سيدى الأب ماذا أفعل من دون البقرة؟ أنا وأولادى وزوجتى الطيبة الطاهرة، إنها البقرة هى كل ما سمح لنا به السيد صاحب المزرعة؛ منها نأكل، فإذا شنقت غدًا ماذا يحدث لنا.

سيدى الأب تول أنت الدفاع عنها شفقة بى؛ فلقد سمعتك الأحد الماضى تلقى الموعظة نيابة عن أبينا المريض - شفاه الله وعافاه - فكنت ساحرا رائعا مقنعا فى حججك. ثم هوى الفلاح على قدمى الأب يقبلهما ويتضرع.

ولم يسع الأب «كليمن» إلا أن يقبل التوكيل عن البقرة وقد حسب الأمر هينا يسيرا، ولكنه بعد أن أحاله الأب «دومنيك» فى غطرسة وبرود إلى نص القانون المعمول به فى مثل هذه الأحوال فى هذه المنطقة وقف وحار واضطرب.

وقرأ وأعاد «وأطلب أنا دمكم لأنفسكم من يد كل حيوان أطلبه». يعنى من يد هذه البقرة. وتراءت له صورتها، وكان أول أمره قد فتن بشكلها - نظافتها، ألوانها البيضاء، والبنية اللامعة، والصحة البادية فى خطواتها، ونظراتها.

ولكنه اليوم لم يعد يستطيع أن يحتمل نظراتها الكبيرة البلهاء الضائعة فى غباء.

آه لو كان لها شىء من ذكاء لجنبت الفلاح المسكين محنته والأب كليمن أزمته.

وعاد الضباب من جديد وعاد الأب كليمن يحاول النوم فى صباح هذا اليوم ولكن النوم جافاه وعانده؛ فقام، وارتدى ملابسه فى تثاقل وضيق صدر، ونزل إلى غرفة الطعام ليفطر. ولكن البقرة اللعينة كانت ترى من نافذة غرفة الطعام.

هناك فى الفناء، تحت السقف الصغير، تزدرد الحشائش التى جاءها بها الفلاح، وكأن شيئا خطيرا فى هذا المكان لم يحدث.

أيصرخ فى وجهها؟! كيف إنه المدافع عنها فى هذا اليوم المشئوم ولابد أن يسود السلام بينه وبين موكلته العزيزة؟! ولم يملك أن علت شفتيه ابتسامة صفراء. ما أعجب الناس! وما أطرف ما يقضون فيه الحياة!

وما أن عاد نور الصباح إلا وينير المكان حتى أخذت وفود الفلاحين تتوافد على فناء الكنيسة الصغيرة، ففتح لهم الأب الأكبر الأبواب فدخلوا واصطفوا على المقاعد صاخبين متناقشين فى حماس عجيب لم تشهد مثله المدينة الصغيرة من قبل. بل إن الأصوات التى ملأت الكنيسة فى هذا الصباح كانت كفيلة بأن توزع على عشرات الأعوام من عمر هذه الكنيسة فتملأها بأكثر مما اعتادت أن يتعالى فى سقفها من صوت. ذلك

أنه لم يسبق أن حدث فى فنائها، بل فى قاعة الصلاة الكبرى أن ارتفع صوت إلا فى وقار وهدوء، وصاح فلاح صاخب: «أراهن بخروف؛ أن البقرة ستدان».

ورد عليه آخر: وهل هذا يحتاج إلى رهان ؟!

وعاد الأول يقول «ولكن الأحمق هنا يقول: إن الأب كليمن سينجيها ببلاغته».

فنظر الناس إلى هذا الأحمق فتلعثم، وقال: ما لا يفهم، وضحك الناس منه، فانزوى يهز رأسه فى يأس واشمئزاز.

ودق الأب الأكبر على الطاولة المعدة للمناسبة، وهو يجلس خلفها على كرسيه، وعن يمينه عضو اليمين وعن يساره عضو اليسار - وفى أثناء ذلك أدخلت البقرة المتهمة فى قفص الاتهام فى زاوية قرب مدخل الآباء على القاعة ولم تحدث صوتا ولولا أن رآها أحدهم ودل على دخولها ما أحس بها أحد فقد علقت عيون الناس وآذانهم بحركات الآباء وهم يأخذون مجلسهم من المنضدة الكبيرة فى وقار وقد لبسوا للمناسبة ملابس لم ير لها الناس مثيلا، ثم دخل الأب «دومنيك» ممثل الاتهام واثقا من نفسه رافعا رأسه ومعه الأب كليمن أصفر اللون باهت الملامح؛ من عناء السهر والتفكير.

وقال ممثل الاتهام:

«أيها السادة، إن الأمر لا يحتاج إلى بيان، إن البقرة اللعينة قد سفكت الدم الزكى لصبى من بنى الإنسان، وكلكم شاهد عيان، فالأمر لا يحتاج إلى تحقيق ولا إلى شهود، ذلك أن روحًا شريرة قد تملك هذا الحيوان فإذا ترك على هذه الحال فإن مصيرنا جميعًا سيكون مصير هذا الصبى المسكين».

«أيها السادة، إن الله قد أمرنا بأوضح بيان أن نطلب باسمه دم الإنسان من يد الحيوان إذا سفكه والنص على ذلك فى «الإصحاح التاسع» من «سفر التكوين» لا يحتاج إلى تذكير، فقد سمعتموه يتلى كثيرا فى هذه الأيام؛ بهذه المناسبة، ولكن لمجرد التأكيد والبيان أذكركم بالفيلسوف الأعظم «أفلاطون» الذى بعثنا علمه وفلسفته فى هذا الزمان السعيد لنسترشد بهما فى نهضتنا المباركة، إنه يقول فى كتابه «القوانين» ما نصه:

إذا قتلت دابة أو أى حيوان إنسانا إلا فى حلبة المصارعة فإن من حق أهل القتيل المطالبة بدم الحيوان، وليكن القضاة ممن يختارهم الأهل من مفتشى الأرض. فإذا ثبت أن الحيوان اقترف الجرم فإنه يقتل ويلقى به خارج حدود الوطن.

ثم أضاف بثاقب فكره «إن الجماد - أيضا - إذا تسبب فى ذلك؛ لابد من أن يحاكم وأن يلقى به خارج حدود الوطن».

هذا أيها السادة ما وصل إليه العقل الجبار من عدالة فلا تأخذنكم بهذه البقرة الشفقة بعد أن دخل فى جوفها روح الشيطان، بل لا تأخذنكم الشفقة على صاحبها المسكين؛ لأنه من فرط غبائه، لا يدرك أنى هنا فى الواقع أدافع عنه حين أطالب بدم البقرة، إن لعنتها ستنسحب على صاحبها، كما تنسحب لعنة الرمح الباغى القاتل على صاحبه. إن البقرة من صاحبها وهو منها وستسرى روح الشيطان منها إليه. اشنقوها إذن وعلقوها لتكون عبرة لسائر البقر.

إننا أيها السادة فى القرن الثامن عشر عصر التقدم والاحترام، عصر الكرامة الإنسانية، إننا لا نطالب بدم أى بقرة أخرى كما كان بعض أسلافنا يفعلون تهربا من تطبيق القانون فتحل عليهم اللعنة، كلا، إننا لا نريد أيا من صنف البقر أو الحيوان الذى بغى، كلا، إننا نعيش فى عصر يحمل فيه كل منا مسئولية نفسه؛ لقد بغت البقرة فلتدفع هى وحدها

الثمن، بالله خبرونى ما ذنب سائر البقر. وما ذنب صاحبها المسكين إنها ملزمة ومسئولة عما فعلت وهى وحدها التى تزر وزر ما قدمت من إثم فظيع.

وما إن وصل الاتهام إلى هذا حتى كان قلب الأب «كليمن» قد كاد يتوقف وأحس برعدة تسرى فى جسده، وبرودة فى أطرافه، ولكن الناس فى حماسهم وصخبهم وصفيرهم وتصفيقهم لم يعيروه أى اهتمام. واضطر الأب الأكبر أن يدق على الطاولة مرارا ليعيد إلى القاعة النظام، ثم وقف الأب «كليمن» وبدأ يتكلم فلم يسمع صوته إلا قلة من الصفوف الأولى. وقرع الطاولة الأب الأكبر فى عنف وساد القاعة صمت:

أيها السادة، إن موكلتى البقرة بريئة، انظروا إليها، تمعنوا منظرها «وهنا التفت الناس إلى البقرة وعلقوا فى همس: ماذا يمكن لهذا الحيوان أن يعقل؟ ماذا يمكن لمثل هذا الحيوان - الذى نأخذ منه لبن صغاره فلا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه - أن يكون عنده من إرادة. أحقا أن مثل هذه البقرة البائسة يمكن أن تقتل صبيا؟ وما صالحها فى هذا القتل»؟

يا حضرات السادة، إن موكلتى البقرة بريئة؛ لأن أم الصبى أهملت ابنها فتركته يرعى مع البقرة!.

وهنا علا صوت المرأة: «أما كفانى ما أنا فيه من بؤس وشقاء حتى يجىء الأب الكريم ليلوم ويقرع؟! بالله عليكم يا حاضرون، أفى موقف اللوم أنا اليوم؟ وا ولداه! وا ولداه».

وفغر الأب الأكبر فاه. أهذه أم الصبى؟ يا للسخرية، إنها تريزا العزيزة التى تجيئه كل حين باعتراف جديد ولم يملك أن قال لنفسه: «ويحك من ممثلة بارعة يا سيدة تريزا! هذا الصبى ابنك، ولكن، ترى من أبوه عندك»؟ ثم نظر إليها فى حزم فجلست مولولة يهبط صوتها من علو إلى

خفوت فى سرعة. فقد أدركت معنى نظرته ولكن حماس الجمهور لم يهبط بمثل هذه السرعة، فقد بكى بعضهم وعلت شهقات النساء وصرخت إحداهن فى وجه البقرة متوعدة.

وهنا وقفت زوج الفلاح صاحب البقرة - فى عصبية ظاهرة - وقد هالها أن تكسب أم الصبى هذا العطف وصاحت: «يا سيدة تريزا إن ابنك قد مات ولن يحييه موت هذه البقرة ولا حياتها ولكن ما قولك فى أبنائى الذين سيموتون جوعا إذا ماتت هذه البقرة؟ هل فكرت فى ذلك؟.

ونظر إليها الجمهور ولم يسمع من كلامها شيئا؛ إن جمالها لافت للنظر، شعرها الفاحم النادر وعيناها الخضراوان بأهدابها السود ما أجملها!! وجلست وسط سكون لم تدرك سببه. لقد كان هدأ الجمهور من روعة ما رأى.

واستطاع الأب «كليمن» أن ينتهز هذه الفرصة ويلم أطراف الموضوع فاستأنف:

- أيها السادة، أنا أعلم أن القانون يأمر بأخذ الثأر من البقرة، ولكن أى قانون هذا؟ إن العقل هو معجزة الله فى خلقه، إنه أرقى ما فى خلق الله وأرفعه شأنا. ألا ما أشد بؤس الناس إذا لم يعملوا بهذا العقل، وعاشوا حياتهم كالدواب يطيعون ولا يفكرون لابد أيها السادة من أن نحكم العقل، لابد من أن نراجع القانون، لابد من أن نغلب فائدة الحى على فائدة الميت.

نعم، ماذا يجنى أبو الصبى أو أمه من قتل هذه البقرة البائسة، بينما فى حياتها، حياة أسرة تعودت الحياة على خيراتها.

ولكن البقرة اللعينة حلا لها فى هذه اللحظة بالذات أن تخور خوارا مزعجا أضحك الحاضرين فذهبت جهود الأب كليمن أدراج الرياح.

وصحا الأب الأكبر على خوار البقرة، ذلك أن النعاس الذى ينتهز فرصة الدفء والفراغ؛ فيزحف على عينيه؛ قد كان يعلن سلطانه فى مثل هذه المناسبات، ولكن صيحة الأب «دومنيك» لم تدع له فرصة فرك عينيه؛ ذلك أنه فى ثورة يطلب مقاطعة الأب كليمن. والأب الأكبر يرتاح للرفيق القديم «دومنيك» ولا يرتاح عادة لهذا الساهم الجديد الذى يثير بعض المشاكل فى النقاش - دائما - منذ جاء.

وبحركة آلية وعلى أسماع الحاضرين أعطى الكلمة للأب دومنيك. فقال:

- أيها السادة، القانون هو القانون، كيف يمكن لمجتمع أن يعبث بالقانون ثم يؤمل بعد ذلك فى حياة، أو سعادة أو فلاح؟ إن أساس الحياة هو الاستقرار، والطمأنينة هى سر الانكباب على العمل، فاذا علم القوم أنهم كل يوم فى حال وكل ساعة تتغير النظم، فكيف تراهم يسيرون؟ وماذا يفعلون وهم جاهلون بيومهم غير مطمئنين إلى غدهم؟

وهنا قاطعه الأب «كليمن» فى قوة:

- سيدى الأب، إنى لم أقاطعك حين تكلمت، لقد قلت ما شئت وأنا أنصت إليك أفلا تسمح لى بأن أستمر فى دفاعى؟

وحدث هرج ومرج، ودق الأب الأكبر بقرعته، وساد القاعة صمت مترقب من جديد.

- أيها السادة، أنا أعرف مقام القانون فى المجتمعات، ودوره فى الاستقرار والاطمئنان، ولكن، كيف يمكن للإنسان أن يتقدم فى الحياة إذا ظل أبدا يسير على قانون الآباء؟ ما القانون؟ أليس من صنع البشر؟ إن القانون الإلهى واسع عريض، وللبشر أن يتصرفوا فى إطاره العام بعقولهم بما يصلح لكل زمان من أزمنتهم على هذه الأرض. لقد ورد فى «سفر

التكوين» فى «الإصحاح التاسع» «وأطلب أنا دمكم لأنفسكم من يد كل حيوان أطلبه» فلماذا لا نأخذ بحرفية القانون وندع الأمر لله يطلب بنفسه - سبحانه وتعالى - دم هذا الصبى من هذا الحيوان؟

إن القانون لا يعنى ذلك، إن الله يتحدث ويؤكد حرمة دم الإنسان إن المقام مقام تأكيد لنوح بأن دم أبنائه سيصبح بعد اليوم عزيزا على الله يجازى كل من يسفكه ولو كان حيوانا.

أما أفلاطون فما لنا وما له إنه إنسان مثلنا، له عقل مثل عقولنا، بل إن راوى التوراة إنسان مثلنا، أيها السادة حكموا عقولكم.

وسرت فى القاعة همهمة ولكن صوت الأب كليمن أخذ يعلو طبقات فى حماس وقوة.

لو سار الإنسان طوال الحياة عبدا لحرفية قانون قديم ما تقدم خطوة، ولا استطاع أن يخترع هذه المخترعات الحديثة التى طبقت فائدتها الآفاق، وجعلت من القرن الثامن عشر فجر عصر جديد على الإنسانية كلها إن العقل البشرى يصدأ إذا لم يعمل وويل للبشرية - بل للإنسان الفرد - أيضا - من العقول الصدئة. إن الحياة دون تفكير لا طعم لها ولا وجود. إن القانون يخدم البشر ولا يمكن أن يكون القانون قد وضع لخدمة البشر، وموكلتى تلك البقرة المسكينة أليست ذات نفع لكم، فإذا ثبت أنها تضر وتستمر فى الضرر وضررها أكثر من نفعها عندئذ اقتلوها كما تقتلون الحشرات، ولكنها جعلت أصلا لتخدم البشر لا لتضرهم. إن زميلى الذى وقف فى مثل هذه المحكمة منذ خمسين عامًا أو نحوها ليدافع عن أسراب الجراد التى أغارت على زرع الفلاحين لم تكن عنده حجة واحدة يبرئ بها موكليه، ومع ذلك كانت المحكمة رحيمة رءوفة، فأقطعت الجراد مكانا قصيا من المزارع ليعيش عليه فلما بغى وأبى أن يظل حيث هو أحلت قتله، أما أنا فلا أطلب أكثر من إعطاء فرصة للبقرة

لتثبت لكم أنها خيرة طيبة نافعة لكم، ومع ذلك، إنى ما زلت أصر على أنها من قتل الصبى بريئة.

هل رأيتم قبلها بقرة تعدو وراء الصبيان لغير ما سبب؟ هل رأيتموها هى ولها أربعة أعوام ترعى فى الحقل تعدو وراء صبى لتخيفه أو لتقتله؟ ثم تعالوا نتساءل أهى التى سفكت دم الصبى حقا؟! إن الصبى وقع من فوق الربوة وأنا مكانكم أحاكم الربوة لا البقرة؛ لأنها لو لم تكن عالية لانزلق الصبى من عليها دون أن يصاب بأى ضرر. صدقونى أيها السادة، إن موكلتى البقرة بريئة.

واضطر الأب «كليمن» أن يتوقف فقد علا شخير الأب الكبير، وعضو اليسار يسر فى أذنه شيئا والأب يقرع فى حركة عصبية مقرعته، والقاعة تعلوها همهمة، والدنيا تغيم فى عينى الأب كليمن. لا البقرة ولا الأب يريدان له أن يصل إلى إقناع الجمهور فقد حلا لكل منهما أن يكسر دورة الحماس بخوارها، وأخذ يحس ببرودة أطرافه مع أن القاعة دافئة من أنفاس من اكتظوا فيها. ثم ماذا يمكن أن يقال لمثل هؤلاء؟ العقل، الحركة، الثورة على الجمود، إن أركان فرنسا كلها لابد أن ترتج قبل أن يصحو هؤلاء من سباتهم. إن أنفاسها يجب أن تصعد محرقة إلى السماء قبل أن تعكر صفو راحتها.

فكرة. لابد من صرخة جبارة تحرك وتغير، ما أظلم الظلام المخيم على عقولهم، حسبهم أكلة ونبيذ عتيق ولكنهم سيصحون يوما على لا أكل و لا نبيذ.

وأحس الأب دومنيك أن الفرصة مواتية فقال:

أيها السادة إن الأب «كليمن» عن بيئتنا غريب. إنه يأتى بأفكاره العجيبة تلك ليثبت فينا نزعة شريرة للخروج على تعاليم آبائنا. إنه لا يدرك أن

عظمة الكون كله فى اضطراد القانون ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] أيستطيع العقل البشرى الجبار أن يغير من هذا القانون شيئا؟ إن عظمة الخالق تتجلى فى سريان هذا القانون أجيالا وقرونا بل ومئات القرون دونما تغيير﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. إن حرمة القانون هى سر العظمة فى كل نظام فى كل كنيسة فى كل مجتمع.

وهنا صرخ الأب كليمن: «إن القانون الذى يضر البشر لابد أن يتغير؛ لأنه مخالف للقانون الأسمى وهو أن الله لا يرضى الضرر لعبد من عباده. ماذا يصنع هذا الفلاح المسكين إذا أنتم قتلتم البقرة. يسرق، ينهب؟

وهنا صاح رجل مكتظ سمين تفوح رائحة النبيذ من فمه: «نطالب المحكمة بأن تبدله بأخرى ها ها. إن كان للمحكمة قلب كقلب الأب كليمن ها ها»

وصاح الأب كليمن «يا هؤلاء فرقوا بين قوانين وقوانين حكموا عقولكم. أترضون أنه فى ظل رقى العقل الإنسانى الذى وصل بجبروته إلى ما وصل إليه فى هذا القرن أن تقتلوا بقرة؟ فى القرن الثامن عشر الذى ستعيش على مكتشفاته الدنيا كلها قرونا طويلة. تقتلون فيه بقرة وتتهمونها بأنها قتلت صبيا، وأنها أراقت الدم الحرام؟ يا هؤلاء أفيقوا! انفضوا الجهالة التى رانت على عقولكم، والله إذا كانت الكنيسة ستحمى هذا العبث فلا كانت كنيسة ولا كان.

وقرعت مقرعة الأب الأكبر فى عنف رهيب فلم يسمع أحد آخر لفظة فاه بها الأب «كليمن» ولكن ساد القاعة صمت رهيب عميق مريع. واندفع الأب كليمن نحو الباب خارجا. لقد صمم على أن يترك هذه

المدينة، وأخذ يعدو ويعدو حتى طلع إلى البرارى والمزارع لا يعرف أين يذهب ولا أين يتجه؟ ترى هل فى الأرض بقعة يعيش فيها للناس وللعقل بين ربوعهم مكانة وحرمة؟! ترى وأين تكون؟!

وأخذت الأصوات تبلغ مسامعه من بعيد ومن فوق أكمة وقد استخفى فى شجرة، أخذ يرقب، لقد خرج الناس وعلت أصواتهم وجىء بالبقرة «موكلتى البريئة» واستطاع من فوق الأكمة عبر البرارى والمزارع من بعيد أن يرى جسدها معلقا مشنوقا فى الفضاء هناك على نفس الربوة التى انزلق من عليها الصبى.

وصاح - حانقا كأنما هو لا يزال فى الكنيسة - : «موكلتى البقرة بريئة» ثم وقف، أتكون هذه آخر صيحة لجهالة الجهال؟ أما إنها آخر بقرة فهذا أمر قد يكون، وأما أنها آخر ضحية فهذا حتما لن يكون.

* * *

القط والديك والثعلب

في بيت من الخشب عند طرف الغابة، عاش معا قط وديك، كان القط يعمل حطابا فى الغابة، وكان الديك يهتم بشئون البيت. وهكذا عاشا بأمان وسرور.

وفى مرة من المرات توجه القط باكرا إلى الغابة وقال للديك:

- لا تفتح الباب لأحد يا «كى كى». كن نبيها، قد يأتى الثعلب المحتال فيخطفك.

حين ابتعد القط عن البيت ووصل إلى أول شجرة فى الغابة، أسرع الثعلب إلى الديك وجلس تحت نافذة البيت وراح يغنى :

أيها الديك الأمير صاحب الريش الحرير

لك أشدو أغنياتى فى عبير النسمات

أصغى الديك وأصغى ثم قال لنفسه:

«هذا غناء جميل، سوف أرى من المغنى».

فتح الديك النافذة ومد رأسه، وفى لحظة كان فى فم الثعلب.

انطلق الثعلب عبر الغابة الكثيفة قابضا بأسنانه على الديك، حاول الديك أن يتخلص من الثعلب. خفق بجناحيه بشدة، وبذل كل قواه، لكنه فشل فنادى صارخا

غابة مخيفة وثعلب خبيث

تعضنى أسنانه أنوح أستغيث

فيا أخى القط القدير أنقذ الديك الأسير

سمع القط نداء الديك فانطلق سريعا باتجاه الصوت. أدرك الثعلب

فانقض عليه وأنقذ الديك المسكين، وبعد أن عاد به إلى البيت قال له:

- يا «كى كى» لقد نبهتك فلم تستمع إلى نصحى، لا تصدق الثعلب، ولا تمد برأسك خارج النافذة. لو وقعت ثانية بين أسنان الثعلب، فلن يترك منك عظمة واحدة.

فى اليوم التالى خرج القط إلى العمل مبكرا كعادته، وحين دخل الغابة تسلل الثعلب، واختبأ تحت النافذة وراح يغنى أغنيته.

غنى الثعلب وغنى وأعاد الغناء مرة ثانية ومرة ثالثة، لكن الديك لم يظهر، ظل صامتا داخل البيت، تعجب الثعلب لهذا السكون فنادى الديك:

لماذا لا أسمع صوتك الجميل يا «كى كى»؟ ماذا جرى لك يا صديقى؟

هل أنت مريض؟ يا حسرتى، إننى أحبك كثيرا يا «كى كى»، جئت أدعوك للغذاء فى بيتى، لقد جمعت لك قمحا ذهبيا من حقول الأمراء. إننى أشعر بأنك لا ترغب فى صداقتى فوداعا وداعا يا «كى كى». إنى عائد إلى بيتى.

ظل الديك على صمته عدة لحظات، ثم قفز إلى المقعد القريب من النافذة وقال لنفسه: «ربما ذهب الثعلب بعيدا، سوف أنظر».

ومد رأسه خارج النافذة فوجد نفسه فى لمحة بين أسنان الثعلب، حاول الإفلات بكل قواه، انهال بمنقاره على الثعلب، لكن أسنان الثعلب كانت أقوى منه، صرخ مناديا بصوت حاد:

غابة مخيفة وثعلب خبيث

لكن القط لم يسمع صراخ الديك، كان يقطع الحطب بعيدا فى أعماق

الغابة؛ لذلك وصل الثعلب إلى وكره دون أن يعترضه أحد.

حين عاد القط من الغابة لم يجد الديك فى البيت، فتش عنه فى كل مكان، وعندما فشل فى العثور عليه بكى من شدة الحزن. لكنه قال لنفسه بعد لحظات:

«يجب أن أفعل شيئا بدل البكاء».

صنع من شجرة الزيزفون «كمنجة»، وأخرج من الخزانة كيسا كبيرا حمله معه ومضى عبر الغابة إلى وكر الثعلب، وصل قبيل الغروب، أخرج الكمنجة وعزف لحنا جميلا.

أصغى الثعلب معجبا باللحن، أرسل ابنته لترى العازف، وحين مدت رأسها التقطها القط وأخفاها فى الكيس، تابع القط العزف وكأن شيئا لم يحدث، ازداد إعجاب الثعلب فأرسل ابنه ليرى هذا العازف البارع، وحين مد الثعلب الصغير رأسه وجد نفسه داخل الكيس، واستمر القط يعزف ويعزف، فلم يستطع الثعلب الكبير الانتظار، مد رأسه ليستطلع الأمر بنفسه، لكنه وجد نفسه فى لمحة داخل الكيس.

ربط القط الكيس ربطا متينا ثم تناول عصا كبيرة وانهال بها على الثعلب ضربا حتى وعده بأنه لن يهاجم بعد اليوم حيوانا ضعيفا.

دخل القط بعد ذلك وكر الثعلب وأطلق سراح الديك المربوط ثم عاد به إلى البيت. ومنذ ذلك اليوم عاش الاثنان فى أمان وسعادة.

* * *

أساطير عالمية أخرى

* الثواب والعقاب
* الجنيات الثلاث
* العرافة والعفريت والراعى
* اعزفى يا قاتلتى
* سر الفرح
* المرأة التى حاولت تغيير مصيرها
* جبل الفضة
* نزل الزواج

الثواب والعقاب

تورد إحدى الأساطير المصرية القديمة صورة محكمة الحساب، وكيف يتم الجزاء للأخيار والأشرار فقد بشر الإله «بتاح ساتنى» بن «فرعون» أوزيناريس الذى كان يتوق إلى إنجاب ولد بأنه ستنجب امرأته العاقر ولدا يسميه «سنوزيريس» يأتى بالخوارق، وبالفعل لم يكد سنوزيريس يرى النور حتى هتف باسم «بتاح» ثم سجد يصلى، كان الولد معجزة، وكان وهو فى السادسة من عمره يشترك مع كهنة «بتاح» فى قراءة كتاب الحكمة.

وذات يوم بينما الأب وابنه معا إذ شق السكون صوت عويل يرتفع فى الطريق تختلط به أهازيج موسيقى الموت. وأطل ساتنى فإذا مأتم رهيب فى الطريق إلى مدافن ممفيس لواحد من الأغنياء يشيع إلى مدفنه الأخير فى موكب فخم، ومضت لحظات وإذا ميت آخر يعبر الطريق ملفوف فى خرقة، يشيعه بضعة أفراد من ولده إلى خارج «ممفيس»، بغيرما موسيقى ولا احتفال ولا موكب، وهتف الأب وهو يطل إلى السماء:

- يا أوزوريس يا سيد «الأمنت» العظيم القدرة فى العالم الآخر اكتب لى دخول دار الأموات فى عظمة وجلال كهذا الغنى، ولا تحرمنى شجو الموسيقى وندب النادبين كما حرمت هذا الفقير.

ونظر إليه ولده سنوزيريس طويلا، ثم قال:

- يا أبت، إنى لأتمنى لك أن تموت ميتة هذا الفقير، لا ميته هذا الغنى.

وتألم ساتنى لأمنية ولده له؛ ولكن الابن قال له:

- إذا أردت، فأنا على استعداد لأطلعك على مصير كل منهما فى الآخرة، الغنى الذى بكاه الناس، والفقير الذى لم يجد من يبكيه.

— — — — —

وأمسك سنوزيريس بيد أبيه، وأخذ يتلو تعاويذ بدت غريبة - حتى عن أبيه - ثم انطلق به يقوده إلى جبل ممفيس، حيث هبطا معا بفجوة ضيقة بين الصخر، ما كادا يهبطانها حتى وجدا نفسيهما فى قاعة قادتهما إلى أخرى أكثر سعة، ثم إلى ثالثة تزيد اتساعا عن كل قاعات قصر الفرعون نفسه.

هنا شهد ساتنى جماعة مزدحمة من الناس فيها الفقير والغنى، الوضيع والرفيع، الجميل والقبيح.

وعاد سنوزيريس يقود أباه ويجتاز به الباب إلى قاعة رابعة، حيث شهدا قوما مولين وعلى ظهورهم حمير تأكل، وقوما آخرين يمدون أيديهم إلى الطعام المعلق فوق الظهور، فلا يستطيعون إليه سبيلا؛ إذ تقف دونهم حفر يحفرها قوم آخرون تتسع وتتسع وتحول بينهم وبين الوصول إلى الزاد.

وتحولا معا ليجتازا القاعة الرابعة إلى الخامسة، وشهد ساتنى باب القاعة يرتكز على عين رجل راح يستغيث ويصرخ، من خلفه ناس يبكون ويلحون فى طلب الدخول فلا يسمح لهم. وكان لابد لساتنى وولده كى يدخلا القاعة الخامسة، أن يطآ الرجل المنطرح تحت الباب.

وكان هذا جزءا من العقاب الذى قدر له أن يطأه كل الأموات الذين يجتازون قاعات العذاب إلى مكان السعداء.

وكانت القاعة السادسة، وشاهد ساتنى محكمة الموتى منعقدة، يرأسها القاضى الأكبر أوزوريس سيد «الأمنت»، أى: الدار الآخرة، متربعا على عرش من ذهب، وفوق رأسه تاج الجنوب الأبيض المرصع من جانبيه بريشتى نعام رمز العدل والحق. وإلى جوار أوزوريس كان يتربع الأله «أنوبيس» والإله «نوت». وحولهما من شمال ويمين اثنان وأربعون قاضيا

من الآلهة تكتمل بهم هيئة المحكمة.

كان هناك فى وسط القاعة ميزان توزن فيه الحسنات والسيئات. يستجوب أنوبيس الميت ويدون «تحوت» أجوبته. فمن رجحت حسناته السيئات قاده الإلهة المحيطون بأوزوريس إلى جنة الأموات الصالحين حيث يتمتع بالسعادة الخالدة. وأما من رجحت سيئاته حسناته، فإنه يسلم إلى الإلهة ممات «كلبة سيد الأمنت المفترسة»، المستلقية تحت قدميه، مستعدة دائما لتمزيق كل محكوم عليه بالعقاب، وهى تثير الرعب بفمها الفاغر كأتون، ومخالبها الحادة كسكين، ورأسها المدبب كتمساح، وجسمها البشع كتنين!

ولمح الأب رجلا نبيل الطلعة، يرتدى ثوبا من كتان فاخر، يقف إلى جوار أوزوريس. وتساءل عنه فأجابه ولده: هذا هو [الفقير] الذى رأيته مكفنا بخرقة بالية ومحمولا بلا موكب إلى خارج ممفيس. إنه هو نفسه الذى تمنيت لك يا أبى أن تموت ميتته. لقد حل أمام محكمة الموتى، فرجحت حسناته سيئاته. إنه تعذب كثيرا فى الأرض ليسعد طويلا فى السماء؛ ولكى تتم سعادته خلع أوزوريس عنه كفنه الممزق، وألبسه كفن الغنى الذى رأيته مشيعا فى حفاوة إلى مقبرة ممفيس. هذا الغنى نفسه هو الذى وطئته قدماك عندما ولجت القاعة، وكان محور الباب مرتكزا فى عينه اليمنى يغريها كلما فتح أو أغلق، فقد حوكم الغنى فرجحت سيئاته حسناته، وحكم عليه بالعقاب الصارم.

وسأل ساتنى ولده: لقد رأيت يا بنى فى الأمنت ما أدهشنى. فهل تستطيع أن تخبرنى عن هؤلاء الذين رأيناهم مولين وعلى ظهورهم تأكل الحمير؟ وعن أولئك الذين لا يملكون سبيلا إلى الزاد بسبب الحفر التى تزداد وتتسع تحت أقدامهم؟

أجاب سنوزيريس: الأولون هم أبناء هذه الأرض الذين لعنتهم الآلهة

لكثرة سيئاتهم. يعملون ليل نهار ليضمنوا بقاءهم؛ فتتحول نساؤهم إلى حمير نهمة، تنهب أموالهم وتأكل على ظهورهم، أما الذين يمدون أيديهم عبثا إلى الطعام، فهم أولئك الذين استأثروا بخيرات الأرض وما شبعوا، فعوقبوا بالحرمان جزاء حرمانهم للآخرين!.

* * *

الجنيات الثلاث

هناك فى قرية «كنتال» على الشاطئ الغربى لاسكتلندا، كان يعيش فيما مضى من الزمان نجار تخصص فى صناعة السفن. وقد كان يقوم مرة بصنع زورق، وبذل جهدا كبيرا حتى كاد يتمه، ولكنه احتاج إلى لوح خاص من الخشب لم يستطع أن يعثر عليه فى القرية، فخرج إلى الغابات القريبة منها، وأخذ يبحث عن طلبه بين أشجار الصنوبر التى بها.

وتبين النجار بعد ساعات من البحث المتواصل أنه ضل الطريق وسط تلك الغابات. ثم أدركه الليل هناك فتملكه الخوف واليأس. كما نال منه التعب والجوع. وفيما هو كذلك، لاح له ضوء خافت بعيد، فأسرع يتلمس طريقه نحوه، وما أن اقترب منه حتى تملكه السرور إذ تبين أن الضوء ينبعث من نافذة كوخ صغير!.

ودار النجار حول الكوخ حتى عثر على بابه، فأخذ يطرقه بعنف. وبعد لحظات سمع وقع أقدام أخذت تقترب منه، ثم فتح الباب وظهرت سيدة طاعنة فى السن، لم تنبس بكلمة.

ولما روى لها قصته أشارت إليه بالدخول، فدخل وقد أخذه العجب من صمتها، ومن أنه لم يرها ولم ير كوخها هذا من قبل، مع أنه ولد فى هذه المنطقة وعاش فيها طول حياته!

وزاد فى عجبه أن قادته العجوز إلى إحدى الغرف فى الكوخ، فإذا به يرى هناك سيدتين أخريين طاعنتين فى السن مثلها، وقدمتهما له على أنهما أختاها، ثم أعدت مائدة وطلبت إليه أن يشاركهن فى الطعام. فقبل شاكرا. وبعد تناول الطعام، قادته السيدة التى فتحت له الباب إلى غرفة أخرى ليقضى فيها ليلته!

كان أثاث هذه الغرفة مؤلفا من سرير قديم، ومنضدة صغيرة، ومقعد

واحد، وصندوق خشبى قديم.

وجلس النجار على المقعد، وقد تملكه القلق والخوف من الغموض الذى يسود الكوخ وساكناته. وتمنى لو أنه لم يدخله. ثم خطر بباله أن يغادره على الفور، غير أنه لشدة ما كان يشعر به من تعب، آثر أن يرجئ ذلك ريثما يتمدد قليلا فوق الفراش!

وما كاد الفراش يحتويه، حتى استغرق فى النوم.

وحوالى منتصف الليل، استيقظ على صوت مفزع قريب منه، فلما فتح عينيه وأدارهما فى أنحاء الغرفة، تبين أن ما سمعه هو صوت ذلك الصندوق الخشبى القديم، ورأى السيدة العجوز التى فتحت له الباب، واقفة بجانب الصندوق، وقد أمسكت بإحدى يديها شمعة، بينما مدت الأخرى فأخرجت من الصندوق «طرطورا» صغيراً أحمر، وضعته بعناية فوق رأسها، ثم وضعت الشمعة على حافة الموقد، ورفعت ذراعها اليمين فى بطء وهى تقول: «إلى لندن» وسرعان ما اختفت من الغرفة، تاركة إياه وقد جحظت عيناه، وفغر فاه، لفرط ما اعتراه من دهشة ورعب!

ولم يكد يفيق قليلا من دهشته، حتى دخلت الغرفة إحدى الأختين العجوزين، وأخرجت من الصندوق «طرطورا» أحمر آخر، وضعته فوق رأسها، ثم رفعت أيضا ذراعها اليمين وهتفت: «إلى لندن». فاختفت هى الأخرى!

ولم تمض دقيقة حتى دخلت الأخت الثالثة، وفعلت مثلما فعلت أختاها من قبل. فلما أحس النجار أنه صار وحده فى الغرفة، بقى دقائق حائرا، لا يدرى ماذا يفعل، وخيل له أنه فى حلم، لكنه لم يلبث أن نهض من فراشه، وتسلل إلى خارج الغرفة فى هدوء، حيث أخذ يبحث

فى أنحاء الكوخ عن العجائز الثلاث، فلم يعثر لهن على أى أثر فيه!

وعاد إلى الغرفة التى كان نائما فيها، وقلبه يفيض بالفزع، ثم حانت منه التفاتة إلى الصندوق الخشبى فوجده مفتوحا، وفيه «طرطور» أحمر رابع. وعلى غير وعى منه، أخذ هذا الطرطور وتأمله قليلا، ثم وضعه فوق رأسه، ورفع ذراعه اليمين وقال: «إلى لندن».

وأشد ما كانت دهشته إذ وجد نفسه على إثر ذلك فى أحد بارات لندن! ووجد الشقيقات العجائز الثلاث وقد جلسن هناك حول إحدى الموائد، وأخذن يحتسين الويسكى فى نشوة وابتهاج!

وظن النجار أول الأمر، أنهن سيناقشنه الحساب على متابعته لهن، ولكنهن بدلا من ذلك دعونه إلى مشاركتهن فى الشرب مسرورات!

وبعد ساعة أو أكثر، نهضت العجائز الثلاث، ووضعت كل منهن طرطورها على رأسها، ثم رفعت ذراعها اليسرى فى هذه المرة وقالت: «إلى أحراش قرية كنتال» وسرعان ما اختفين عن الأنظار!

وأفاق النجار من ذهوله على صوت عامل البار وهو يطالبه بالحساب، ولما لم يكن معه مال، فقد سيق إلى مركز البوليس. وهناك روى قصته للمحققين، فتقرر إيداعه السجن رهن محاكمته بتهمة الشعوذة والدجل!

وقدم للمحاكمة، فلم يجد ما يدافع به عن نفسه، وثبتت إدانته. فحكم عليه بالإعدام شنقا، طبقا للقانون المعمول به فى المحاكم الإنجليزية حينذاك!

وفى اليوم المحدد لتنفيذ العقوبة، نقل النجار البائس من السجن إلى ساحة الإعدام، ولف حبل المشنقة حول رقبته، ثم قيل له: «هل لك رغبة فى شىء؟ وهل تريد أن تقول شيئا قبل أن تفارق الحياة؟».

وهز الرجل رأسه وهم بأن يقول: «لا» ولكنه قبل أن يقولها خطرت

بباله فكرة فقال: «نعم لى مطلب صغير، هو أن تسمحوا لى بأن أضع على رأسى طرطورا، أحتفظ به فى جيبى». فلم يجد المشرفون على تنفيذ الحكم مانعا من ذلك، وما كاد هو يضع «الطرطور» على رأسه حتى رفع ذراعه اليسرى وقال: «إلى قرية كنتال»، فإذا هو يجد نفسه فيها فى مثل لمح البصر.

وقد دهش الجميع الذين كانوا يسخرون منه منذ لحظات، حين رأوه يطير وتطير معه المشنقة! أما هو فلم يكن أقل منهم دهشة، وإن كانت دهشته ممتزجة بالسرور، ولا سيما حين وصل إلى مصنعه، وتبين أن لوح المشنقة الخشبى الذى جاء به، هو نفس اللوح الذى كان يبحث عنه لإتمام زورقه!!

أما الحبل فقد استخدمه فى تثبيت المرساة بالزورق!

* * *

العرافة والعفريت والراعى

كان الحفل راقصا وبهيجا، كان شبان القرية وفتياتها مجتمعين كعادتهم فى حديقة الحانة الواسعة يغنون ويمرحون فترتفع أصوات غنائهم معانقة أنغام الموسيقى؛ لتشق سكون الليل المظلم وتملأ المكان بالحياة. وقد أخذوا يلتفون فى حلقات متشابكى الأيدى، يقرعون بأقدامهم أرض الحديقة المكسوة بألواح الخشب فيرتفع رنينها فى انتظام وانسجام تتراقص معه القلوب.

وكان بين الحاضرين سيدة عجوز تجلس فى ركن منزو بعيد تعبث بأناملها وتقول بصوت ضعيف واهن، من يراقصنى، أريد أن أرقص، حتى مع الشيطان!.

ولم يكن أحد من الحاضرين يشعر بوجود هذه العجوز حتى سمعت إحدى الصبايا همسا فأطلقت ضحكة عالية صاخبة وصاحت بسخرية: انظروا إلى هذه العجوز؛ إنها تريد أن ترقص!

فضحك الحاضرون فى سخرية من مطلبها الغريب ولكنهم سرعان ما انصرفوا مرة أخرى إلى الرقص والغناء.

وبينما كان الجميع منهمكين فى اللهو والمرح ظهر فجأة من بين الأشجار الكثيفة رجل طويل القامة، أسود اللون، على رأسه قبعة خضراء، ترتفع من قمتها ريشة طويلة، ويرتدى بذلة سوداء ضيقة جدا، كأنها حيكت بهذه الطريقة لتبرز طوله الفارع، وتقدم بخطا وئيدة ثابتة وسط الحاضرين وهو يردد: «أين الأميرة الجميلة؟ أين جميلة الجميلات؟» حتى وصل إلى مكان الساحرة العجوز، فانحنى أمامها بكل رقة ودماثة.. وقال:

هل تسمحين يا سيدتى الرقيقة بهذه الرقصة؟ فرحت العجوز بشدة

وقفزت من مقعدها بنشاط وحيوية وتعلقت بذراعى الغريب، وأخذا يرقصان معا بحماس وحرارة.

وكان هذا الغريب يبدو فرحا سعيدا بالعجوز الغانية التى كانت تقوم بحركات لا تقدر عليها فتاة فى العشرين.

ومرت ساعات والغريب والعجوز يزدادان نشاطا وحيوية، ولم تبد على أى منهما أية علامة ملل أو تعب بسيط.

وكلما تعب العازفون وتوقفوا عن العزف ألقى عليهم الغريب قطع النقود الذهبية ليواصلوا العزف، وكان جميع الحضور مشدوهين مما يرونه من أمر الزائر الغريب والساحرة العجوز.

وعند منتصف الليل واقتراب نهاية الحفل اتجه الغريب والساحرة العجوز نحو الغابة بعيدا عن العيون، ولما حانت لحظة الوداع.

قالت الساحرة للغريب:

- خذنى معك؛ أريد أن أصحبك إلى منزلك.

قال الغريب: إن منزلى بعيد جدا، والطريق إليه طويل وشاق.

قالت العجوز: لا تخشى على بأسا. أريد أن أرى المكان الذى تعيش فيه. نظر إليها الغريب وارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء كأنه يعطيها إنذارا.

وقال: ارجعى، ولا تزجى بنفسك فى المتاعب.

فردت عليه قائلة:

- أنا مصرة على الذهاب معك.

فقال لها الغريب:

- إذن تعلقى بعنقى جيدا.

أسرعت العجوز وقفزت إلى كتفيه ولفت ذراعيها حول عنقه وتشبثت به بقوة. ثم تمتم الغريب بكلمات غير مفهومة، فأبرقت السماء ودوى الرعد بشدة، وضرب الغريب الأرض بقدمه اليسرى ثلاث مرات فانشقت الأرض فجأة، وابتلعت الغريب والعجوز.

لم يكن الغريب زائرا عاديا، ولكنه أحد شياطين الجحيم. هبط الشيطان بالساحرة إلى أحد بقاع الجحيم؛ ليجعلها أضحوكة إخوانه الشياطين.

وعندما استقر العفريت بالساحرة فى أغوار الجحيم السحيقة صرخ بأعلى صوته:

- إخوانى الشياطين، لقد جئتكم بهدية. ها هى ذى الساحرة العجوز.

ثم مد العفريت يده إلى العجوز التى تسمرت حول عنقه، وكأنها صارت جزءا منه وحاول أن يخلص عنقه من قبضة ذراعيها، ولكنه لاقى عناء شديدا إن العجوز تعلقت به تعلقها بالحياة، وأخذ العفريت يتملص ويتلوى وانتفخت أوداجه ونفرت عروقه، لكنه كان عبثا يحاول الهرب من كارثة حلت به، وعلى ما يبدو أنها لن تفارقه.

طلب العفريت مساعدة إخوانه الشياطين، لكنهم آثروا الاستمتاع بمشاهدة هذا الصراع الممتع بينه وبين الساحرة العجوز، كما أنهم كانوا يخافون من أن تترك أخاهم وتتعلق بأى منهم.

أخذ العفريت يتمرغ بها فى أشد بقاع الجحيم حرارة ولكن العجوز أبت أن تفك حصارها عن عنقه فأخذ يطوف بها أرجاء الجحيم لكن هذا - أيضا - لم يفلح معها، ظل العفريت على هذه الحال بضعة أيام حتى انهدت قواه، وأصبح أضحوكة يتندر بها الشياطين فى كل أرجاء

الجحيم.

وأخيرا، قرر أن يلجأ إلى كبير الشياطين، فقد يدله على حيلة يتخلق بها من هذا البلاء. فلما قدم إلى كبيرهم وشرح له مأساته قال له:

لن تستطيع الخلاص منها إلا إذا أعدتها من حيث أتيت بها.

خرج العفريت من جحر كبير الشياطين وهو يلعن حظه العاثر الذى أوقعه فى هذه العجوز اللعينة، ثم اتجه صوب الأرض عبر ممر الجحيم، وظل يقطع الطريق أياما وليالى حتى وصل إلى الأرض فى مكان من البادية، وكان الإعياء قد بلغ غايته وسرى التعب فى كل أوصاله، ثم التقى أثناء سيره براعٍ تبدو على سيماه علامات الذكاء والهدوء. وسرعان ما دخل معه فى حديث طويل ليخفف متاعب الرحلة الشاقة. وكان الإعياء باديا على العفريت فقال له الراعى:

- إنك تبدو متعبا جدا.

- نعم، لقد كانت رحلتى شاقة للغاية.

- ألا يزال الطريق أمامكما طويلا؟

- بلى، لا يزال أمامى سفر طويل.

- ولم تحمل زوجتك هكذا؟ لماذا لا تدعها تسير بجانبك حتى تستريح؟

غضب العفريت بشدة وقال:

- هذه تقاليدنا فى السفر والتنقل. كما أننا نجلس؛ لنستريح بين الحين والآخر كلما شعرت بأنى غير قادر على المواصلة.

ثم استمرا فى السير حتى شعر العفريت بأنه لا يستطيع أن يرفع قدمه عن الأرض، وأحس بالضعف والهوان، صعب عليه نفسه فانفجر فجأة

فى البكاء وترقرقت الدموع الحارة على خديه واعترف للراعى بما حل به وكيف ضاعت هيبته بين الشياطين؛ بسبب هذه المصيبة المتعلقة بكاهله، فقال له الراعى:

- سوف أساعدك.

لم يصدق العفريت ما سمعه، وقال:

- حقا هل تستطيع مساعدتى؟

فأجاب الراعى:

- نعم. اترك لى هذا الحمل وتول أنت أمر الغنم.

وقرب رأسه من كتف العفريت وأخذ يد العجوز ولفها حول عنقه فلم تعبأ العجوز بذلك وانتقلت من فوق كاهل العفريت إلى ظهر الراعى الشاب.

وأخذ العفريت عصا الراعى وهو لا يكاد يصدق أنه تخلص من الساحرة كان العفريت يسوق الغنم أمامه ومن خلفه الشاب وفوق كتفه الساحرة.

وبعد قليل تلفت العفريت حوله فلم يجد الراعى ولكنه سرعان ما أقبل عليه من بعيد بدون العجوز فاندهش العفريت لما يراه.

وسأل الراعى: أين الساحرة؟ .

فقال: إنها فى اليم.

لقد ألقيت عباءتى فى مياه البحيرة ومعها الساحرة العجوز وانتظرت حتى طفت العباءة فوق سطح الماء فالتقطتها بسرعة وعدت إليك. فقال العفريت: لقد قدمت لى صنيعا لا ينسى، وسوف أرد إليك جميلك هذا بصنيع مثله، سوف أجعلك أسعد أهل هذه البلاد.

سوف أسكن جسد الأميرة الحسناء ابنة ملك براغ ولن أتركها حتى تأتى وتأخذ الجائزة الكبيرة التى سوف ينذرها الملك لمن يستطيع شفاء ابنته. فاتبعنى إلى براغ.

وكان العفريت قد استرد قواه فنشر جناحين كبيرين، وانطلق بهما فى السماء واختفى كالبرق الخاطف.

ولما وصل الراعى إلى أبواب المدينة، وجد الناس يتحاكون بأمر غريب أصاب أميرة البلاد. وكل منهم يتمنى لو كان يستطيع شفاءها فينال عرش نصف المملكة ويتزوج الأميرة الحسناء. عندما سمع الراعى هذه الأنباء توجه على الفور قاصدا قصر الملك.

ولما وصل - وكان مظهره مزريا جدا - حذره الحرس والخدام من المصير الذى ينتظره إذا لم يتمكن من شفاء الأميرة، ثم ساقوه إلى الملك. وبمجرد أن تخطى أعتاب القصر رأى رجلين مصلوبين يضربان بالسياط ويصرخان من شدة الألم.

فسأل عن السبب؛ فقيل له إنهما رجلان ادعيا قدرتهما على شفاء الأميرة، ثم فشلا فأمر الملك بتعذيبهما بهذه الطريقة.

ولكن الراعى لم يبال بذلك واتجه مع الحراس إلى قاعة الملك، ولما قابل الملك أكد له أنه يستطيع أن يشفى الأميرة من علتها ولكنه طلب منه أن يقف هو ومن معه؛ ليراقبوا عن بعد بينما اقترب هو من الأميرة ثم همس فى أذنها مذكرا العفريت بما كان بينهما، فرد العفريت: أجل، سوف أنصرف الآن ولكن اسمع: هذا هو مقابل ما صنعته معى وبعد الآن ليس لك عندى شىء.

ثم دوت صرخة عالية فى القاعة وانطلق ضوء خاطف عبر النافذة الزجاجية وانتفضت الأميرة ثم حركت رأسها وفتحت عينيها، وقامت

مبتسمة تتلفت حولها كأنها كانت فى غيبوبة طويلة وأفاقت منها، وأسرع الملك نحو ابنته واحتضنها بقوة والتف جميع الحاضرين حول الأميرة والملك مباركين ومهنئين. وكانت فرحة الملك غامرة فقرر على الفور أن يزوج ابنته من الراعى وأن يمنحه نصف مملكته.

وعاش الملك الجديد وزوجته عدة شهور فى سعادة وهناء.

ولكن حكاية العفريت لم تنته عند هذا الحد، فقد أصيب العفريت بعشق الأميرات وأصبح لا يقدر على فراقهن فدخل جسد أميرة المملكة المجاورة لمملكة الراعى، وتدفقت الرسل إلى الملك الراعى يطلبون مساعدته فى شفاء أميرتهم، لكن الراعى تذكر كلام العفريت وتحذيره له بأن هذه آخر مرة يفعل هذا من أجله فرفض طلبهم، ولكن الملك أرسل إليه إنذارا شديد بإعلان الحرب عليه إذا لم يأت لمعالجة الأميرة، وأقسم ألا يضع لهذه الحرب حدا حتى يقطع رأس الملك الراعى.

أدار الملك الراعى الأمر فى رأسه ثم امتطى صهوة جواده واتجه إلى المملكة المجاورة، فلما وصل إلى القصر الملكى استقبله الملك واصطحبه إلى حجرة الأميرة، وبمجرد أن دخل بقدميه الحجرة ورأى الأميرة صاح العفريت من داخلها وقال: «أتتحدانى أيها الراعى؟ هل هذا جزاء ما فعلته من أجلك؟ ولكن افعل ما شئت فلن أخرج من جسد الأميرة، وسوف يفتضح أمرك فى النهاية».

ولكن الأمير تقدم بمنتهى الهدوء، وبكل ثقة من الأميرة، ثم مال وهمس فى أذنها بصوت خافت: «أنا لا أريد منك شيئا، ابعد إذا شئت كما أنت، ولكنى علمت أن الساحرة العجوز لم تغرق وأنها تبحث عنك. وهى الآن فى طريقها إلى هنا». وقبل أن يتم الأمير كلامه انطلق العفريت كالسهم عبر ستائر؛ الشرفة فمزقها وأفاقت الأميرة وسط دهشة واستغراب الجميع. ويقال: إن هذه المنطقة من العالم لم تشهد منذ ذلك الحين

حالة واحدة من هذا النوع.

وتيمنا بذلك أمر الملك الراعى برسم قرنين حمراوين وصورة امرأة عجوز على علم مملكته.

* * *

اعزفى يا قاتلتى

انتقض الملك فى فراشه وقام مفزوعا وصرخ بأعلى صوته ينادى الحراس والخدم، لم يكن ما رآه الملك شبحا أو طائرا أو حيوانا مفترسا، ولكنه حلم أو كابوس رهيب.

وكانت الهواجس والظنون تهاجم الملك الطيب منذ فترة حول مصير مملكته وبناته الثلاث، وهو يحس بدنو أجله واقتراب موعد الزائر الأخير.

وفى صباح اليوم التالى، وعلى إثر هذا الكابوس الرهيب جمع بناته الثلاث، وقد عزم فى نفسه على حسم أوضاع مملكته بينهن بعد وفاته، وقال لهن: «إنى أريد أن أعهد بولاية مملكتى لأكثركن ذكاء» وأشدكن حبا لى وللناس. فاذهبوا فى صباح الغد إلى تلك الغابة القريبة ولتحمل كل واحدة منكن سلة فمن عادت قبل شقيقتيها وسلتها ملأى بالفريز الغض الطازج؛ فسوف تكون لها المنزلة الأولى فى قلبى، وسوف تجلس على هذا العرش بعد وفاتى.

وفى صباح اليوم التالى قام الملك من نومه منقبضا حزينا، فقد رأى حلما آخر مفزعا.

رأى أغلى مجوهرات تاجه يغتصبها لصان وأجمل حملانه يأكله حيوانان مفترسان، ومع ذلك، وبعد أن نشرت الشمس أجنحة النور فوق التلال الخضراء، زقزقت العصافير فوق الأشجار المحيطة بالقصر الكبير، خرجت بنات الملك الثلاث إلى الغابة، تحتضن كل واحدة منهن سلتها وكلها أمل أن تعود قبل شقيقتيها وسلتها مملوءة بالفريز الطرى الطازج.

ولما أصبحت الأميرات على مقربة من منتصف الغابة مالت الشقيقة الكبرى بسلتها وقالت: «امتلئى بالفريز يا سلتى؛ لكى يكون التاج

هديتى، أنا وحدى، وليس لأخوتى». ولكن سلتها لم تحصد شيئا، ظلت فارغة كما هى. ثم مالت الشقيقة الوسطى ورددت نفس الكلمات: «امتلئى بالفريز يا سلتى، لكى يكون التاج هديتى، أنا وحدى، وليس لأخوتى». ولكن سلتها ظلت فارغة أيضا، ثم مالت الشقيقة الصغرى بسلتها وقالت بصوت هادئ رقيق: «امتلئى بالفريز يا سلتى، لكى يعرف أبى كم أحبه، وأكون الأولى فى قلبه».

وبمجرد أن أتمت الأميرة الصغيرة كلماتها، امتلأت سلتها بالفريز الشهى الغض، وحاولت الشقيقتان أن تبحثا عن بعض الثمار المتناثرة هنا وهناك، ولكنهما لم يعثرا إلا على بعض الثمار القليلة الهزيلة.

امتلأ قلب الشقيقتان بالحقد على أختهما الصغرى؛ بعد أن شعرتا بتفوقها وأن التاج والعرش سوف يكونان من نصيبها. استحوذت قوى الشر على فؤاد الشقيقتين وبدأتا تفكران وتحدثان نفسيهما بطريقة للتخلص من الشقيقة الصغرى التى سوف تحصد كل شىء وسيخسران هما كل شىء لم يستغرق الأمر طويلا حتى تفاهمت الشقيقتان عن طريق الأحاسيس والنظرات، وانقضتا فجأة على الأميرة الصغرى البريئة كالذئاب المفترسة المتعطشة للدماء واللحوم البشرية، وفى لحظات تحولت الأميرة إلى جثة هامدة وكومة من الأشلاء الممزقة، واختفت الملامح البشرية تحت سطوة الأحقاد والضغائن، وبعد أن أتمت الشقيقتان جريمتهما، وإمعانا فى الظلم والطغيان، قامتا بجر الأميرة إلى جذع شجرة قبقب وحفرتا حفرة عميقة طمرتا بداخلها جثة أختهما ثم مهدتا المكان مرة أخرى لإخفاء معالم الجريمة البشعة، ثم كست الشقيقتان وجهيهما بمسحة حزن مزيفة واتجهتا مهرولتين إلى القصر وهما تصرخان وتولولان حتى دخلتا على أبيهما وهما تصطنعان الذعر والهلع، وتحملان ثياب أختهما الملطخة بالدماء، وقالتا: إن حيوانين مفترسين

انقضا على أختهما ومزقا جسدها أمام أعينهما ولكنهما لم يستطيعا أن يفعلا شيئا لإنقاذها؛ صعق الملك عندما سمع رواية ابنتيه، ورأى بعينه الحلم المفزع يتحول إلى حقيقة مرعبة، فها هى ذى أثمن مجوهرات تاجه يسرقها لصان وأجمل حملانه يلتهمه حيوانان مفترسان!

تملكت الحسرة قلب الملك، ومزق رداءه وخرج إلى حديقة القصر، وأخذ يهيل على رأسه التراب ويصرخ من شدة الألم والمرارة.

ولكن الشك كان يسيطر على قلب الملك حول هذه الرواية، وكانت نفسه تحدثه بأشياء لم يبدها، وإن كانت تتملك كل تفكيره.

ومرت الأيام وحالة الملك تنتقل من سيئ لأسوأ فانصرف عن شئون المملكة وانعزل فى قاعة صغيرة من قاعات القصر الفسيح، ولم يعد يستقبل أحدا وتحول صوته الذى كان يزلزل قاعات القصر إلى همس خافت غير مفهوم. بينما استولت الجانيتان على السلطة فى انتظار موت أبيهما واقتسام مملكته بينهما.

وفى أحد الأيام مر راع شاب بشجرة القبقب التى دفنت تحتها الأميرة فرأى غصنا جديدا نابتا فى أحد أفرعها فقطعه وصنع منه نايا؛ لكى يؤنس به وحدته. ولكن عندما انتهى الراعى من صنع نايه وقربه من فمه وبدأ يعزف عليه سمع صوتا حزينا يقول: «اعزف أيها الراعى؛ ليعرف كل من يسمع إنى كنت أميرة وأصبحت الآن نايا، نايا مصنوعا من غصن قبقب». عاود الراعى العزف على الناى بأساليب مختلفة، ولكنه كان يكرر نفس الكلمات وبنفس النغمة الحزينة فى كل مرة. وشاع خبر الناى الحزين فى طول البلاد وعرضها حتى وصل إلى القصر الملكى، فطلبت إحدى الأميرتين من الملك أن يستدعى الراعى ليسمعوا بأنفسهم وليروا هذا الناى الحزين.

لم يكن الملك يبالى بشىء على الإطلاق؛ بسبب حزنه الشديد، ولكنه أذعن لإلحاح ابنتيه وأمر بإحضار الراعى، ومثل الراعى على الفور أمام الملك والأميرتين وأخذ يعزف على الناى وهم يستمعون إليه باستغراب ودهشه دون أن يلمح أحد معنى هذه الشكوى الحزينة، وطلب الملك أن يجرب بنفسه العزف على الناى المسحور، ولكن الشكوى الحزينة، الصادرة عن الناى تغيرت قليلا هذه المرة، ازدادت نبرة الحزن وضوحا، وأصبحت تقول: «اعزف يا أبى، ليعرف كل من يسمع أنى كنت أميرة، وأصبحت الآن نايا مصنوعا من غصن قبقب».

وقبل أن يفهم الملك معنى هذا الخطاب، التقطت إحدى الأميرتين الناى وقربته من فمها وبدأت العزف، فأصدر الناى نغمات مزمجرة تقول: «اعزفى يا قاتلتى، ليعرف كل من يسمع، أنى كنت أميرة، وأصبحت الآن نايا مصنوعا من غصن قبقب».

عندئذ عرف الملك الحقيقة، فأمر بقطع رأس المذنبتين كقصاص عادل لجريمتهما ثم أمر بأن يكون الراعى الذى ظهر الحق على يديه هو الملك القادم للبلاد؛ ليقيم فيها العدل والنظام، ثم انسحب هو بهدوء إلى المقبرة التى دفنت فيها عزيزتاه - زوجته وابنته الصغرى.

* * *

سر الفرح

كان الناس يعيشون بلا أمل، فى زمن لم تكن فيه ممالك ولا إمارات ولا ملوك ولا أمراء ولا سلاطين ولا طغاة جبارين وكان وجه الأرض تكسوه الكآبة والناس يقاسون. وكانت المساحات الشاسعة المنبسطة من الأرض تكسوها الغابات والمستنقعات، ولم تكن الأرض قد تزخرفت بالألوان والأضواء وكانت الأشجار تؤتى القليل من الثمار، والحقول الصغيرة القليلة متناثرة هنا وهناك. كانت الأرض حافلة بأعداء الإنسان - الأشباح، والوحوش الكاسرة والعواصف والرعود والفيضانات والسيول والزلازل والبراكين- كانت الحياة على الأرض غاية فى القسوة.

وبينما كانت الحسناء سافاتافا ابنة جيفيا ملكة السعادة تطل من فوق السحاب تتطلع إلى الأرض الحزينة، وقعت عينها على أزهار النيلوفر البيضاء، التى كانت تكسو سطح البحيرات والغدران تتراقص نشوانة فوق صفحة الماء مع حركة الأمواج؛ فانتشى لرؤيتها قلب سافاتافا، وقالت لأمها:

- كم هى جميلة هذه الأزهار؟!

- أى جمال فيها؟! إنها نباتات حقيرة لا لون لها ولا شذا.

- ولكنى أحبها يا أماه، أحبها أكثر من أى شىء آخر، إنها أجمل شىء رأيته فى حياتى.

- ماذا تقصدين يا سافاتافا؟ كفى عن هذا الحديث واشغلى نفسك بشىء آخر.

- لا أستطيع يا أماه. أنا أحب هذه الأزهار، ولن تكون سعادتى بدونها.

- ماذا تقولين يا ابنتى الجميلة؟ أتريدين أن تنزلى إلى الأرض من أجل هذه الأزهار وتتركى مملكة السعادة؟ أنت ابنة النور، فكيف تطيقين الظلام؟ كيف تتركين السعادة لتنزلى بقدميك إلى الشقاء والألم؟ انظرى يا فراشة مملكتى إلى تلك المخلوقات التعيسة المسماة بالبشر! انظرى كيف أنهم يعيشون فى ألم وشقاء وأحزان متواصلة، إنهم يجوعون ويعطشون، يكدون ويتعبون، يمرضون ويموتون! أتريدين أن تكونى مثلهم فى شقائهم وتعسهم؟

أثرت كلمات الأم فى نفس ابنتها فاهتزت مشاعرها بعنف، ورق قلبها بشدة لسكان الأرض، وبدأت تراقبهم بالساعات الطويلة، وتشاركهم أوجاعهم وأحزانهم، وشعرت سافاتافا بالأسى والألم؛ فذرفت من عينيها دمعة كانت أول دمعة شفقة وعطف تسقط على الأرض.

ازداد تعلق سافاتافا بالأرض وسكانها وبأزهار النيلوفر التى عشقتها من أول نظرة.

وقالت لأمها:

- ألا ترين يا أماه أن هؤلاء البشر يستحقون العطف والشفقة؟ إنهم معذبون حقا، وعلينا أن نساعدهم ونخفف آلامهم.

- ماذا دهاك يا سافاتافا؟ إنى أرى الدموع تلطخ وجهك، والحب يهز فؤادك.

- نعم يا أماه، لقد عرفت كيف يذيب الحب قلوب العاشقين، وكيف أن العاشق إذا نودى لا يملك إلا أن يلبى، وسأنزل إلى الأرض؛ لأساعد البشر البائسين وأخفف عنهم أحزانهم وأقطف أزهارى الجميلة.

- إن سيقان أزهار النيلوفر التى تعشقينها متصلة بمملكة الظلام التى لا سلطان لى عليها، ولا تربطنى بمملكتها أية صلة.

- وكيف تكون سعادتى هنا بدونها سأنزل إلى الأرض، وسأحصل عليها مهما كان الثمن.

غضبت الملكة جيفيا من ابنتها غضبا شديدا، وقالت لها: إن الدموع عرفت طريقها لعينيك ولم يعد شيء يجدى لإصلاحك؛ فأنت لست من جنس الملوك.

لقد فقدت اللامبالاة وهى مصدر قوتنا فانزلى إلى الأرض ما شئت، وشاركى البشر بؤسهم وشظف عيشهم، فمصيرك من الآن هو نفس مصيرهم.

ونزلت سافاتافا طريدة مملكة السعادة بلا موكب إلى الأرض، وعلى ضفاف البحيرة، التى كانت سافاتافا تتأملها وتتغزل بجمالها وأزهار النيلوفر التى تستلقى على سطح المياه جلست سافاتافا الرقيقة تنتظر المصير المجهول مع الحياة الجديدة التى اختارتها بنفسها.

وعندما بدأت خيوط النور تهتك حجب الظلام حول البحيرة، وبدأ الضباب ينقشع شيئا فشيئا، ورأت سافاتافا بوضوح أزهار النيلوفر صرخت بنشوة: ها هى ذى أزهار النيلوفر الجميلة، الآن أستطيع أن أقطفها وأقبلها وأضمها لصدرى، الآن أستطيع أن أمتلكك يا أزهارى الجميلة ومدت سافاتافا يدها لتقطف زهرة بيضاء، فتموجت المياه وبدت الأزهار كأنها ترقص فوق سطح الماء مبتهجة بالأميرة التى تركت مملكتها وهبطت إلى الأرض من أجلها.

مدت سافاتافا يدها، ولكن الأمواج بدت كأنها تدفع الأزهار بعيدا عن يد سافاتافا، فمدت سافاتافا يدها أبعد، فانزلقت ساقها فى البحيرة، وانشقت صفحة الماء، هاجت الأمواج واضطربت بعنف، وبعد قليل عادت مياه البحيرة إلى الهدوء مرة أخرى، ولكن كانت إحدى الأزهار قد

اختفت واختفت معها سافاتافا الجميلة.

أحبت سافاتافا الأرض، وضحت من أجلها بمملكة السماء فابتلعتها الأرض، هكذا كان رد الأرض العادل فوريا وسريعا.

وعندما تبددت السحب وانشقت الحجب بين السماء والأرض، ونشرت الشمس أشعتها فوق الأرض، ونفض الناس غبار نومهم وبدءوا ينتشرون وبدأت أناتهم وزفراتهم الحارة تصعد فى السماء ذهبت جيفيا إلى الهاوية التى تطل من خلالها على الأرض وأخذت تراقب الناس والحياة كما كانت تفعل من قبل، تلفتت جيفيا تبحث عن ابنتها فلم تجدها فشعرت بالقلق وباللهفة والحنين لابنتها المفقودة، وأدركت أنها هى الأخرى تشعر وتتألم مثل البشر، فشعرت بالخزى من نفسها، لكنها لم تستطع مقاومة الحنين الجارف الذى دفعها إلى الأرض لتبحث بنفسها عن ابنتها.

وأثناء رحلتها رأت الناس عن قرب، وبدأت تحس بهم وتشعر بأوجاعهم، فأخذت على نفسها عهدا بمساعدتهم عندما تعثر على ابنتها، بحثت جيفيا فى كل مكان فوق الأرض فلم تجد فقيدتها، وقررت أن تبحث عنها تحت الأرض، ولكنها لم تجدها - أيضا - ولم يبق أمامها سوى كهف واحد يسد مدخله حجر ضخم كبير حاولت أن تزيحه ولكنها لم تستطع، فاستغاثت بالصاعقة التى فتتت الحجر؛ فانفتح مدخل الكهف أمامها، فاندفعت من خلاله وقطعت مسافة طويلة داخله عبر سراديب مظلمة، حتى توقفت عند حاجز من البللور الشفاف الصافى أبصرت من خلاله ابنتها فى ردهة كبيرة واسعة، تحمل سقفها الماسى أعمدة من الياقوت الأحمر، وفى وسط الردهة الكبيرة زهرة نيلوفر جميلة تتمايل فوق المياه الفضية الرقراقة فى حوض رخامى كانت سافاتافا تعتلى عرشًا ذهبيا، وبين أصابعها قطع من اللؤلؤ والألماس تعبث بها بأناملها الرقيقة،

وفى أرجاء المكان تتلألأ قطع من الزبرجد والزمرد والماس واللؤلؤ التى تتناثر هنا وهناك، وبحنين وشوق نادت جيفيا ابنتها سافاتافا:

- سافاتافا ابنتى الحبيبة.

ولكن سافاتافا لم يظهر عليها أثر للفرحة بلقاء أمها فاستطردت الأم بلهفة:

- كيف وصلت إلى هذا المكان هل أنت بخير يا حبيبتى؟ ألم أحذرك من هذا المصير؟

ردت سافاتافا بهدوء المطمئن:

- لقد أخذتنى ملكة الظلام وأصبحت صديقة لها فعلمتنى اللامبالاة التى هى فضيلتكم، وأنا الآن كما ترين سعيدة بما أنا فيه.

- لا يا ابنتى لن تبقى فى هذا المكان، تعالى معى إلى النور، إلى مملكة السعادة، تعالى إلى الأرض التى أحببتها.

- لن أعود إلى مملكتك، ولن أعود إلى الأرض، سأبقى هنا بعيدا عن أنات البشر وزفراتهم، فلا تحاولى يا جيفيا.

نظرت جيفيا إلى ابنتها وفكرت قليلا ثم تركتها وانصرفت. صعدت جيفيا إلى الأرض وقد عزمت على أن تمحو الكآبة والحزن من فوقها، فساعدت البشر على حراثة التربة وغرس الأشجار وزرع المحاصيل وبناء المساكن وصناعة الملابس.

وعرف البشر فضلها فصنعوا لها التماثيل، ونقشوا صورتها على الجدران، ورسموها وفوق رأسها تاج من السنابل وفى يدها تفاحة.

وتقول الأسطورة: إن جيفيا صعدت إلى مملكتها فى السماء، وإنها الآن تحب البشر وتساعدهم وتحاول تخفيف آلام المكلومين وغرس

الأمل فى نفس كل يائس حيران. وعندما تصعد إليها أغنية مرحة يرددها العمال أثناء عملهم المضنى، تهتف جيفيا: لقد قهرت الألم، ومهما يحاول اليأس فلن يستطيع أن يغلب إرادة الإنسان التى شحذتها جيفيا بالأمل.

* * *

المرأة التى حاولت تغيير مصيرها

ذات مرة، كان هناك حقل كبير. وفى هذا الحقل، انتصبت شجرة أوروكو ضخمة، لها دعامات كبيرة. وعند أطراف الحقل، ظهر أزواج من الرجال والنساء.

أما النسوة فقد أمسكت كل واحدة منهن بمكنسة، بينما حمل كل رجل من الرجال كيسا. وبينما أخذت النسوة يكنسن الحقل، راح الرجال يجمعون القذر فى أكياسهم، ولم يكن ذلك القذر سوى الموز الليفى، ولقد جمع بعضهم عشر حبات من ذلك الموز أو أكثر، بينما لم يجمع آخرون شيئا.

وحين تم كنس الحقل وصار نظيفا، عادوا جميعا للاختفاء عند أطرافه، وكانوا يختفون أزواجا أزواجا. ثم أظلمت السماء، وهبطت على الحقل منضدة واسعة ومقعد كبير و«حجر خلق» ضخم، وكان على المنضدة كمية كبيرة من التربة. ثم حدث برق ورعد، وهبطت ووينجى «الأم» وجلست على المقعد. وعلى «حجر الخلق» وضعت قدميها. ومن التربة التى فوق المنضدة شكلت كائنات بشرية، لكنها كانت مخلوقات بلا حياة ليست رجالا أو نساء، ثم أخذت ووينجى تنفخ فيها من روحها وهى تعانق كلا منها على حدة، فصارت جميعا كائنات حية، وإن ظلت على حالتها، فلم تكن رجالا أو نساء. ولهذا طلبت ووينجى من كل مخلوق من هذه المخلوقات على انفراد، أن يختار بين أن يكون رجلا أو امرأة، كل وفق رغبته.

ثم على انفراد - أيضا - سألت ووينجى بعد ذلك كلا منهم، عن نهج الحياة الذى يود أن يسلكه على الأرض. فطلب بعضهم الثروة، وطلب البعض البنين، كما طلب البعض الحياة القصيرة، كانت طلبات شتى

ومتنوعة، وقد أنعمتووينجى على كل مخلوق بما سأل، كل وفق رغبته. ثم سألت كلا على انفراد عن طريقة الموت التى سيرتد بها إليها وكان أن اختار كل واحد مرضا من تلك الأمراض التى ابتليت بها الأرض. وقالت ووينجى لكل هذه الرغبات: ليكن ذلك.

وكان من بين جماعة الرجال والنساء هذه والتى سويت حديثا - امرأتان، طلبت إحداهما من ووينجى الثروة والبنين المرموقين، بينما لم تطلب الثانية سوى القوى الخفية التى لا تضاهيها قوى أخرى فى العالم. وكانت هذه المرأة أوجبوينبا. وقد اختارت كلتا المرأتين أن تولدا فى مدينة واحدة.

وفى نهاية الأمر قادت ووينجى خطا هذه المخلوقات من الرجال والنساء إلى جدولين يؤديان إلى مأوى البشر، وكان أحدهما موحلا، بينما كان الآخر نظيفا.

أما المجرى الموحل، فقد سلكه كل أولئك الذين سألوها الثروة والبنين وكل الأغراض الدنيوية.

أما المجرى النظيف، فقد سلكه كل أولئك الذين لم يطلبوا منها ممتلكات مادية.

وهكذا تأتى لأوجبوينبا والمرأة الأخرى أن تولدا فى مدينة واحدة، وأن تصيرا صديقتين متلازمتين تأكلان معا، وتلهوان معا، وتتساران سويا، وأن تنموا طفلتين من أب واحد وأم واحدة.

بيد أن أوجبوينبا كانت طفلة خارقة للعادة، ففى حياتها المبكرة كانت قادرة على الشفاء والعلاج كما كانت تتمتع بنظرة ثاقبة، ولقد استطاعت أن تفهم لغة الطير والوحوش والشجر، بل وأوراق الحشائش. كان بمقدورها أن تتنبأ وأن تؤدى أشياء غريبة وعجيبة، وأصبح اسمها يدور

على كل شفاه.

وحين شبت أوجبوينبا وصديقتها عن الطوق، اتخذت كل منهما لنفسها زوجا. وسرعان ما رزقت صديقة أوجبوينبا بطفلها الأول، بينما لم ترزق أوجبوينبا ابنا. ولم تكن تتوقع ذلك، ومع هذا استمرت قواها فى الازدياد. وحملت صديقتها ثانية وسرعان ما أنجبت طفلا.

أما أوجبوينبا فقد بقيت دون أبناء، لكن شهرتها طبقت الآفاق، وصارت على مر العصور أعظم طبيبة يشتد الإقبال عليها. ورغم هذا كانت تشعر بالقلق، أحست أن حياتها خاوية، وأنها تريد أبناء، وأنها تتوق إليهم.

ورزقت صديقتها بعدد متزايد من الأبناء تحقيقا لرغبتها التى أبدتها لووينجى، وأحبتهم أوجبوينبا جميعا وبسطت رعايتها عليهم بقواها الخفية كما لو كانوا أولادها.

بيد أن هذا كله لم يشع فى نفسها الرضا؛ ذلك أنها كانت تريد لنفسها أولاد تعنى بهم. وعلى أية حال، فقد استمرت قواها الخفية فى ازدياد تحقيقا لمطلبها من ووينجى، لكن قلبها لم يستشعر الفرحة.

غير أنها بعد فترة من الزمن لم تعد تحتمل هذا الأمر، فقررت سرا أن تقوم برحلة، رحلة عودة إلى ووينجى لتعيد خلق نفسها من جديد. وعلى هذا راحت يوما إلى حجرة عقاقيرها السحرية، والتى احتفظت فيها كذلك بقواها الخفية، وسألت كل واحد منها ما إذا كان سيصحبها فى رحلتها التى عزمت على القيام بها. وأبدت جميعا علامات تشير إلى رغبتها فى اصطحابها. إلا أنها لم تتخير من بينها سوى أشد القوى الخفية وأقوى العقاقير السحرية ووضعتها فى كيس، ثم ذهبت إلى صديقتها وأبلغتها أنها ماضية إلى رحلة قصيرة. وحزنت صديقتها حين سمعت ذلك؛ لأنهما لم

تفترقا يوما واحدا منذ تعارفتا وتصادقتا. وهكذا أحزنها تماما ما ينطوى عليه المستقبل من احتمالات عدم رؤيتها يوما أو أكثر. ثم إن أولادها كذلك لن ينالوا حماية بعد. لكن أوجبوينبا أكدت لها أنهم سيظلون تحت حمايتها رغم بعدها عنهم، وأنهم لن يتعرضوا لشىء من ضر. وبهذا استأذنت أوجبوينبا وبدأت رحلتها إلى ووينجى.

وسارت أوجبوينبا على امتداد طريق واسع، تحمل على كتفها كيس قواها الخفية وعقاقيرها السحرية. وقد كان الطريق عريضا ويؤدى إلى بحر كبير، أما هى فكان يفصل بينها وبين البحر غابة شجر استوائى يعيش فيها ايزيمبى ملك هذه الغابة. وبينما هى تسير فى طريقها تواصل الليل بالنهار دون طعام أو راحة، إذا بها تسمع صخب البحر صوت ارتطام الأمواج بالشاطئ، ومع كل خطوة تخطوها، كان الصخب يدنو، غير أن أوجبوينبا مشت فى طريقها بثبات، وسرعان ما بلغت غابة الأشجار الاستوائية، حيث مملكة ايزيمبى.

وبينما كانت تتحسس طريقها داخل الغابة بحذر، إذا بها تسمع صوتا يناديها من خلف واستدارت، لتجد أن المنادى لم يكن سوى ايزيمبى.

وسألها وهو يرفع صوته: ألست أنت أوجبوينبا التى سمعت عنها الكثير؟.

وأجابت أوجبوينبا: فى العالم أوجبوينبا واحدة فحسب، هى أنا.

ورد ايزيمبى: لو أنك أنت أوجبوينبا، فإنك تكونين قد أسأت معاملتى بعدم زيارتك لى بوصفى ملك هذا المكان، لقد سمعنا جميعا بشهرتك، وإنه لشرف أن نجدك هنا هكذا، فتعالى معى إلى بيتى.

وعلى هذا ذهبت أوجبوينبا مع ايزيمبى إلى بيته، وهناك استمتعت بوليمة فاخرة وبخمر نخيل. ثم سألها ايزيمبى بعد هذا الترحيب عن

وجهتهاه.

قالت أوجبوينبا: لم ألد ابنا منذ زواجى الذى تم منذ عدة سنوات مضت؛ ولهذا أنا ذاهبة إلى ووينجى أسألها أن تعيد خلقى من جديد.

فقال ايزيمبى: عودى من هنا، فمن المحال أن تشاهدى ووينجى طالما أنت حية، إن رحلتك عبث؛ فعودى أدراجك من هنا.

بيد أن أوجبوينبا قالت: إن رأيها قد استقر على ذلك، ورغم أنها ما زالت حية، فإنه يتحتم عليها أن ترى ووينجى. وعلى هذا تركت ايزيمبى وزوجته لتواصل رحلتها إلى البحر، لكنها ما كادت تمضى - قليلا - حتى عادت إلى ايزيمبى وسألته لو أنه حاول تجربة قواها معه. فقال ايزيمبى: إنه لن يقاتل امرأة، وطلب منها أن تمضى لحال سبيلها. لكنها ظلت تصر على تجريب القوى، وأضافت أنها تتحداه رغم أنها امرأة؛ فغضب لذلك ايزيمبى وقال:

- ألم تسمعى بقواى؟ إننى ايزيمبى ملك الغابة، فكيف تجرئين يا امرأة على أن تتحدينى؟.

وما إن انتهى من قوله هذا حتى راح إلى كوخ عقاقيره السحرية، وهناك أبدت كل قدور العقاقير إشارات سلبية، لكنه لم يكن ليتهيب أشياء كهذه، طالما أن الشخص المعنى لم يكن سوى امرأة. على هذا خرج - رغم التحذيرات - مسلحا بمثل هذه العقاقير السحرية والقوى الخفية التى يحتاج إليها، فى صراعه مع أوجبوينبا.

وفى الخارج، طلب من أوجبوينبا أن تبدأ هى بتجربة قواها، لكنها أبت وقالت: إن ايزيمبى بوصفه الأكبر سنا، لابد أن يجرب هو أولا كل ما لديه. فقام ايزيمبى - وقد تملكته الرغبة فى الإجهاز على أوجبوينبا بأقصى سرعة - بترديد تعاويذه، وسرعان ما فرغ كيس أوجبوينبا من كل

قواها وراحت بذلك قواها الخفية وعقاقيرها السحرية القوية. وفى الحال، رددت تعاويذها وهى تدور وتلف لتبطل قوى ايزيمبى. وحال ما فعلت ذلك، ارتدت قواها الخفية وعقاقيرها السحرية إلى الكيس قوة وراء قوة، وعقارًا تلو عقار، ولما بلغت آخر تعاويذها، كان كل شىء قد ارتد إلى الكيس، وارتدت هى إلى نفسها مرة أخرى.

ثم طلبت من ايزيمبى أن يجرب معها بمزيد من قواه.

بيد أن ايزيمبى لم يكن لديه قوى أشد من تلك القوى التى استخدمها معها، وسألها أن تجرب معه قواها إن كان لديها شىء وعلى هذا بدأت أوجبوينبا تردد تعاويذها وهى تلف وتدور. وفيما هى تؤدى ذلك كانت قوى وعقاقير ايزيمبى جميعا تدلف إلى كيسها قوة تلو قوة، وعقارا وراء عقار، وخر ايزيمبى نفسه فاقد الحياة. عندئذ حملت كيسها فوق كتفها وهمت بالمضى فى طريق رحلتها، وفيما هى تغادر، إذا بزوجة ايزيمبى تدعوها للعودة لإيقاظ زوجها من أجل خاطرها، فمس ذلك الطلب شغاف قلب أوجبوينبا فهى نفسها لها زوج مثلها؛ ولهذا عادت أوجبوينبا وكان أن استيقظ بعد أن رددت هى بعضا من تعاويذها. ثم توسلت إليها الزوجة أن ترد قوى زوجها وعقاقيره السحرية، لكن أوجبوينبا قالت: إنها لن تفعل هذا. ثم غادرت لتواصل رحلتها.

وسرعان ما خلفت أوجبوينبا غابة الأشجار الاستوائية وراءها ووصلت إلى المدينة أجبى على ساحل البحر. وبينما هى تمر بالمدينة إذا بواحد يناديها من خلف، فالتفتت وراءها فوجدت أجبى.

وتساءل أجبى: «أليست تلك أوجبوينبا التى سمعت عنها الكثير؟».

فقالت: «فى العالم أوجبوينبا واحدة فحسب، هى أنا».

وواصل أجبى حديثه: «لقد سبقتك شهرتك، فتعالى إلى بيتى. إننى

ملك هذه المدينة، وأنت لا تستطيعين عبور مدينتى مثلما يعبرها إنسان نكرة تعالى وسأكرمك».

وذهبت أوجبوينبا مع أجبى إلى بيته، وهناك أكرمت غاية الكرم بتقديم كمية كبيرة من الطعام ومن خمر النخيل لها، وبعد تناول الطعام سألها أجبى عن الغرض من رحلتها، فأجابت: «تزوجت منذ سنوات طويلة لكننى لم أرزق ابنا، ولم أحمل مرة واحدة؛ ولهذا أنا ذاهبة لقاء ووينجى لتعيد خلقى من جديد».

وأصابت الدهشة أجبى حين سمع ذلك ونصحها: «عودى أدراجك، لا حى على الأرض بقادر على رؤية ووينجى».

بيد أن أوجبوينبا قالت إن رأيها قد استقر على ذلك، وحملت كيس قواها فوق كتفها وغادرت لتواصل رحلتها. لكنها عادت بعد قليل إلى أجبى وسألته إن كان يود أن يجرب قواه مع قواها. واغتاظ أجبى لسماعه ذلك، واحتبس صوته من الغضب، وحين ارتد إليه صوته قال بازدراء «اذهبى لحال سبيلك».

غير أن أوجبوينبا لم تتحرك وأصرت على تجريب القوى، قواهما الخفية.

ولم يعهد عن أجبى رفضه تحديًا من أى كائن حى. وهو لا يستطيع أن يتجاهل هذا التحدى ولو أنه من امرأة؛ ذلك أنها كانت تصر عليه، ولهذا قال: «تعالى يا امرأة، هيا بنا نرى من منا الأقوى أنت يا امرأة أم أجبى ملك المدينة وساحل البحر»، وعلى هذا، ذهب إلى كوخ عقاقيره السحرية، وسلح نفسه بأقوى تلك العقاقير التى اعتاد استخدامها لقهر من جاء يتحداه. وخرج سائلا أوجبوينبا أن تبدأ بالمحاولة معه، غير أن أوجبوينبا أبت كعادتها وطلبت إليه أن يحاول معها أولا بكل ما لديه،

ولعدم رغبة أجبى فى أن يطيل الجدل حول هذا الأمر، بدأ فى التو فى ترديد تعاويذه الطويلة، وحين فعل ذلك صار كيس أوجبوينبا فارغا من كل قواها. لقد تبعثرت قواها جميعا مع قوى ايزيمبى التى استولت عليها بعيدا وفى كل اتجاه بفضل قوى أجبى الخفية، وعندما تنبهت إلى ذلك، أخذت فى الحال تردد تعاويذها المضادة وهى تلف فى حلقة دائرية. وفى أثناء ذلك كانت قواها بالإضافة إلى قوى ايزيمبى ترتد إلى الكيس، وحين وجدت القوى كلها كاملة فى كيسها توقفت عن ترديد تعاويذها، وطلبت من أجبى أن يحاول معها مرة أخرى بمزيد من قواه، لكن أجبى لم يكن لديه قوى أشد من تلك القوى التى سبق أن استخدمها، وطلب من أوجبوينبا أن تجرب معه قواها الخاصة، فبدأت تعاويذها، وقبل أن تبلغ منتصفها دخلت قوى أجبى كلها كيسها. وحين توقفت، سقط أجبى ميتا، فتركته ملقى على الأرض، ومضت تواصل رحلتها إلى البحر بالكيس تحمله فوق كتفها وقد حوى قواها وقوى كل من ايزيمبى وأجبى.

وما كادت تخطو بعض خطوات حتى سمعت زوجة أجبى تبكى داعية إياها أن تعود وتوقظ زوجها من أجل خاطرها وإشفاقا عليها، عادت أوجبوينبا. وبعد ترديد تعاويذها أعادت أجبى إلى الحياة. وعادت زوجة أجبى ثانية تتوسل إليها أن ترد قوى زوجها، لكن أوجبوينبا رفضت هذا المطلب، واستأنفت رحلتها إلى البحر.

ومن ثم أتت أوجبوينبا إلى حافة البحر العظيم، ذلك البحر الذى لم يعبره أبدا شخص على قيد الحياة والذى تعلو موجاته هادرة ترتطم بشاطئه. إنه بحر مضطرب صاخب أوقع الفزع فى قلب أوجبوينبا، لكن عبورها إياه أمر محتم ولا سبيل أمامها غير ذلك.

وبينما كانت واقفة أمام البحر تتأمله، تكلم قائلا: «إننى البحر العظيم الذى لا يعبره أحد أبدا». وهنا قالت أوجبوينبا بكل ما تملك من جرأة:

«وأنا أوجبوينبا، أوجبوينبا الوحيدة فى العالم وإننى لفى طريقى إلى ووينجى، ويجب أن أعبر» فأجاب البحر: «إننى البحر العظيم الذى لا يعبره أحد أبدا، ولسوف أبتلعك فى أحشائى إذا تجاسرت على العبور».

وفزعت أوجبوينبا مما سمعته. بيد أنها كانت تريد ابنا، والسبيل الوحيد لنواله ممتد أمام بصرها وهو ووينجى ولن يمنعها شئ.

اتجهت إلى البحر مدفوعة بهذه العزيمة، وعندما مسته قدماها تدافعت الأمواج ناحيتها تغمر قدميها ثم أخذت فى الارتفاع، وسرعان ما بلغت كعبيها ثم ركبتيها. وتملكها خوف. ولم تعد قادرة على الحركة. كانت بلا حول، عاجزة، تقف ترقب نفسها والبحر يبتلعها، وظل الماء يعلو، وسرعان ما بلغ البحر خصرها، ورفعت كيس قواها فوق رأسها. وظل البحر يرتفع حتى بلغ صدرها، ثم استمر فى علوه حتى بلغ ذقنها وهنا صرخت فزعة:

- «أيها البحر، أو حقا أنك البحر الذى لا يعبره أحد؟». ثم رددت تعاويذها، وما إن بدأت فى ترديدها حتى أخذ البحر فى الانحسار، وسرعان ما هبط إلى خصرها ثم إلى ركبتيها فقدميها، وهكذا أخذ ينحسر إلى أن ظهر قاعه عاريا يكشف عن آلهة البحر وأرواحه. فشقت أوجبوينبا طريقها عبر البحر بكيس قواها. وعند الجانب الآخر التفتت إلى قاع البحر الجاف آمرة إياه بالعودة إلى ما كان عليه، ثم واصلت رحلتها.

وكانت المملكة التالية التى جاءتها هى مملكة الغيلم، وكان الغيلم هو الملك، كما كان يعيش مع أبويه أليكا وأريتا وزوجته أوبوين. وشاهد الغيلم أوجبوينبا وهى ماضية فى طريقها فناداها؛ إذ أراد أن يعرف ما إذا كانت هذه أوجبوينبا التى سمع عنها الكثير. وأجابت أوجبوينبا بردها المعتاد فقالت: «فى العالم أوجبوينبا واحدة فحسب، هى أنا».

فقال الغيلم: «تعالى وهيا بنا نذهب إلى البيت، قد سمعنا عنك كثيرا جدا، ونحن نود التعرف عليك فتعالى رجوتك».

ومن ثم راحت أوجبوينبا مع الغيلم إلى بيته وهناك تناولت مع الأسرة طعاما واحتست خمر نخيل. وبعد الفراغ من الطعام قام الغيلم المتسم دائما بالفضول بسؤال أوجبوينبا:

- «ما الذى جاء بك إلى هذا الجانب من البحر؟ فى هذا الجانب لا يسكن بشر، أخبرينى أرجوك ما الذى أدى بك إلى المجىء هكذا؟».

فأجابت أوجبوينبا: «اتخذت لى زوجا منذ سنوات عديدة. إلا أننى لم أرزق ابنا؛ ولذلك أنا فى طريقى لأرى ووينجى وأسألها أن تعيد خلقى».

فنصحها الغيلم: «عودى أدراجك، فلا حى حتى الآن يرى ووينجى على الإطلاق».

لكن أوجبوينبا قالت: إن رأيها قد استقر على رؤية ووينجى، وعلى ذلك فإنها لن تعود. وهنا حذرها الغيلم:

- «يعيش بعدى أعظم وأقوى الآلهة «آدا، وياسى» العظيمان القويان واللذان يملكان حجرين خالقين صغيرين، فلا أحد يسلك هذا الطريق أبدا؛ ولهذا عليك أن تنهى هنا رحلتك».

بيد أن أوجبوينبا قالت: إنه لن يمنعها شىء. وبحمل كيسها فوق كتفها وقد أصبح الآن شديد الثقل بما فيه من القوى التى استولت عليها فى طريقها، غادرت المكان لتواصل رحلتها.

وما إن مشت قليلا حتى رجعت إلى الغيلم وواجهته بطلبها المعتاد وهو تجريب قواهما. لكن الغيلم لم يأخذ الأمر مأخذ الجد، وطلب إليها أن تمضى فى رحلتها التى استولت على قلبها. لكن أوجبوينبا أصرت على أن تتبارى قواهما، وهنا أخذ الغيلم يتباهى:

- «ألم تسمعى بى؟ لقد شاع اسمى فى العالم كله بسبب قواى الخفية. وإذا كنت - حقا - تعنين ما تقولين، فإنى مستعد لك».

وعلى هذا راح إلى كوخ عقاقيره السحرية وسلح نفسه بالقوى من هذه العقاقير والقوى الخفية، وحين خرج سألته أوجبوينبا أن يجرب معها أولا قواه، ولكن الغيلم قال: إن هذا أمر لا يمكن حدوثه؛ ذلك أنه رجل - وهو الغيلم إلى جانب لك - وإزاء إصرار أوجبوينبا على أن يبدأ هو المباراة، أخذ الغيلم يردد تعاويذه، وفيما كان يفعل، سقط كيس أوجبوينبا من يدها على الأرض، وتبعثر كل ما فيه من قوى إلى كل أركان الدنيا.

وفى الحال رددت أوجبوينبا تعاويذها لتواجه قوى الغيلم؛ فعاد الكيس أول ما عاد، وتبعته القوى واحدة تلو الأخرى. وحين عادت جميعا طلبت أوجبوينبا من الغيلم أن يجرب معها بمزيد من قواه، لكن الغيلم لم يكن لديه أكثر من هذا، وسألها أن تؤدى أسوأ ما عندها إن كانت تستطيع. فبدأت أوجبوينبا فى ممارسة تعاويذها، وقبل أن تبلغ منتصفها سقط الغيلم وقد فارق الحياة، ودلفت كل قواه إلى كيسها.

وحملت أوجبوينبا كيسها على كتفها وأخذت تستعد لمواصلة رحلتها، تاركة الغيلم ممددا على الأرض، لكنها قبل أن تخطو أولى خطواتها، أوقفها صوت أنين «أوبوين» زوجة الغيلم التى أخذت ترجوها أن توقظ زوجها الغيلم من أجل خاطرها. وبإيقاظ الغيلم بقواها الخفية، استأنفت رحلتها وظلت تسير ليل نهار، وكيسها فوق كتفها، وسرعان ما بلغت مملكة الإله آدا. وحين رآها آدا سألها: ألم تكن هى أوجبوينبا التى سمع عنها الكثير؟ وأجابت هى بردها المعتاد فقالت: «فى العالم أوجبوينبا واحدة فحسب، هى أنا». فقال لها إنه لن يدعها تمضى هكذا دون تكريم وهى تلك الشخصية المشهورة.

وراحت أوجبوينبا كالمعتاد مع آدا إلى بيته، وهناك تم إكرامها تماما بوليمة من اليام وموز البلانتين وكل الأطباق الأخرى المختارة التى تتناسب وإله وملك يكرم شخصية شهيرة. وسألها آدا بعد الفراغ من الطعام:

- «ما الذى جاء بك هنا حيث لا يسكن سوى الآلهة؟ إن هذا المكان لم تطأه أقدام البشر. لم يأت هنا إنس قبلك أخبرينى لم أتيت؟».

وحين أخبرته بسبب رحلتها قال لها: «عودى أدراجك من هنا، فلا يرى أحد ووينجى أبدا ولا حتى أنا».

لكن أوجبوينبا لم تكن لتعود، فقد تملكت الرغبة قلبها، الرغبة فى ابن؛ ولهذا قالت لآدا إنها لن تعود الآن، وستواصل رحلتها إلى ووينجى أينما كانت. ومن ثم حملت كيس قواها الخفية على كتفها، وتركت آدا لتواصل رحلتها. لكنها عادت إليه فى الحال وسألته أن يجرب قواه مع قواها. وتملكته الدهشة ما كان لبشر أن يتحدى قوى إله. وكل ما فعله أن سأل أوجبوينبا إن كانت حقا تعنى ما سمعه منها. فما كان منها إلا أن كررت طلبها؛ فراح هو إلى كوخ عقاقيره السحرية ليجد محتويات قدور عقاقيره كلها قد صارت دما. فقال: لا، لن آبه لهذا؛ فهى ليست سوى مخلوق بشرى.

وهكذا خرج غير مبال بتحذير عقاقيره السحرية له، وطلب من أوجبوينبا أن تجرب معه قواها، لكنها أبت وسألته أن يبدأ هو المحاولة. وفى الحال صوب آدا - وقد أثاره الغضب - قواه على أوجبوينبا التى سقطت فاقدة الحياة على ما يبدو. إلا أنها استردت وعيها بعد هنيهة وبدأت تعاويذها.

حينذاك تولت عن آدا قواه كلها ودلفت إلى كيسها، وأخيرا سقط ميتا،

فحملت هى كيس قواها ظافرة مرة أخرى، وواصلت رحلتها.

وظلت تسير وتسير وحيدة فى طريق عريض إلى أن بلغت مملكة ياسى الإله العظيم القوى. وكان ياسى قد شاهدها وراقبها من بعيد وهى تتقدم فى الطريق قبل أن تدخل فى مجال الرؤية البشرية. وبينما كانت تتجول فى أراضيه سألها ياسى إن لم تكن هى أوجبوينبا التى سمع عنها الكثير، وأجابت هى بردها المعتاد فقالت: «فى العالم أوجبوينبا واحدة فحسب، هى أنا».

وقال لها ياسى: «إننى ملك هذه البقعة، تعالى وسأقدم لك طعاما وشرابا».

ومن ثم راحت مع ياسى إلى بيته، وهناك - أيضا - أكرمت غاية الكرم بوجبة من أطباق نادرة وخمر نخيل، تتناسب كلها وملك يكرم ضيفة شهيرة وبعد فراغها من الطعام سألها ياسى: لم قامت برحلتها، فقالت:

«إننى امرأة كما ترى تزوجت منذ سنوات عدة. لكننى بلا أطفال، ولم يحدث أن حملت ولو مرة واحدة، أنا عاقر؛ ولهذا فإنى ماضية فى طريقى لأرى وونيجى وأسالها أن تعيد خلقى».

عندئذ قال ياسى: «وونيجى لا يراها إنسان حى، وعليك أن تعودى من هنا».

لكن أوجبوينبا لم تصغ إليه، وقالت: إنها ستواصل رحلتها، ومن ثم وضعت على كتفها كيس قواها وانطلقت. لكنها عادت بعد قليل وعرضت طلبها المعتاد - ألا وهو مباراة القوى - ولم يصدق ياسى ما سمعه، وطلب منها أن تعيد ما قالته. وكررت أوجبوينبا مطلبها. عندئذ أجاب ياسى غاضبا:

- «إننى أعظم الآلهة جميعا وأشدها بأسا، فكيف تجسرين أيتها المخلوق البشرى؟ بل كيف تجرئين يا امرأة أن تتحدينى وتطلبى المباراة مع قواى؟! امضى لحال سبيلك، فإنك لست ندا لى».

لكن أوجبوينبا أصرت على المباراة، فراح ياسى غاضبا إلى كوخ عقاقيره السحرية، إلا أن محتويات القدور صارت دما؛ فهمس مندهشا «هذا أمر لا يمكن حدوثه إنها ليست سوى مخلوق بشرى، ولسوف تتحقق لها المباراة التى ترغب فيها». وخرج ومعه «الحجران الخالقان» الصغيران أن يكون هو البادئ. وفى الحال وجه إليها ياسى بأس قواه، وسرعان ما انفصلت رأس أوجبوينبا وارتفعت فى السماء، بينما ظل جسدها قائما ممسكا بكيس قواها، إلا أن رأسها هبطت سريعا من السماء والتأمت بالجسم ثانية، وعادت أوجبوينبا مخلوقا كاملا تدب فيها الحياة. فسألت ياسى أن يجرب معها المزيد من قواه، ولكن ياسى الذى لم يكن لديه قوى أشد من تلك التى استخدمها معها، طلب إليها أن تجرب معه قواها، ومن ثم أخذت أوجبوينبا تردد تعاويذها وهى تدور وتلف فى دائرة. وبلغ من شدة قواها أن انفصلت رأس ياسى كذلك عن جسده مرتفعة فى السماء، وبينما بقى جسده قائما فوق «الحجرين الخالقين». ولما لاحظت ذلك أوجبوينبا دفعت الجسد إلى الأرض. وحين هبطت رأس ياسى من السماء لم تجد جسدا تلتئم به، فتهشمت على الأرض. وهكذا انهزم الإله ياسى، وانتصرت أوجبوينبا مرة أخرى. لكنها لم تكن لتتحرك دون «الحجرين الخالقين» فاتجهت ناحيتهما وحاولت رفعهما، لكنه كان من الصعب عليها تحريكهما رغم صغرهما. وظلت لحظة لا تدرى ما الذى تفعله، فما كان منها إلا أن رددت بعضا من تعاويذها، وفى الحال وجدت نفسها قادرة على تحريكهما ورفعهما فوق كتفها. ومضت محنية بشدة تحت وطأة ثقل «الحجرين الخالقين» وكيس القوى

إلى مملكة الديك.

طار الديك هابطا حين لمح أوجبوينبا من فوق سطح منزله، وتساءل إن لم تكن هذه أوجبوينبا التى سمع عنها كل واحد حتى الآلهة. وقال لها الديك بعد أن سمع ردها المعتاد: «إذا كنت أنت أوجبوينبا التى سمعت بها، فتعالى إلى بيتى، وسأقدم لك طعاما وخمر نخيل يتناسبان ومكانتى كملك يود تكريمك». ومن ثم راحت أوجبوينبا - التى لا تمانع أبدا - إلى بيت الديك. وهناك أحسن تكريمها بوجبة من أطباق مختارة من عرق نخيل. وسألها الديك بعد الأكل عن سبب رحلتها، فقالت:

- «تزوجت منذ سنوات عديدة، لكننى بلا أولاد. لدى كل ما للمرأة من أعضاء. بيد أنى عاقر، إننى عاقر. ومن أجل هذا ماضية أنا فى طريقى لأرى وونجى؛ لأجابهها وأسألها أن تعيد خلقى».

فقال الديك ناصحا إياها: «لا ترحلى أبعد من ذلك؛ فلا أحد أبدا يرى وونجى حيا. إن مملكتى هذه آخر مملكة وبعدى فراغ، وعليك أن تعودى أدراجك من هنا».

لكن أوجبوينبا قالت إنها ستمضى فى رحلتها، واتجهت إلى الطريق وعلى كتفها كيس قواها و «الحجران الخالقان»، ثم عادت بعد قليل تطلب من الديك تجريب قواهما. ولما لم يكن لدى الديك شىء أحب إليه من استعراض القوى، فقد أخذ يتباهى قائلا:

- «لقد طوف وجهى العالم من أجل قواى، وإننى لحاكم أول وآخر مملكة الموجودات التى تذوق الموت، تعالى وسأريك قواى، فلا شىء يسعدنى أكثر من هذا».

وطار الديك إلى سطح كوخ عقاقيره السحرية، وصاح عدة مرات داعيا قواه. ثم طار عائدا ووقف فى مواجهة أوجبوينبا وسألها أن تبدأ.

وكالعادة رفضت وطلبت من الديك أن يبدأ هو. ولعدم رغبته فى إطالة الأمر، بدأ الديك بكل ما لديه فى التو. وسرعان ما تعرت أوجبوينبا عن كل قواها وأخذ الديك - وقد لاحظ ما حدث - يتباهى مرة أخرى «مملكتى هى أول وآخر مملكة الموجودات التى تذوق الموت؛ فكيف تواجهين قواى؟!» وبينما كان يتباهى على هذا النحو، أخذت أوجبوينبا تردد تعاويذها، فاستردت كل قواها، وسألت الديك أن يحاول معها بمزيد من قواه. فقال لها إنه استخدم معها كل ما لديه من قوى، وإذا ما كان لديها أية قوى تضاهى قواه، فقد جاء دورها لتستخدمها ضده.

وبينما كانت أوجبوينبا تردد تعاويذها، انفجرت وعلى حين فجأة مدينة الديك وتناثرت أشلاء، واحترقت وقد تحولت إلى رماد.

وهكذا رحلت أوجبوينبا بمزيد من القوى فى كيسها فيما وراء مدينة الديك ومملكته، وهى آخر الموجودات التى تموت.

إلى الحقل الفسيح ذلك الحقل الذى تقوم به شجرة الأوروكو العظيمة بدعاماتها الضخمة، وهناك اختفت خلف دعامات الشجرة تراقب.

بعد ذلك ظهر من أطراف الحقل رجال ونساء أزواجا أزواجا.

أما النساء فقد أمسكن بمكانس.

وأما الرجال فقد حملوا أكياسا.

فبينما كانت النسوة يكنسن، كان الرجال يلمون القذر فى أكياسهم. وحين تم كنس الحقل ونظف، عاد الجميع للاختفاء عند جوانب الحقل أزواجا أزواجا. وبينما هى واقفة تنظر، شاهدت السماء تظلم، ومائدة تهبط على الحقل، يليها كرسى و «حجر خالق» كبير ثم حدث برق ورعد، وهبطت ووينجى وجلست على المقعد، ووضعت قدميها على «الحجر الخالق» ثم هبطت على المائدة كمية من تربة، وبدأت به

وونيجى عملياتها المعتادة فى الخلق، ثم قادت الرجال والنساء إلى مجريين، وهما المجريان اللذان يؤديان إلى سكنى الإنسان. ثم عادت ووينجى إلى الحقل وأمرت برفع المنضدة والكرسى ثم «الحجر الخالق». وقد ارتفعت هذه الأشياء إلى السماء واحدة تلو الأخرى. وعندما أوشكت وونيجى على الصعود، اندفعت أوجبوينبا من مخبئها وتحدتها أن تتبارى قواهما، فقالت ووينجى:

- «أعلم أنك كنت تختبئين خلف دعامات شجرة الأوروكو، ولقد شاهدتك وأنت تغادرين مدينتك راحلة للبحث عنى. ورأيتك تقهرين كل الموجودات الحية والآلهة التى كانت فى طريقك بقواك التى منحتها لك والتى كانت منية قلبك. والآن تريدين الأبناء. ومن أجل هذا جئت لترينى وتتحدينى؛ كى أتبارى مع قواك.

لقد جئت لتتحدينى وأنا مصدر قواك يا أوجبوينبا يا قاسية القلب. وإننى الآن لآمر كل القوى التى استوليت عليها فى الطريق أن ترتد لأربابها.

وما إن تفوهت بهذا الأمر حتى استرد كل من ايزيمبى وأجبى والبحر والغيلم والآلهة «آدا، وياسى، والديك» قواهم أما أوجبوينبا فقد تولت عن وجه ووينجى وقد تملكها الخوف، وفرت مذعورة لتختبئ فى عينى امرأة حامل لقيتها فى الطريق.

وحين رأت ووينجى ذلك تركت أوجبوينبا وحيدة؛ ذلك أنها أصدرت للرجال أمرا بألا تقتل امرأة حبلى أبدا.

ولم تنكث ووينجى عهدها بسبب أوجبوينبا، ثم اتجهت ناحية مستقرها وصعدت إليه. لكن أوجبوينبا ظلت مختبئة وما زالت لا فى عيون الحبالى فحسب، بل وفى عيون الرجال والأطفال كذلك. ومن

أجل هذا فإن من تتطلع إليك حين تنظر أنت في عيني شخص من الأشخاص ليست سوى أوجبوينبا.

* * *

جبل الفضة

لم تكن الطريق فى إقليم «دار ليكارليا» قد اتسعت ومهدت كما هى الآن، بل كانت طريقا بدائية تشق تلك المنطقة الجبلية السويدية حسبما اتفق، بين مرتفعات ومنحدرات والتواءات وعقبات متتالية شتى. ولكن هذا لم يكن ليحول بين الملك جوستاف الثالث وبين ما اعتزمه من تفقد هذا الإقليم النائى من بلاده، فى موكب من العربات التى تجرها الجياد.

لقد كان الوطن يومئذ على شفا خطر ساحق يوشك أن يؤدى به إلى هوة من الذل والانكسار مالها من قرار.

فقد تألب الروسيون والدانمركيون وراحوا يتأهبون لغزوه واحتلاله، وفى الوقت نفسه دبت الفتنة والخيانة فى صفوف جيشه، واشتدت الحاجة إلى مزيد من الرجال ومزيد من المال للاضطلاع بعبء الدفاع المقدس عن الاستقلال.

وانطلقت عربة الملك - تتبعها عربات الحاشية - بأقصى سرعة تستطيعها جيادها المدربة الأصيلة بين هاتيك الأغوار والأنجاد. ومع هذا، كان الملك قلقا لا ينام يطل من نافذة العربة ليهيب بسائقها أن يزيد فى سرعتها.

وهناك فى أحد المنعرجات التى زخر بها الطريق، اصطدمت العربة خلال دورانها بصخرة ناتئة؛ فتحطم المحور الذى تدور عليه إحدى عجلاتها، وانكسرت إحدى ذراعيها، فلم يكن بد من وقف الرحلة ريثما يتم إصلاحها.

والتف رجال الحاشية حول الملك، وراحوا يتنافسون فى تهدئة حنقه وقلقه بما حذقوه من مختلف الوسائل والأساليب، بينما عكف السائق - يعاونه بعض الأتباع - على إصلاح العربة بكل ما فى وسعهم من نشاط.

على أن الأمر كان يقتضى وقتا أطول من أن يصبر الملك على مرارة الانتظار فيه فاقترحوا على الملك متلطفين أن ينتهز فرصة إصلاح العربة فيستقل إحدى العربات الأخرى إلى الكنيسة القروية التى دوت أرجاء المنطقة بصليل أجراسها داعية إلى الصلاة.

ومضى الملك فى العربة الجديدة، ومن خلفه بعض رجال الحاشية فى عرباتهم، حتى إذا بلغوا طريق القرية التى بها الكنيسة، بدأت العجلات تنساب على أرضها الممهدة فى يسر وهدوء. وتطلع الملك فإذا النهر ينساب عن يمينه صافيا رقراقا، وإذا الأشجار الباسقة قائمة على شاطئيه فى وقار وجلال، وهنا وهناك أكواخ قابعة وادعة، وحقول يانعة رائعة، وقطعان من الماشية ترعى أو تمرح لاهية، وأسراب من الطير، بين محلقة فى الفضاء ومحومة على الماء، ومنتشرة فى الحقول أو فوق الغصون.

وبلغ الموكب باب الكنيسة، فما كاد الملك يهبط سلم العربة حتى وصلت إلى سمعه أصوات الشمامسة يرتلون ترانيم الانتهاء من الصلاة، ثم رأى المصلين القرويين يغادرون الكنيسة فرادى ومجتمعين، وبينهم كثيرات من عقائلهم وكرائمهم. وقد بدت الغبطة والسكينة فى وجوه الجميع. فبقى واقفا مستغرقا فى تأمل هذا المنظر، وإحدى قدميه فى العربة، والأخرى على سلمها!

لقد كان يكربه ما يعلم من فقر هذا الإقليم، ومن حياة أهليه بمعزل عن الأقاليم الأخرى، وعن العالم أجمع. ولكن ها هو ذا قد رأى بعينيه أنهم على عكس ما تصورهم يعيشون فى جنة ناعمة دانية قطوفها وارفة الظلال، ورأى رجالهم وفتياتهم ذوى قامات فارعة، ووجوه ناضرة باسمة، وعيون تفيض نظراتها بالرزانة والفطنة والحبور.

ثم التفت إلى من حوله من رجال الحاشية، وأمرهم بأن يكشفوا

لجماهير القرويين عن شخصيته. فما كادوا يفعلون حتى تنادى القوم بهذه البشرى فى زهو وابتهاج. وسرعان ما احتشدت جموعهم، ووقفوا خاشعين، شاخصة أبصارهم إلى الملك الذى غادر العربة فى تؤدة ووقار، ووقف على السلم الضيق المؤدى إلى خزانة الكنيسة، والموجود حتى الآن، وكأنه يتهيأ للكلام.

وفى صوت هادئ رزين، أنشأ الملك جوستاف الثالث يخطب تلك الجموع من رعاياه، فأفاض فى وصف الأخطار المحدقة بالبلاد نتيجة لهجوم الغزاة المتحدين عليها، ولخيانة بعض رجال الجيش. ثم خلص من ذلك إلى التصريح بشدة الحاجة إلى الرجال والأموال لصد تلك الأخطار.

وبلغ من شدة تأثره أن اغرورقت عيناه بالدموع وكاد صوته يختنق. على أنه ما لبث أن لاحظ على القوم جبنا وترددا، ولم يسعه إلا أن يختم خطبته فجأة، وقد ارتسمت علائم أسفه وغضبه ويأسه بوضوح على محياه.

وفيما هو يهم بمغادرة السلم عائدا إلى العربة، برز من بين الجمع شيخ كبير تلوح البساطة فى زيه وخطواته ونظراته، وشق بصوته الأجش الخجول ما ران من الصمت الكئيب قائلا:

- أيها الملك الجليل العزيز.. إننا نستميحك العفو، فما كنا لنتوقع مثل هذه الزيارة الكريمة، ولا سماع هذا الحديث الخطير وإنه ليس فينا من يضن ببذل روحه فى سبيل الوطن والعرش فأما المال فلعل رئيس الكنيسة أقدر منا على التحدث فى شأنه، فإذا رأى الملك فليتفضل بالصعود إليه حيث هو فى خزانة الكنيسة الآن!

ورأى الملك أن لا بأس من الموافقة على هذا الاقتراح، فصعد

الدرجات الباقية من السلم حتى باب الخزانة، ثم دخل وحده، تاركا رجال حاشيته ينتظرون مع المنتظرين.

كانت غرفة الخزانة بالكنيسة - كما هى الآن - ضيقة دانية السقف تكاد تكون خالية من الأثاث، ولم يجد فيها الملك جوستاف - حين دخلها - من أحد سوى قروى شيخ يلبس سراويل من جلد، ومعطفا سابغا من صوف أبيض خشن كيدى صاحبه الدالتين على طول ما عمل فى الحقول.

ونهض القروى الشيخ مرحبا بالزائر الجليل، وقدم له الكرسى الوحيد ذا المسند المرتفع، الذى ما زال باقيا هناك إلى اليوم. فجلس الملك وهو يقول:

إنى أنا جوستاف الملك، وكنت أحسب أنى سألقى هنا رئيس الكنيسة. لكن لعله مشغول بالصلاة ويلوح لى أنه رجل صالح، أليس كذلك؟

ولم يكن هذا القروى الشيخ إلا رئيس الكنيسة نفسه. وكأنما كره أن يجبه الملك بالكشف عن حقيقة أمره بعد ذلك السؤال، فسايره فى الحديث وأجاب عن سؤاله فقال:

- لا بأس بالرجل، فهو فيما أعلم حريص على طاعة الله، وعلى تقريب تعاليمه إلى أفهام الناس.

ولاحظ الملك ما فى صوت محدثه من تردد وحياء، فقال:

- يخيل إلى أنكم - مع ذلك - غير راضين عن صاحبكم كل الرضا.

وخشى رئيس الكنيسة أن يكون فيما ذكره عن نفسه شىء من المغالاة والاعتداد بها فرد قائلا:

- وهل هو إلا بشر؟ ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها؟!.

إن الناس هنا يأخذون عليه أنه لا يشاورهم فى الرأى، أو لا يأخذ بمشورتهم.

ولم يعجب الملك هذا النقد الموجه إلى رئيس الكنيسة وهو يحسبه غائبا، فقطب ما بين حاجبيه قليلا، وقال:

- لئن صح ما قلت، فهو دليل على حكمة قسيسكم وسداد رأيه، يؤيد هذا أن الناس هنا يعيشون فى سعادة وسلام، وهم ولا شك أصفى نفوسا، وأقوى أخلاقا من كثيرين غيرهم.

فأومأ القسيس برأسه موافقا، ثم قال:

- أحق أن البلاد فى حاجة إلى المال لدفع الأخطار المحدقة بها؟

ونظر الملك إلى الرجل شزرا، ولم يجب. فواصل هذا كلامه، وقال:

- عفوا أيها الملك الكريم

لقد دفعنى إلى هذا السؤال، أنى كنت فى المدينة منذ أيام، وقد سمعت الناس يتحدثون بذلك هناك. فإن صح ما قيل، ففى استطاعة رئيس هذه الكنيسة أن يقدم للملك كل ما يحتاج إليه الوطن من مال!

وتفرس الملك فى وجه الرجل مليا، فلما رأى الجد فى هيئته، سأله:

- ألم تذكر منذ هنيهة أن القوم هنا كلهم فقراء؟!

- فقال: نعم، وإن قسيسهم لأشدهم فقرا لكنه رغم ذلك يستطيع - كما قلت - أن يمد الوطن بأكثر من المال الذى يبتغيه. وإذا أذنت لى فإنى ذاكر لك كيف يكون ذلك.

ووضع الملك إحدى ساقيه على الأخرى، وعقد ذراعيه على صدره وثنى رأسه كأنه يستعد للنوم، وقال لمحدثه:

- لك أن تبدأ الآن.

وشرع رئيس الكنيسة يروى للملك قصة المال الذى يمكن تدبيره فقال:

منذ سنين، كان فى هذه القرية خمسة رجال اشتهروا بتلازمهم ونجاح رحلاتهم لصيد الوعول فى الغابة القريبة. وإن رئيس الكنيسة أحد هؤلاء، واثنان منهم من الجنود هما الشقيقان: «أولوف وإريك سفرد»، والرابع: «ستن ستنسون» صاحب فندق القرية. أما خامسهم: فكان فلاحا يدعى «إسرائيل بربرسون».

وبدا الملل فى وجه الملك، ثم ترك رأسه يميل على صدره وتمتم قائلا:

- عد عن هذه الأسماء!

واستأنف رئيس الكنيسة حديثه فقال:

- وفى إحدى رحلات هؤلاء الأصدقاء الخمسة، تخلى عنهم التوفيق، فأمضوا وجه النهار دون أن يصيبوا أى صيد، وكان التعب قد نال منهم، فجلسوا حيث بلغوا من الغابة ليستريحوا قليلا قبل أن يكروا راجعين.

وفيما هم منهمكون فى الحديث لاح لعينى رئيس الكنيسة خيط يلمع فوق صخرة تحت قدميه، وكان خلال حديثه قد نكتها بعصاه حتى أزال ما عليها من العشب البرى دون قصد. وشد ما كان عجبه حين عاد إلى ضرب تلك الصخرة بعصاه فإذا بالأجزاء التى تفتتت منها تلمع فيها خيوط كذلك الخيط، وما كاد يلتقط بعضها ويتأملها حتى صاح قائلا:

- أرأيتم؟! أليس هذا برصاص؟.

وسارع زملاؤه الأربعة إلى تأمل الخيوط الملتمعة فى الصخور التى تحتهم وحولهم، ثم ما لبثوا أن عجبوا كعجبه وقالوا: «إن لم يكن هذا رصاصا، فأكبر الظن أنه زنك، بل لعله معدن أكرم وأعظم».

وهنا رفع الملك رأسه بعد أن فتح إحدى عينيه وسأل محدثه:

- ألم يكن فى أولئك من هو خبير بالمعادن أو الصخور؟

واغتبط رئيس الكنيسة لاهتمام الملك بالقصة، فقال:

لا لم يكن بينهم من يستطيع البت فى ذلك الأمر، على أنهم أيقنوا بنفاسة المعدن الذى استكشفوه، ثم غطوا الصخور بعد أن احتفظوا بأجزاء منها، وعادوا إلى القرية على أن يحمل رئيس الكنيسة هذه الأجزاء فى اليوم التالى إلى مدينة «فالون» التى تبعد عن القرية مسيرة يومين، ثم يعود إليهم بالنبأ اليقين عن المعدن الذى استكشفوه، بعد أن يسأل فى ذلك أهل الذكر من مفتشى المناجم هناك.

وفتح الملك عينه الأخرى، واعتدل فى كرسيه، واستعجل محدثه سائلا:

وماذا فعل رئيس الكنيسة؟ ألم يذهب إلى فالون؟

فقال:

- نعم ذهب إليها فى اليوم التالى كما اتفقوا، وكانت الرحلة شاقة، ولكن الأمل هونها عليه، فأمضى يومى الذهاب يحلم فى يقظته ونومه بما يرجوه من ثراء وجاه، ولا سيما أن هذا سيمكنه من زواج الفتاة التى كان فقره يحول بينها وبينه، ثم يعيش معها فى قصر يشيده بدلا من الكوخ المتواضع الذى كان يقطنه.

وعاد الملك يستعجله سائلا:

- وماذا قال مفتشو المناجم؟

فقال:

- لقد فحصوا الأجزاء الصخرية التى حملها إليهم فحصا دقيقا، ثم أجمعوا على أن المعدن الذى تحتوى عليه ليس برصاص ولا زنك.

وهنا ابتسم الملك ساخرا، وقطع الحديث قائلا:

- وهكذا انتهت القصة بتبدد أحلام القسيس وصحبه واتضح أنهم كانوا واهمين ثم هم الملك بالنهوض متململا، لولا أن سارع محدثه فقال:

- لا يا مولاى، لم يكونوا واهمين، بل كانت الحقيقة أعظم من كل ما أملوه. فقد ثبت أن المعدن الذى استكشفوه لم يكن إلا فضة، أى أنهم حصلوا على جبل هائل من الفضة.

وفغر الملك فاه عجبا، وحدق فى وجه محدثه متفرسا، ثم سأله:

- أهو رئيس كنيستكم هذه الآن من تتحدث عنه؟

فأومأ هذا برأسه قائلا:

- نعم.. إنه هو بعينه، وقد عاد إلى القرية مسرعا ليزف البشرى إلى شركائه الأربعة، والدنيا لا تسعه من السرور.

فقال الملك وقد عاوده الشك والقلق:

- وأخيرا لا شك فى أن الدينا لم تسعهم من الفرحة - أيضا - ثم تبين لهم حين بدءوا العمل فى المنجم أن مفتشى المناجم فى «فالون» كانوا يسخرون منهم؟!

قال:

- لا أيها الملك العزيز، لم يكن فى الأمر أى سخرية أو استهزاء.

فاعتدل الملك فى جلسته مرة أخرى وقال:

- حسنا وماذا تم فى أمر جبل الفضة، هل ضلوا طريقه؟!

فقال:

- إنهم كانوا من الخبراء بكل بقعة فى الغابات والجبال المحيطة بالمنطقة، فطالما جابوها فى رحلاتهم للصيد، ثم هم إلى ذلك كانوا قد اتخذوا علامات تهديهم إلى المنجم الذى وجدوه.

فارتسمت الدهشة على وجه الملك من جديد، وقال:

- إذن ماذا حدث؟.

ثم مال بجذعه إلى الأمام معتمدا بيديه على ذراعى الكرسى وأرهف سمعه للوقوف على تتمة الحديث.

وأتم رئيس الكنيسة حديث جبل الفضة فقال:

- كان الوقت عصرا حين عاد رئيس الكنيسة إلى القرية، وقد رأى من واجبه قبل أن يأوى إلى منزلة فى مدخلها ليستريح من عناء السفر، أن يمضى إلى رفاقه ليشركهم فى ابتهاجه بالنبأ العظيم.

وكان فندق ستنسون قريبا من منزله، فحث إليه خطاه. وما كاد يشرف عليه حتى رأى أبوابه ونوافذه مجللة بالسواد، حتى إذا اقترب منه وجد الطريق إليه مفروشا بنشارة الصنوبر، إشارة إلى أن جنازة مرت أو ستمر من هناك. وكاد يصعق حين علم أن الميت لم يكن سوى «ستنسون» نفسه، وأنه مات متأثرا بإفراطه فى الشراب منذ اكتشافهم المنجم، مع أنه لم يكن يشرب الخمر قبل ذلك.

وازداد الملك اهتماما بسماع القصة، فواصل رئيس الكينسة حديثه،

وقال:

- وحز هذا النبأ فى نفس رئيس الكنيسة، وطغى حزنه لمصرع صاحبه على فرحته بالثراء المنتظر. ثم انطلق ليلقى بقية الزملاء الشركاء، فما مشى خطوات حتى رأى إسرائيل بربرسون قادما. وما كاد يلقى إليه نبأ جبل الفضة الذى أصبح ملكا لهم حتى رآه قد اصفر وجهه وترنح للسقوط ثم أخذ يصرخ كالمجنون ويقول: إنى لأسوأ حظا من «ستنسون» لقد مات وانقطعت صلته بالدنيا فلم يعد يهمه أكان جبلنا من ذهب أم كان من حجر. أما أنا فقدر لى أن أعيش فقيرًا نهبا للندم والحسرة والأسف والحرمان، لقد بعت نصيبى فى الشركة لصاحبنا أولوف سفرد، بعته إياه بمائة دينار، وكنت أحسبنى الرابح فى هذه الصفقة، فإذا بخسارتى فيها لا تقدر بمال، ثم ارتمى على الأرض وأطلق لدموعه العنان.

وعبثا حاول رئيس الكنيسة أن يعزيه، فتركه وعاد إلى منزله متعبا مهمومًا، مؤجلا مقابلة الزميلين الباقيين حتى الصباح.

وما طلعت الشمس حتى غادر منزله، قاصدا منزل شريكيه الباقيين، وهما الجنديان الشقيقان: أولوف، وإريك سفرد.

وهنا فتح باب الخزانة، ودخل أحد رجال الحاشية ينبئ الملك جوستاف الثالث بأن العربة تم إصلاحها، فالتفت إلى رئيس الكنيسة، وهو مازال يحسبه أحد الفلاحين وقال له:

- هيه؟ أوجز حديثك أيها الشيخ، ماذا حدث بعد ذلك؟

فقال رئيس الكنيسة:

- كانت دار المحكمة والسجن فى طريقه إلى منزلهما، فلما بلغها وجد عندها جماعة من الجنود مدججين بالسلاح وقد أحاطوا برجل قيدت يداه بالأغلال قيل إنه ارتكب جريمة قتل شنعاء. وما إن وقعت

عيناه على هذا الرجل المتهم حتى عرف أنه صاحب أولوف سفرد، ثم عرف أن القتيل لم يكن إلا إريك شقيق أولوف. فقد شجر الخلاف بين الشقيقين منذ اشتراكهما فى الاهتداء إلى المنجم، ثم اشتد الخلاف بعد أن اشترى أولوف لنفسه نصيب ستنسون المسكين، فقامت بينهما مشادة انتهت بقتل إريك، والقبض على أولوف لتقديمه للمحاكمة!

وقال الملك وهو يهم بالنهوض:

- لم يبق إذن من الشركاء فى جبل الفضة إلا رئيس الكنيسة، فماذا فعل؟ وأين هو الآن فقد قيل لى إنه هنا، ولكنه لم يأت بعد.

وهنا حنى رئيس الكنيسة رأسه تحية وإجلالا، ثم قال:

- إنى أنا هو رئيس الكنيسة أيها الملك الجليل!

فلم يسع الملك وقد ازدادت دهشته إلا أن نهض، وأخذ يحدق فى وجه محدثه ويتمتم قائلا:

- أنت؟ أنت رئيس الكنيسة صاحب جبل الفضة؟ كيف هذا؟: أراك ما زلت تكد وتشقى كأى عامل فى الحقول؟

فابتسم الرجل وهو ينظر إلى يديه الخشنتين وملابسه الريفية وقال:

هكذا أراد الله أن أختار لنفسى، والخيرة فيما اختاره الله.

لقد ذهب جبل الفضة بأرواح أربعة من الخمسة الذين وجدوه، ولقد أوشك أن يلحق بهم خامسهم ومعه مئات من أهل القرية الذين علموا بالنبأ، فجن جنونهم، وتركوا أعمالهم، وراحوا يجوسون خلال الأدغال والجبال، ويعدون كل حركة وسكنة لقسيسهم، لعلهم يهتدون إلى جبل الفضة المذكور.

وفى يوم من أيام الآحاد، دعوتهم إلى الاجتماع هنا فى هذه الكنيسة

وقلت لهم:

- إن راعيكم لا يمكن أن يسعى فى سبيل شقائكم، وفساد أمر دينكم ودنياكم، وقد اخترت لنفسى أن أعيش لأجلكم فقيرا، أشارككم أعمالكم وآلامكم؛ لآخذ بأيديكم إلى سبيل السعادة الحقة، سعادة الروح بالرضا والاطمئنان، وكان القوم عند حسن ظنى بهم، فعادوا إلى رشدهم وأعمالهم، ولم يعد أحد منا يفكر فى أمر جبل الفضة منذ ذلك الحين، وإننا بذلك لسعداء.

ثم اقترب رئيس الكنيسة من الملك الواقف أمامه وقال:

- والآن أيها الملك: إنى ما زلت أعرف مكان جبل الفضة وإن لم أحاول التفكير فى الذهاب إليه كل تلك السنين الطوال، وما دام الوطن فى خطر، وفى حاجة إلى المال فأنا على استعداد لأن أدلك على ذلك المكان.

ونظر الملك من النافذة القريبة منه، وأخذ يتفرس فى جموع القرويين المنتظرين فى الخارج، ووجوههم وملابسهم تفيض بالصحة والسعادة، ثم التفت إلى رئيس الكنيسة متأملا زيه القروى البسيط، وما يجلل شيخوخته العاملة من هيبة وسكينة ووقار، ثم مد يده إليه مصافحا ليودعه وقال:

شكرا لله أيها الراعى الحكيم؛ لقد ضحيت - مخلصا - بسعادتك الدنيوية، ووهبت حياتك للعمل والألم والحرمان، حتى بلغت بقومك إلى ما هم فيه من حياة فاضلة ملؤها السعادة والسلام، فليبق جبل الفضة كما أردت أن يكون، وما كانت الفضة ولا الذهب ولا أى معدن كريم آخر بأنفع للوطن من أن يكون رجاله بهذه الأخلاق.

نُزُل الزواج

إنكم أيها البشر تظنون أنكم تصنعون أقداركم بأيديكم، والحقيقة أنكم لا تستطيعون أن تفعلوا إلا ما تمليه عليكم أقداركم وما خطته السماء لكم، فكل خطوة يخطوها الإنسان، وكل لقمة يضعها فى فمه وكل قرش يدخل جيبه مقدر له فى السماء، وحتى أنفاسكم مقدرة ومحسوبة.

كان لهذه الكلمات وقع خطير وحساس على نفس «واى»، وكان واى قد قطع شوطا طويلا فى البحث عن الزوجة المناسبة التى تليق به، والتى تتوفر فيها الشروط الصارمة والدقيقة التى وضعها ولم يرض بالتنازل عن أى منها لدرجة أنه قرر أن يقوم برحلة خارج بلدته إلى «تسنغو»؛ ليستريح من العناء والتعب الذى ألم به من كثرة التفكير والبحث، ومن يدرى، لعله يجد فى سفره ما كان يبتغيه؟ وتوقف فى إحدى الليالى فى نزل خارج بوابة «سونغشنغ» الجنوبية، وهناك التقى بشخص تجاذب معه أطراف الحديث، فلما عرف أنه يبحث عن عروس جميلة ومتعلمة، وذات أصل وحسب، أكد له أنه يعرف عروسا تتوافر فيها كل هذه الشروط وطلب منه أن يقابله فى صباح اليوم التالى فى معبد «لونغشنغ» ليصحبه إلى منزل العروس لرؤيتها والتعرف على أهلها، ولم يستطع «واى» النوم لحظة واحدة فى تلك الليلة المشهورة يفكر ويتخيل صورة الزوجة الموعودة التى وصفها له ذلك الشخص، وعند الفجر أخذ واى يتهيأ للقاء فاغتسل وتطيب وارتدى أحسن ملابسه وأثمنها، وخرج من نزله قاصدا معبد «لونغشنغ» كان الصمت يلف الطرقات، وكانت السماء صافية والقمر يتلألأ كأنه عين السماء التى ترعى البشر وتسهر على راحتهم، ولما وصل واى إلى المعبد قابل ذلك الشيخ العجوز الذى ألقى على سمعه تلك الكلمات، وكان يقرأ فى كتاب ذى نقوش غريبة وبجواره كيس تظهر من فتحته خيوط حمراء دقيقة، فرد عليه واى قائلا:

- إننى اليوم على موعد للقاء شخص لأمر يهمنى فما الذى يمنعنى من مقابلته؟

رد عليه الشيخ العجوز قائلا:

- لا تتعجل الأمور يا إنسان؛ فقد يحدث ما ليس فى الحسبان.

انتبه واى إلى أن الشيخ العجوز يحاول دائما أن يضع حواجز بينه وبينه فسأله:

- لماذا تنادينى بإنسان؟

- لأنك إنسان.

- وأنت، ألست إنسانا؟

- لا لست إنسانا؟

- فماذا تكون إذن؟

- أنا روح لقد قدمت فى وقت مبكر جدا وفى هذه الساعات بين الليل والنهار يكون نصف العابرين من البشر والنصف الآخر من الأرواح.

- وماذا تفعلون فى هذه الساعات المبكرة؟

- إننا نحن الأرواح موكلون بكم أيها البشر نرعاكم وندبر أموركم ونخط ما كتبته أقداركم. وفى الليل نطوف بكم لنراقبكم ونطمئن عليكم ونخط أحكام أقداركم.

- إذن هل تسمح لى أيها الروح الطيب أن أسأل عن سبب وجودك فى هذا المكان، وما كنت تقرؤه فى هذا الكتاب؟

- هذا الكتاب مدونة به كل الزيجات المدبرة فى السماء، فأنا الروح المكلف بشئون الزواج. وكنت أقرأ فى الكتاب أسماء الأزواج الجدد

الذين سوف أربط بينهم.

- عندئذ بدا على «واى» اهتمام زائد، وقال: حقا؟! فأنت إذن أنسب من أستشيره فى هذا الأمر؛ فقد جئت إلى هذا المعبد للقاء شخص وعدنى أنه يعرف الفتاة التى تصلح زوجة لى. أرجوك أن تنظر فى هذا الكتاب لترى هل ستتم هذه الزيجة أم لا؟

فسأله الشيخ:

- ما اسمك، وما عنوانك؟

- فأجابه واى.

وأخذ الشيخ يقلب فى صفحات كتابه ثم توقف عند إحداها ونظر قليلا، ثم قال:

- لا فزوجتك لا زالت طفلة صغيرة لم تتجاوز عامها الثالث، ولن تتزوجها إلا عندما يكون عمرها سبعة عشر عاما.

- أتقصد أنى سأبقى عازبا كل هذه السنوات؟

- نعم، هذه هى الحقيقة.

شعر «واى» بقلق وأراد ألا يصدق هذا العجوز وأن ينسى ما قاله ولكنه لم يستطع فاستدار بوجهه إلى العجوز وسأله:

- وما هذه الخيوط الحمراء التى تحملها فى الكيس؟

فابتسم العجوز وقال:

إنها خيوط حريرية أحملها معى وأطوف بها فى الليالى وأنظر فى كتابى أقرأ أسماء الأزواج الجدد وبمجرد أن يولدوا أربط قدم كل إنسان بقدم زوجته بأحد هذه الخيوط.

- ألا يمكن أن ينقطع هذا الخيط؟

لا يستطيع أحد أن يقطعه؛ لأنه خيط القدر.

وقد تكون المسافات بين الشخص والتى سوف تصبح زوجته بعيدة جدًا، ولكن هذا الخيط يجمعهما وبميعاد فقد يكون أحدهما ثريا جدا أو من وسط اجتماعى راق والآخر يعيش فى فقر مدقع أو من أدنى طبقات المجتمع، أو قد تكون بين أسرتيهما أو بلديهما خلافات ومنازعات لا حد لها، ولكن هذا كله لا يمنع أن يلتقيا ويتحابا ويتزوجا.

- هذا معناه أن قدمى الآن مربوطة بقدم تلك الطفلة؟

- طبعا.

وكان الشك لا يزال يعبث بقلب «واى» فيما يقول العجوز فسأله:

- أيمكن أن تصحبنى إلى المكان الذى تعيش فيه هذه الطفلة؟

فأجاب العجوز:

- بمجرد أن تبزغ شمس النهار سوف أصحبك إلى مكانها.

ظل واى ينتظر قدوم ذلك الشخص، ولكنه تأخر كثيرا، وتأكد واى أنه لا فائدة من الانتظار فقال للعجوز:

- لقد تأخر كثيرا وأعتقد أنه لن يأتى.

- أرأيت؟ لقد قلت لك الحقيقة وعليك أن تصدقها وتؤمن بها.

لم يشأ واى أن يجادل محدثه كثيرا فيما يقول، بل إنه حتى لم يكن يريد أن يأخذ كلامه على محمل الجد، وقال له:

- يبدو أنك تحب عملك كثيرا.

- بالطبع؛ فأنا أجمع بين الفتى والفتاة بمجرد أن تبصر عيناهما النور،

وأراقبهما وهما يكبران معا، ولا يكون أحدهما يشعر بالآخر فى أغلب الأحيان، وقد تكون بينهما مسافات بعيدة ولكن حين يأتى الموعد المحدد يلتقيان وتذوب فى سبيل ذلك كل العقبات.

ثم استطردا فى الحديث معا حتى بزغت الشمس فقال العجوز لـ «واى»:

- لقد آن الأوان، هيا بنا إلى سوق البلدة لترى عروسك.

ولما وصلا إلى السوق أشار العجوز إلى امرأة مهلهلة الثياب منفوشة الشعر ضعيفة النظر تحمل على صدرها طفلة صغيرة وبجوارها بعض الخضر التى تبيعها، وقال له:

- هذه الطفلة التى تحملها تلك المرأة ستكون زوجتك.

لم يستطع واى أن يتمالك نفسه، فصرخ فى الشيخ:

- ماذا تقول إنك تهذى، ثم استعاد سيطرته على نفسه واعتذر للشيخ وقال له:

- أقصد أنك تمازحنى!

فرد الشيخ:

- كلا، لست أمازحك، وما أقوله لك هو الحقيقة؛ هذه الطفلة سوف تصبح زوجتك وسوف تعيش فى سعادة واطمئنان وسترزق منك طفلا يصبح سيدًا رفيع المقام وسيرتفع قدرها بسببه.

دارت الدنيا بـ «واى»، وقال: إنها لكارثة أن يكون كلام هذا الرجل حقيقيا، فكيف يتزوج «واى» ذو الحسب والنسب من ابنة بائعة خضار؟! واستدار للشيخ ليناقشة فيما يقول، ولكنه تلفت حوله فلم يجده فأخذ يبحث عنه، ولكن لم يعثر له على أثر.

عاد «واى» إلى منزله ورأسه مزدحمة بالأفكار، فالرجل الذى واعده لم يأت، وأخلف موعده ولا زال مسلسل الفشل مستمرا، والتعثر يلاحقه فى كل خطواته، كما أن كلام ذلك الشيخ أقلق فؤاده بشده، فماذا يفعل لو أصبح بالفعل محكوما عليه بالزواج من تلك الطفلة الفقيرة التى لا أصل لها؟

وبعد تفكير عميق قرر «واى» أن يتخلص من تلك الطفلة حتى يطرد الأفكار التى نغصت مضجعه ولم يهنأ بسببها بلحظة من الراحة فوعد خادمه بمكافأة كبيرة إذا تمكن من قتلها. واصطحبه إلى السوق فى صباح اليوم التالى وأشار بيده إلى بائعة الخضار وقال له:

- هذه الطفلة اطعنها بمديتك طعنة واحدة، فإذا أجهزت عليها سوف يكون لك ما وعدتك به.

تدخل الخادم بمديته الحادة وهجم على الطفلة ولكن السيدة فزعت وانتفضت بالطفلة التى أمالت وجهها وأدارت رأسها فطاشت ضربة الخادم ولم تفلح إلا فى إصابة جبينها بجرح نافذ؛ فصرخت الطفلة الصغيرة، وصاحت المرأة بأعلى صوتها، والتف الناس من حولها، وعمت الفوضى المكان، وحاول البعض القبض على اللص، ولكنه تمكن من الهرب.

بعد هذه الحادثة أصاب الذعر قلب «واى»، وخاف أن ينكشف أمره فأسرع بالرحيل من المدينة، واتجه غربا إلى العاصمة.

وما لبث أن نسى أمر تلك الطفلة، وبعد ثلاثة أعوام عثر واى على فتاة من الوسط الراقى من أسرة عريقة معروفة فى طول البلاد وعرضها، وهى أسرة «تان».

كانت هذه الفتاة رائعة الحسن ومهذبة، وذات ثقافة عالية. ولكن عندما بدأت الاستعدادات النهائية لحفل الزواج، وصله نبأ انتحار

خطيبته؛ فقد كانت تحب شخصا آخر ولا تريد الارتباط بواى.

تقبل «واى» الصدمة، ولكنه طرد فكرة الزواج من رأسه نهائيا.

واستمر على هذا الحال عامين كاملين، ثم قابل ذات يوم ابنة أحد المزارعين عند معبد فى الأرياف فأحبها وأحبته وتقدم لخطبتها، ورحب أهلها، ولكن الفتاة سرعان ما أصيبت بداء عضال أنحل جسدها وأوهن عظمها، وكان «واى» يرغب فى الانتظار حتى تشفى خطيبته، ولكنها رفضت وطلبت منه أن يفارقها بعد أن اشتد بها المرض وتساقط شعرها وراح بصرها.

أحس «واى» بخيبة أمل شديدة، وتحولت الدنيا أمامه إلى طريق مظلم مسدود وأصبح عاجزا عن تفسير ما يحدث له وأصبحت تراوده فكرة الإيمان بالقضاء والقدر، إلى درجة أنه قرر أن يهجر فكرة الزواج حتى لا تحدث أية كوارث أخرى.

وبعد عدة أعوام عثر واى على فتاة حسناء تحب القراءة والاطلاع، ولديها شغف بالموسيقى والشعر، فطلب يدها، وقبل عقد القران والزفاف بثلاثة أيام التوت قدم العروس فوق بلاطة فى أحد الطرق فسقطت على الأرض جثة هامدة.

عند ذلك الحد أعلن «واى» استسلامه وقرر أن يترك الأقدار تفعل ما تشاء؛ فقد آمن الآن - تماما - بالقضاء والقدر، وقرر الانصراف عن التفكير فى هذا الأمر وأن ينصرف إلى العمل بكل تفكيره حتى لا تعاوده فكرة الزواج مرة أخرى.

حقق واى نجاحًا كبيرا فى عمله ولفت إليه الأنظار بشدة.

ودفعت مهارته القاضى «وانغ تاى» أن يعرض عليه الزواج من ابنة أخيه الجميلة، فأجابه واى بأنه لم يعد يفكر فى هذا الأمر، إضافة إلى كبر سنه

بالنسبة لابنة أخيه الشابة التى يمكن أن تتزوج شابا فى مثل سنها أو أكبر منها بقليل، ولكن القاضى هون عليه الأمر وقام هو بالترتيب لهذا الزواج، ولم ير «واى» زوجته إلا يوم الزفاف فإذا هى كالبدر فى اكتماله فشعر بالرضا والسرور ورأى من زوجته ما سر نفسه وأبهج خاطره؛ فحمد الله كثيرًا.

وبعد أيام من الزواج لاحظ واى أن زوجته ترسل شعرها فوق جبينها بحيث يدارى جانبه الأيمن وكان «واى» يحب ذلك كثيرا، ولكنه سألها عن السبب فى عدم تغيير هذه التسريحة، فأجابته بأنها تتعمد إرسال شعرها بهذه الطريقة؛ ليدارى أثر جرح قديم فوق حاجبها.

فسألها واى:

- كيف أصبت بهذا الجرح؟

فأجابت قائلة بأن والديها توفيا فى عام واحد وبعد وفاتهما بقليل توفى أخوها الأكبر فعهد بها إلى سيدة ترعاها وكانت هذه السيدة تبيع الخضار فى سوق «لونغشنغ». وذات صباح حاول لص أن يقتلها دون أى سبب معروف، ولكنه لم يتمكن من ذلك وكل ما أفلح فيه هو ترك هذا الأثر فوق حاجبها!!

فسألها واى:

- وهل كانت هذه السيدة كليلة البصر؟

فأجابته:

- نعم.

- سألته:

- كيف عرفت ذلك؟

رد «واى»:

- لقد كان هذا اللص خادمى، وأنا الذى دفعته إلى ذلك ووعدته بمكافأة كبيرة لو تمكن من قتلك، ثم روى لها القصة كاملة. فقالت له إن عمها عثر عليها قبل زواجهما بعام فأخذها إلى منزله لتقيم مع أسرته وأنها شعرت عندما عرض عليها عمها الزواج منه بسعادة كبيرة لم تدر ما سرها، رغم أنها لم تكن قد رأته من قبل. فتعجب الزوجان من فعل القدر وازداد حبهما عندما شعرا أن زواجهما قدر فى السماء.

وتقول الأسطورة: إن واى وزوجته أنجبا طفلا أصبح فيما بعد قاضيا لـ «تايوان» وإن الأم منحت رتبة شرف من أجله وإن قاضى «سونغشنغ» عندما سمع قصتهما أطلق على المنزل الذى أقام فيه واى اسم «نزل الزواج».

* * *

فهرس المحتويات

* * *